الفروسية في شعر الخوارج

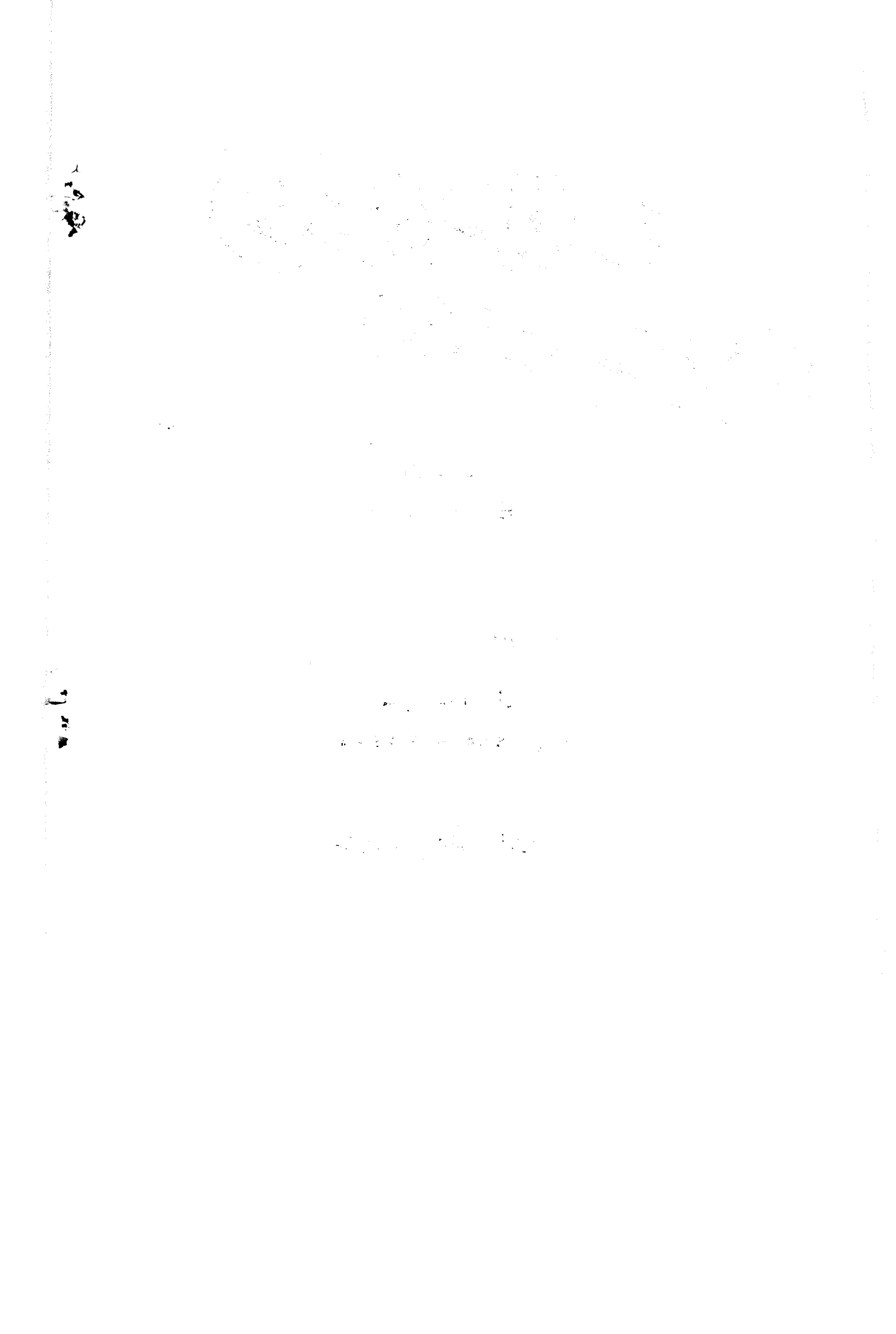


الدكتور

طلعت صبح السيد

الطبعـــة الأولى

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد إمام المجاهدين وفارس الفرسان إلى يوم الدين . . وبعد :

فهذا بحث بعنوان « الفروسية فى شعر الخوارج » . وهو موضوع يتناول شعر الفروسية الذى نظمه شعراء الخوارج ، والذى يصف أمجاد جماعتهم ، وبأس أبطالهم فى حومات الوغى ، وفروسية فرسانهم فى زحمات النزال ، وبلاءهم فى أشرف أيامهم وأروعها ، وتحملهم لما لا يطاق من الشدائد والمشقات .

وليس من شك فى أن هذا موضوع يجد الباحث فيه مشقة غير يسيرة لأن شعر الفروسية عند الخوارج لم تتوفر عليه جهود الباحثين كشأن غيره من الموضوعات الأدبية ، وليس له فيما أعلم مصادر محددة مستقلة ، الأمر الذى فرض على أن أجوب المراجع القديمة ، وأن أضرب فى أسفار اللغة والأدب لعلى أجد فيها خبرا عابرا عن الخوارج أو متناثرات من شعرهم .

.. والذى أعتقد أنه وفى بحاجة البحث هو هذا القدر الكبير من شعر الخوارج ، والذى قام بجمعه الدكتور « إحسان عباس » فى كتابه « شعر الخوارج » ، والفائدة فيه أنه يمثل قدرا لا بأس به من شعر شعراء الخوارج الفرسان .

أما هذه الدراسة فتهدف إلى إخضاع « شعر الفروسية عند الخوارج » في إطار من حياة قائليه وعقائدهم واتجاهاتهم ، وفي إطار من ملابساته التاريخية والسياسية والدينية - للدراسة العلمية ، لاستجلاء مظاهره ، واستخلاص مقوماته ، وبواعثه ، وخصائصه ، ليتسنى لنا أن نضعه موضعه من تاريخ أدبنا العربي .

وقد أردت بهذا البحث أن أظهر بطولات الخوارج ، وكيف كانوا حراسا لعقيدتهم ، يموتون في الذود عن حياضها ، ويستهينون بكل مغريات الحياة لإعلائها ، حتى ظهرت فروسيتهم تصور الحماسة العربية في أصدق مظاهرها وأروع بيناتها ، كما كان من قصدي أن أبين بالتفصيل المؤيد بالاستشهاد ما لحظته من الخصائص الفنية لشعر الخوارج الأصيل .

وبعد فهذا هو جهدي ، وأراه بداية ستتبعها محاولات لي بإذن الله تعالى ، وأرجو أن يكون هذا البحث إضاءة لغيري من الباحثين طريقهم إلى شعر الفروسية ، فإن في هذا الشعر من الظواهر المميزة ما يدعوهم إلى معاودة الدراسة في تأن واستبطان .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ؟

دكتور / طلعت صبح السيد

أرض الشال بالمنصورة في { ربيع الأول سنة ١٤٠٦ هـ
ديسمبر سنة ١٩٨٥ م

الفصل الأول

صورة عامة للحياة السياسية والاجتماعية والأدبية فى العصر الأموى

أولا - الحياة السياسية :

لم يحس العربى فى العصر الجاهلى بوحدة سياسية إلا لقبيلته ، فهى دولته لها نظامها وعرفها المتبع وتقاليدها المتوارثة ، والقبيلة تجد فى وحدتها ما يكفل لها الحرية والقوة والسلامة .

ولما أشرقت بشائر الدولة الإسلامية بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم يكون مجتمعاً جديداً لا يخضع لعرف القبيلة بل يخضع لقانون واحد عام ، وهذا المجتمع الجديد ألبس ثوبا جديداً أحدث فى النظام الاجتماعى تغيرات أساسية مالبثت الدولة الناشئة أن سادت بسببها الجزيرة العربية وما جاورها .

وما أن لحق الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى حتى ظهرت بوادر العصبية الخامدة ، وأخذ المسلمون يتحدثون عن أمر الخلافة ، وكادت تحدث الفتنة بين المهاجرين والأنصار لولا أن قيض الله سبحانه وتعالى لهذا النزاع أبا بكر وعمر فقاما بإخماد الفتنة ، وحاولا الاحتجاج لقريش على الأنصار .

وقد وقف الشعر يرصد الأحداث ، فانتصب لكل حزب شاعر يتحدث بلسانه ، وأخذ كل شاعر يبرهن على أحقية حزبه بالخلافة ، فشاعر قريش يستبشر بها ، ويندد بتطلع الأنصار إليها ، ويحتج بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الأئمة من قريش » وأنه أوصى المهاجرين بالأنصار خيراً ، وأن العرب لاتدين إلا لقريش ، فضلا عن أنهم أول من آمن ؛ أما شعراء

الأنصار فلم يقبلوا هذه الدعـوى ، وأخذوا يحتجون بأنهم هم الذين آووا ونصروا .

ومهما كان الأمر فقد نجم عن هذا الخلاف أن ظهرت فى قريش عصبية جعلتها تستعلى على غيرها ممن اعتنقوا الإسلام ولم يكن لهم فى العرب نسب صريح ، الأمر الذى جعلها تخرج عن أصل من أخطر أصول الإسلام وهو المساواة والعدل .

وانقضى عهد أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب فى سلام ووئام ، فكل منهما قد تنبه إلى مايكفل للمسلمين وحدتهم ويذود عنهم من الخطر الخارجى الذى يتهددهم من الفرس والروم . لكن ما أن انقضى عهد الشيخين حتى زالت عوامل وجدت أسباب أحدثت ذلك التطور المنتظر .

فقد اختير عثمان بن عفان للخلافة ، فظهر التذمر ، وسخط كثير من المسلمين على خلافته ، وأخذت الفتنة تشتعل حتى انتهى الأمر بمقتل الخليفة ، وكان هذا أخطر حادث سياسى فى تاريخ الإسلام ، لأنه فتح بابا كبيراً للفتنة ، وجعل الحفاظ على وحدة الجماعة الإسلامية أمراً بعيد الاحتمال .

ثم آلت الخلافة لعلى بن أبى طالب ، فظهرت فى الحال جماعة موالية لعثمان ، أخذت تطالب بمعاقبة قاتليه ، وأشهر هؤلاء هو معاوية بن أبى سفيان ابن عم عثمان وواليه على الشام ، وأخذ معاوية هو ومن أحجموا عن مبايعة على يعلقون الدخول فى البيعة بتسليم على لقتلة عثمان .

وبدأ على مسعاه فى إعادة تقاليد الخلافة ، فهم بعزل ولاة عثمان ، ولم

يصغ لنصيحة بعض أصحابه بابقائهم حتى يهدأ الحال وتستقر الأمور ، وقد أطاع العمال أمر العزل إلا معاوية فقد مكنته إقامته الطويلة فى بلاد الشام من تكوين حزب قوى يناصره ويحميه .

وبدأ معاوية العمل ضد الامام على ، وازداد سخطه عليه ، وكان يليه فى السخط الصحابيان الجليلان طلحة والزبير ، فسرعان ما انقلبا على على ، واتهماه بأنه هو الذى دبر مقتل عثمان ، وأنه المستفيد الوحيد منه .

وهكذا علت على الساحة الإسلامية أسباب جعلت الهوة تتسع بين المسلمين ، وعصفت فرقتهم بالوحدة التى نعموا بها فى العهد الأول للاسلام ، ونشأت من ثم الأحزاب السياسية وأخذت تستكمل أسباب قوتها ومعالم شخصيتها ، فظهرت على الساحة ثلاثة أحزاب سياسية أخذت تعارض بنى أمية وتخاصمهم وتدعو إلى الانقضاض عليهم ، وهى الشيعة والخوارج والزبيريون وامتلأ العصر بسبب من هذه الأحزاب بكبريات الخطوب ، حتى إنه ليندر أن يضرب مثل بشدة الحروب وانصباب الدم كالذى ضرب فى زمن هذه الأحزاب .

ولا شك أن تاريخ الدولة الأموية يمثل صورة حقيقية لهذا الصراع الحزبى ، فقد اختلفت فى هذه الدولة الأهواء والأعراض ، وأصبحت ميدانا تتصارع فيه الأحزاب ، وكان هذا الصراع معول هدم فى بناء الدولة منذ فجر حياتها وحتى أفول شمسها ، فالحزب الخارجى يكفر الدولة الأموية ، وحزب الشيعة يخرج عليها تحت شعار الدعوة لآل البيت ، ويقوم من أجل

ذلك بالحروب والثورات التى هزت أركان الدولة وأضعفت كيانها ، وكانت من أهم العوامل فى القضاء عليها ، والزبيريون يقفون من الدولة موقف العداء السافر ، ويسيطرون على معظم ولاياتها فترة من الزمان .

يقول جورجى زيدان : « يختلف العصر الأموى عن عصر الراشدين اختلافا كبيراً من أوجه كثيرة ، ويعد انتقال الدولة الإسلامية إلى بنى أمية انقلابا عظيما فى تاريخ الاسلام ، لأنها كانت فى زمن الراشدين خلافة دينية فصارت فى أيامهم ملكا عضوضا ، وكانت شورية فأصبحت إرثية ، وقام معاوية يطلبها وينازع أعمام النبى وأبناء عمه عليها ، والمسلمون يعتقدون حق هؤلاء فيها ، وأن معاوية طليق لاتصل له الخلافة ، وأنه لم يعتنق الإسلام إلا مكرها ، ولكنه تمكن بدهائه وسعة صدره وبذله الأموال من التغلب عليهم جميعا ، فأسس الدولة الأموية » (١) .

(١) الأمويون

لم يكد الإمام على بن أبى طالب يتولى الخلافة حتى واجهته العقبات وأحاطت به المتاعب ، فقد طلب إليه جماعة من أولى الأمر ـ وعلى رأسهم معاوية بن أبى سفيان ـ أن يحاكم هؤلاء الثوار الذين قاموا بقتل الخليفة عثمان بن عفان (٢) .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : ١ / ١٩٢ ـ الهلال ١٩٣٦ .

(٢) أنظر الدولة الأموية فى الشرق : د . الطيب النجار : ١٣ وما بعدها الطبعة الثالثة .

وتمادى معاوية فى دعواه ، فأخذ يثير الناس ورفض أن يبايع عليا ، واستطاع أن يحرك المشاعر ويثير الخواطر ، وكان قد حشد لذلك كل مالديه من أساليب الدهاء ، وألقى فى أذهان الناس أنه إنما يطالب بثأر عثمان من قاتليه ، وأن عليا قد اشترك فى هذا الجرم وأوغل فيه .

فى هذا الجو بدأ على يوجه معظم اهتمامه إلى معاوية فهو العدو الأول الذى لا يزال يحكم بلاد الشام ويتجاهل أمر الخليفة بعزله ، ولا يقر أوامر الخليفة ولا يعترف بها ، وبدأ الصراع فى موقعة الجمل (٣٦ هـ - ٦٥٦ م) وقتل فيها طلحة والزبير وتم النصر لعلى .

وسرعان ماتجدد الصراع بين على ومعاوية فى موقعة صفين (٣٧ هـ - ٦٥٧ م) وكاد النصر يتحقق لعلى لولا الحيلة التى لجأ إليها عمرو بن العاص قائد جند معاوية ، فقد رفع جنده المصاحف ، وكان التحكيم وخلع على وتثبيت معاوية (١) .

وقد استطاع معاوية أن يستأثر بالخلافة ويقرها فى البيت الأموى ، وبخاصة بعد أن اضطر الحسن بن على إلى التنازل عنها وإيقانه ، أنه لا طاقة له بنزال معاوية وجنده ، فصالحه على أن يكون الأمر بعد وفاة معاوية شورى بين المسلمين يولون عليهم من أحبوا ، وقد وافق معاوية على ذلك واجتمعت الكلمة عليه (٢) .

---

(١) راجع تاريخ الطبرى جـ٥ والكامل لابن الأثير جـ ٣ .

(٢) تاريخ اليعقوبى : ٢ / ٥٤ . طبعة بيروت ١٩٦٠ م .

وهكذا قامت الدولة الأموية (٤١ هـ - ٦٦١ م) ، وبويع معاوية فى الكوفة عام ٤١ هـ على مشهد من الحسن والحسين (١) . لكنه لم يلبث إلا قليلا حتى ابتدع نظاما جديداً فى الخلافة ، فأخرجها من دائرة الشورى والانتخاب إلى التعيين والوراثة وذلك بإعلانه البيعة لابنه يزيد ، وشرع يوطد الملك له ويعهد إليه بولاية العهد فى حياته .

سياسة الأمويين :

اتخذ معاوية من مدينة دمشق مركزاً للخلافة الأموية ، وأحاط نفسه بأبهة الملوك وجلالهم ، وعلى الرغم من ابقائه على النظام الإدارى القديم إلا أنه أول من اصطنع الموالى والنصارى فى المناصب (٢) .

وأخذ بنو أمية ودعاتهم يحملون الناس على الطاعة لهم وعلى نصرتهم ومقاتلة من يتمرد على سلطانهم ، وكانت حجتهم فى ذلك أنهم خلفاء الله ورسوله - وقد جهر بهذا زياد والى معاوية فى خطبته البتراء بالبصرة فقال : « أيها الناس ، إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفىء الله الذى خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا » (٣) .

وكان على الدولة الأموية - لتوطيد دعائم ملكها - أن تستميل الناس

(١) مروج الذهب للمسعودى : ٢ / ٣٦ . المطبعة البهية المصرية ١٣٤٦ هـ .
(٢) انظر تاريخ الدولة العربية د . عبد العزيز سالم : ص ٣٤٦ مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر .
(٣) البيان والتبيين للجاحظ : ٢ / ٦٤ . نشر مكتبة الخانجى .

إليها ، فتسلح بنوها بالسيف ، كما تسلحوا باللسان والقلم والعطاء ، وتسلحوا فيما تسلحوا به بسياسة التفريق والتمزيق ، وبعثوا العصبية القبلية والعصبية الجنسية أو الشعوبية (١) .

ولعل أظهر ما يمثل دهاء معاويه وسعة عقله أنه عرف كيف يتخذ من العصبية حصنا منيعا يحصن به ملكه وملك أولاده من بعده ، فهل كان الصراع بين الزبيرية (أتباع عبد الله بن الزبير) والأمـــوية إلا صراع المصرية واليمانية ؟ (٢) .

وهذه العصبية كانت نذيرا بخطر لم يلبث أن استشرى فى الدولة الأموية فهدم أركانها ، وعجل بسقوطها . فالأمويون ـ وإن استنصروا على خصومهم بالعصبية ـ لم يلبثوا إلا قليلا حتى استنصر بها بعضهم على بعض .. وطبيعى لا يسلم بنو أمية بمسلكهم هذا من إثارة وإغضاب ، هذا إلى ما تجره العصبية من شرور ومخاطر ، وقد تحقق ذلك ، إذ سرعان ما صارت العصبية مرضا فى المجتمع ، ونجمت عنها فتن وثورات آذنت بنهاية الدولة وظهور الدعوة لبنى العبـــاس .

وقد أنذر نصر بن سيار والى خراسان هشام بن عبد الملك بقوله (٣) :

---

(١) أنظر مروج الذهب : ٢ / ٢١ .
(٢) المقارنة بين الشعر الأموى والعباسى فى العصر الأول د . عزيز فهمى : ٤٤ . دار المعارف .
(٣) مروج الذهب : ٢ / ٢٥ .

أرى خلل الرماد وميض نار * ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النـــار بالعودين تذكى * وإن الحرب أولها الكلام
فإن لم تطفئوها تجن حربا * مشمرة يشيب لها الغـــلام
أقول من التعجب ليت شعرى * أأيقاظ أمية أم نيـــام
فإن يك قومنا أضحوا نياما * فقل قوموا فقد حان القيام
ففرى عن رحالك ثم قولى * على الإسلام والعرب السلام

وقد أتيح لبنى العباس أن يبثوا دعاتهم فى هذا المجتمع الممزق الساخط ، فأخذا يشهرون ببنى أمية ، واستغلوا حنق بعض القبائل المتزايد عليهم ، وفى وسط هذا المجتمع الذى تصطرع فيه أمواج الفتن ويموج بالخلاف والانقسام لم تكن إلا جولات أو جولات حتى تهدم صرح بنى أمية وقام صرح بنى العبـــاس .

(٢) - الخوارج

أما الخوارج فيمكننا القول بأن التحكيم (١) كان الفرصة المناسبة لانشقاقهم على الإمام على بن أبى طالب وانفصالهم عنه ، وتنصيبهم لعبد الله ابن وهب الراسبى فى العاشر من شوال سنة ٣٧ هـ .

وعلى الرغم من تكفير الخوارج لعلى ومضايقتهم له فإنه استمر بسياسة المهادنة معهم ، لكنه سرعان ما اضطر لقتالهم بعد أن لم تجد مفاوضاته معهم

(١) راجع الآراء المختلفة فى التحكيم بتاريخ الطبرى ومروج الذهب .

وبعد اصرارهم على موقفهم الذى يتمثل فى قول إمامهم عبد الله بن وهب الراسبى وهو يعلن عن نفسه (١) :

أنا ابن وهب الراسبى الشارى
أضرب فى القوم لأخذ الثار
حتى تزول دولة الأشرار
ويرجع الحق إلى الأخيار

وبعد أن عجز الإمام على عن إقناعهم وارجاعهم عن رأيهم ، التقى بهم فى موقعة « النهروان » ، وقد انتصر عليهم فى هذه الموقعة انتصارا عسكريا حاسما وكان بين قتلى النهروان زعماء الخوارج أمثال « عبد الله بن وهب » و « زيد ابن حصن الطائى » و « مالك بن الوضاح » .

وفيهم يقول أبو بلال مرداس بن أدية (٢) :

أبعد ابن وهب ذى النزاهة والتقى ◦ ومن خاض فى تلك الحروب المهالكا
أحب بقـــاء أو أرجى سلامة ◦ وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا
فيارب ســـلم نيتى وبصيرتى ◦ وهب لى التقى حتى ألاقى أولئكا

وقد عرفت الخوارج بألقاب عديدة قبل أن يتفرق جمعهم ويقسموا

(١) شعر الخوارج ، جمع وتقديم الدكتور احسان عباس : ٣١ ، ٣٢ دار الثقافة بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٧٤ م .

(٢) شعر الخوارج : ٤٨ ، ٤٩ .

إلى جماعات تناصب بعضها العداء والتكفير (١) . ولعل أشهر هذه الألقاب هى «الخوارج» و «الحرورية» و «الشراة» و «المحكمة» و «المارقة» ، غير أن أشهر اسم عرف به هؤلاء الناس هو «الخوارج» وقد صار علما مميزا لهم عن غيرهم من الفرق الإسلامية ، ولعل شهرته جاءت من اتفاق الجميع على استعماله واشاعته ، ثم إن الخوارج أنفسهم قد تمسكوا بهذا الاسم واعتزوا به لأنه يمثل فى نظرهم الخروج فى سبيل الله .

وقبل موقعة صفين كان الخوارج من أنصار على وشيعته المقربين ، وكان لهم فى الكفاح مع على جهاد مبرور وبلاء مشكور ، ولكن بعد أن استقر الرأى على قبول التحكيم نفروا من على وخرجوا عليه وتغير رأيهم فيه ، فسموا منذ ذلك الوقت بالخوارج لخروجهم على الإمام الحق الذى اتفقت عليه الجماعة (٢) ، أو من الخروج اعتمادا على قول الله تعالى : «ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله» .

ويسمون المحكمة لقولهم «لا حكم إلا لله» أو الحرورية نسبة إلى «حروراء» (٣) . وهى قرية خرجوا إليها أول الأمر ، ويسمون الشراة من شرى بمعنى غضب ، أو لأنهم شروا أنفسهم — أى باعــوها

(١) انظر الملل والنحل للشهرستانى ، تحقيق محمد كيلانى : ١ / ١١٤ وما بعدها . دار المعرفة ، بيروت الطبعة الثانية ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م .
(٢) أدب الخوارج : د . سهير القلماوى : ٥ لجنة التأليف والترجمة والنشر .
(٣) حروراء : قرية قريبة من الكوفة خرج اليها الخوارج . أنظر الكامل للمبرد : ٣ / ١٨٢ .

لله تعالى (١) .

وتقوم نظريتهم فى الخلافة على أساس أن الخليفة يجب أن يكون باختيار حر من المسلمين ، وإذا تم اختيار الخليفة صار رئيس المسلمين ، ويجب أن يخضع خضوعا تاما لما أمر الله وإلا وجب عزله .

علاقة الخوارج ببنى أميــة :

ولا شك أن معاوية كان أبغض إلى الخوارج من على لما كانوا يعتقدونه فيه من العبث بأموال المسلمين ، وفوق ذلك فهو لم يصل إلى الخلافة عن اجماع من المسلمين ، وإنما وصل إليها على جسر من المكر والدهاء .

وقد حكم الخوارج بتفكير على ومعاويه ومن ناصرهما بعد التحكيم ، لأنهم حكموا بغير ما فى كتاب الله ، إذ عدلوا عن تحكيم الله الى تحكيم الناس وأوجبوا الخروج عليهم وقتالهم ، ولذلك أشادوا بعبد الرحمن بن ملجم قاتل الإمام على بن أبى طالب ، وقال فيه قائلهم (٢) :

يا ضربة من تقى ما أراد بهـا * إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
إنى لأذكره حينـا فأحسبه * أوفى البريه عنــد الله ميزانا

أما ما كان من الخوارج فى تحركاتهم ضد الدولة الأموية وما كان من الأمويين فى مقاومتهم فلا شك أن الخوارج لم يكونوا راضين عن المعاهدة

---

(١) تاريخ الشعر السياسى : احمــد الشايب : ٢٠٠ النهضة المصرية الطبعة السادسة ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م .

(٢) شعر الخوارج د. احسان عباس : ١٤٧ والبيتان للشاعر عمران بن حطان

التي أبرمت بين الحسن ومعاوية ، وحاول الخوارج كثيراً القضاء على دولة بني أمية ، لكن الاستقرار الذي نعمت به هذه الدولة بعد تنازل الحسن عن الخلافة يعد العامل الأول الذي حد من خطورة الخوارج وعمل على تقليص نفوذهم ، كذلك لا تغفل ما كان لولاة العراق من دور تجاه الخوارج وتحركاتهم فقد استطاعوا أن يحولوا دون تصاعد أمرهم طوال عهد بني أمية (١) .

ومن ينظر في تاريخ الخوارج يجد أنهم لم يتفقوا لخطة واحدة عن محاولاتهم اسقاط حكم بني أمية ، إلا أنهم كانوا يحاربون خصومهم في جبهات مختلفة . ولو أتيح لهؤلاء الناس أن يعملوا تحت إمرة واحدة ووفق خطة متكاملة لتجنبوا الكثير من الهزائم التي منوا بها ، ولاستطاعوا بالتالي تحقيق الكثير من التطلعات السياسية التي كانوا يطمحون إليها .

وقد ظل الخوارج على رأي واحد من لدن فارقوا عليا إلى أن كان من أمرهم ما كان مع ابن الزبير وتفرقهم عنه . فبعد أن كانوا كتلة واحـــدة يجتمعون على رأي واحد شجر الخلاف بينهم وأصبحوا فرقا يتبرأ بعضها من البعض الآخر ، وقد جاوز انقسامهم الحدود الاجتهادية المألوفة مما يدل على أن قضية الاجتهاد عندهم لم تكن قد توضحت معالمها أو حددت شروط ممارستها .

وقد نتج عن غلو نافع بن الأزرق انقسام الخوارج إلى أربع فرق كبيرة

(١) يلاحظ البداية والنهاية لابن كثير : ٨/١٤ . القاهرة ١٣٤٨ هـ

فتفرقت من ثم جهودهم فى عدة ميادين ، وسهل على الأمويين القضاء على كل فرقة على حـــدة .

وكانت « الأزارقة » - نسبة إلى نافع بن الأزرق الحنفى (١) - أكبرها وأسرعها إلى الفناء لما تميزت به من كثرة حروبها وتشددها وعنفها ، فلم تكن للخوارج قط فرقة أكثر عددا ولا أشد شوكة من الأزارقة (٢) .

وحين سقطت دولة النجدات سنة ٧٢ هـ كان الأزارقة يخوضون حربا شديدة ، وكان نافع قد تمكن من اخضاع بعض من بلاد فارس فعظم لذلك أمره ، واشتدت شوكته ، وفشا عماله فى السواد ، فقرر أن يعود بعد ذلك إلى البصرة ، ففزع أهلها إلى الأحنف بن قيس وشكوا إليه أمرهم وقالوا له ليس بيننا وبين القوم الا ليلتان وسيرتهم كما ترى فقال لهم الأحنف : إن سيرتهم فى مصركم إن ظفروا به مثل سيرتهم فى سوادكم فخذوا فى جهاد عدوكم (٣) .

وقد أرسل الأحنف بن قيس جيشا لملاقاتهم بقيادة مسلم بن عبيس بن كريز الفارس الشجاع ، وقد أقبل مسلم على الناس وقال : إنى ما خرجت

(١) الملل والنحل : ١ / ١١٨ . والكامل للمبرد : ٣ / ٢٧٦ .

(٢) الفرق بين الفرق ، عبد القاهر بن طاهر البغدادى الإسفرايينى التميمى تحقيق محمد محى الدين : ٨٢ ، ٨٣ مطبعة المدنى القاهرة . وانظر الكامل ج ٣ والملل والنحل ج ١ ومروج الذهب ج ٢ .

(٣) الأغانى للأصفهانى : ٦/٢٢٢٢ ، ٢٢٢٣ طبعة دار الشعب . وانظر الكامل للمبرد : ٣ / ٢٩٣ .

لامتياز ذهب ولا فضة ، وإنى لأحارب قوما إن ظفرت بهم فما وراءهم إلا سيوفهم ورماحهم ، فمن كان من شأنه الجهاد فلينهض ومن أحب الحياة فليرجع (١) .

واقتتل الفريقان «بدولاب الأهواز» (٢) اقتتالا عنيفا دام عشرين يوما ، وكثرت فيه الجراح والقتلى ، وقتل فيه نافع بن الأزرق (٣) كما قتل مسلم بن عبيس وأكثر أصحابه وذلك فى جمادى الآخرة سنة خمس وستين ، وخلف مسلما بن عبيس الربيع بن عمرو الغدانى ، بينما خلف نافعا عبيد الله ابن بشير بن الماحوز التميمى ، وظل الفريقان يقتتلان اقتتالا شديداً حتى اجتمع أهل البصرة على الحجاج بن باب الحميرى (٤) .

وقد التقى الحجاج بن باب بعمران بن الحارث الراسبى وظلا يتقاتلان حتى قتلا معا ، وقد أشادت أم عمران بابنها وذمت على أهل البصرة فرارهم . تقول فى أبيات (٥) :

---

(١) الأغانى : ٦ / ٢٢٢٣ ، وانظر الكامل للمبرد : ٣ / ٢٩٤ .

(٢) دولاب : قرية من عمل الأهواز بينها وبين الأهواز نحو من أربعة فراسخ (الأغانى : ٦ / ٢٢٢٢) ، والكامل للمبرد : ٣ / ٢٩٤ . والأهواز : سبع كور بين البصرة وفارس .

(٣) أنظر تاريخ اليعقوبى : ٢ / ٢٧٢ دار صادر بيروت .

(٤) أنظر الكامل فى التاريخ لابن الأثير : ٤ / ١٩٤ ، ١٩٥ .

(٥) شعر الخوارج : ٧٣ .

الله أيد عمرانا وطهـــره • وكان عمران يدعو الله فى السحر
يدعوه سرا وإعلانا ليرزقه • شهادة بيدى ملحـــادة غدر
ولى صحابته عن حر ملحمة • وشد عمران كالضرغامة الهصر
أعنى ابن عمرة إذ لاقى منيته • يوم ابن باب يحامى عورة الدبر

وظل حال الأزارقة يتردد بين الهـزيمة مرة والنصر مرة أخرى إلى أن ازداد فزع البصريين من انفتـاح الطريق أمام الخوارج إلى البصرة ، وقد نهض لمعالجة الأمر المهلب بن أبى صفرة بعد أن كتب له عبد الله بن الزبير من مكة يأمره بحرب الأزارقة ، وقد التقى معهم فى عدة معارك (١) ترجح النصر فيما بينهما ، لكن سرعان ما انتصر المهلب عليهم انتصـارا حاسما وقتل قائدهم عبيد الله بن الماحوز فبايعوا الزبير بن على ، لكن عتاب بن ورقاء التميمى الوالى الأموى نجح فى وقف تقدمهم وقتل زعيمهم الزبير بن عـــلى فبايعوا من وقتها قطرى بن الفجاءة القائد الجرىء الشجاع .

وقد قامت بين قطرى وبين المهلب مناوشات كثيرة ، وقد نجح المهلب فى كشف الأزارقة عن الفرات إلى أن تولى الحجاج بن يوسف سنة ٧٥ هـ فتقدم بنفسه لمحاربة الخوارج ، وحينئذ تعددت انتصارات المهلب عليهم واستطاع أن يحبط مخططاتهم .

وقد دب الخلاف بين الأزارقة وانقسموا على أنفسهم إلى فريقين

---

(١) أنظر تفصيل ذلك فى الكامل للمبرد : ٢ / ٢٥٣ مكتبة المعارف بيروت والكامل فى التاريخ لابن الأثير : ٤ / ١٩٥ - ٢٠١ .

يتقاتلان (١) ، وكان هذا الانقسام فرصة ذهبية للمهلب بن أبى صفرة ، فما أن كتب إليه الحجاج يأمره أن يقاتلهم على حال اختلافهم حتى كتب إليه المهلب يقول : « إنى لست أرى أن أقاتلهم مادام يقتل بعضهم بعضا فإن تموا على ذلك فهو الذى نريد وفيه هلاكهم ، وإن اجتمعوا لم يجتمعوا إلا وقد رقق بعضهم بعضا فأناهضهم حينئذ وهم أهون ما كانوا وأضعف شوكة إن شاء الله تعالى » (٢) .

وسرعان ماتقاتل المهلب والأزارقة اقتتالا شديداً ، وقد عظم الخطب على الخوارج حتى تمكن المهلب من هزيمتهم واستطاع أن يعود إلى البصرة ويدخلها دخول الفاتحين .

كذلك وجه الحجاج جيشا عظيما إلى قطرى فى طبرستان بقيادة سفيان ابن الأبرد الكلبى ، وقد انضم إليه لمؤازرته جيشان آخران ، وظلت هذه الجيوش الثلاثة تطلب قطريا وتتعقبه حتى اشتبكوا معه اشتباكا عنيفا أسفر عن قتله ، وقد أخذوا رأسه إلى الحجاج فسيرها الحجاج إلى عبد الملك فجعل عطاءه فى ألفين (٣) .

النجدات : تنسب هذه الفرقة إلى نجدة بن عامر الحنفى وقيل عاصم (٤) ،

(١) أنظر أسباب هذا الخلاف فى الكامل فى التاريخ لابن الأثير : ٤/٤٣٧ - ٤٩٣
(٢) الكامل فى التاريخ لابن الأثير : ٤/٤٣٩ .
(٣) الكامل فى التاريخ : ٤/ ٤٤٣ .
(٤) الملل والنحل للشهرستانى : ١/ ١٢٢ والكامل للمبرد : ٣/ ١٨٤ .

وكانوا فى أول أمرهم باليمامة والبحرين وحضرموت ، وكان نجدة من الأزارقة وقد خرج مع نافع بن الأزرق للدفاع عن مكة ضد الأمويين ، وظل نجدة على ولائه لنافع حتى انشق عليه وخرج مع من خرجوا متمردين عليه سنة ٦٦ هـ (١) .

ولم يكن عند هذه الفرقة تشدد وغلو مثلما كان عند الأزارقة ، كذلك لم يكن لها ما كان للأزارقة من شأن فى كثرة الحروب وطولها وعنفها . وقد اقتصر نشاط هذه الفرقة على السيطرة على أجزاء من الجزيرة العربية ، وكاد نجدة يبسط سلطانه على الجزيرة كلها مستغلا ضعف ابن الزبير لولا ما أصابه من تفرق أصحابه واختلافهم عليه وتكفيرهم إياه (٢) .

وقد تولى أبو فديك زعامة النجدات بعد قتل نجدة ، وما لبث أن شغب عليه عطية الحنفى ، وظل حالهم يتدهور من سيء إلى أسوأ حتى هزموا أمام جيش أهل العراق وسقطت دولة النجدات بعد سبع سنين من قيامها فى سنة ٧٢ هـ (٣) .

وهذه الفرقة ليس لها من أثر يذكر فى شعر الخوارج ، وبالتالى لم يكن بينهم شاعر يعبر عن آرائهم ومعتقداتهم .. وكل ماورد لهم من أخبار وآثار إنما جاءت به أشعار خصومهم .

---

(١) أنظر الكامل فى التاريخ : ٤ / ٢٠١ وما بعدها .
(٢) أنظر أسباب هذا الخلاف فى الكامل لابن الأثير : ٤ / ٢٠٥ .
(٣) أنظر الكامل لابن الأثير : ٤ / ٣٦٢ .

الصفرية :

وبينما كان الأزارقة يتحدون سلطة الأمويين بأرض فارس والأهواز ويهددون بالانقضاض على العراق من جهة البصرة ، كان جماعة آخرون من الخوارج يسمون « الصفرية » (١) قد قدموا من ناحية الموصل يهددون الكوفة بزعامة صالح بن مسرح . وبدأ صالح سنة ٧٦ هـ الاغارة على بعض الأماكن ، واستطاع هو ورجاله - على الرغم من قلة عددهم - أن يهزموا الجيش الذي أرسله لهم محمد بن مروان . لكن هذا الجيش تمكن من هزيمتهم في اللقاء الثاني ، فأخذوا يتقهقرون ناحية الكوفة ، وأرسل لهم الحجاج جيشا كوفيا بقيادة الحارث بن عميرة الهمزاني في جمادى الأولى سنة ٧٦ هـ فهزمهم وقتل قائدهم صالح بن مصرح ، وآلت قيادتهم إلى شبيب بن يزيد الشيباني الذي استطاع أن يدخل الكوفة ، وأتاح لزوجه غزالة أن تصلي ركعتين بمسجد الكوفة تحقيقا لما كانت قد نذرت به ، مما أعطى بعض الشعراء الفرصة للسخرية من الحجاج .

وقد حدث أن طلب الحجاج الشاعر عمران بن حطان ، فكتب إليه الشاعر متهكما متأخرا من عجزه أمام غزالة يقول (٢) :

(١) نسبة إلى زياد بن الأصفر (الملل والنحل : ١ / ١٣٧ دار المعرفة بيروت ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م ، والفرق بين الفرق للاسفرائيني : ٩٠) . وقال آخرون - وأكثر المتكلمين عليه - هم قوم نهكتهم العبادة فاصفرت وجوههم (الكامل للمبرد : ٣ / ٢٧٥) .

(٢) شعر الخوارج : ١٩٦ ، ١٩٧ .

أسد على وفى الحروب نعامة * ربداء تجفل من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة فى الوغى * بل كان قلبك فى جناحى طائر
صدعت غزالة قلبه بفوارس * تركت منابره كأمس الدابر
ألق السلاح وخذ وشاحى معصر * واعمد لمنزلة الجبان الكافر

وقد انضم إلى شبيب كل ساخط على الحجاج حتى كثر ضده جنده وبات يهدد ملك الأمويين وينازعهم سلطانهم وإمارة المؤمنين ، وقد ذكر ذلك الشاعر عتبان بن أصيلة فى أبيات خاطب بها عبد الملك بن مروان .
يقـــول (١) :

لعمرى لقد نادى شبيب وصحبه * على الباب لو أن الأمير يجيب
فأبلغ أمير المؤمنين رسالة * وذو النصح لو تصغى إليه قريب
أتذكر إذ دارت عليك رماحنا * بمسكن والكلبى ثم غريب
فلا صلح مادامت منابر أرضنا * يقوم عليها من ثقيف خطيب
فإنك إلا ترض بكر بن وائل * يكن لك يوم بالعراق عصيب
فلا ضير إن كانت قريش عدا لنا * يصيبون منا مرة ونصيب
فإن يك منهم كان مروان وابنه * وعمرو ومنهم هاشم وحبيب
فمنا سويد والبطين وقعنب * ومنا أمير المؤمنين شبيب
غزالة ذات النذر منا حميدة * لها فى سهام المسلمين نصيب
ومنا سنان الموت وابن عويمر * ومرة فانظر أنى ذلك تغيب
فولوا سنا من يلقهم يلق حتفه * ومن ينج منهم ينج وهو سليب

(١) شعر الخوارج : ١٨٢ ، ١٨٣ .

وإزاء هـذا كله استعان الحجاج بجيش شامى بقيادة سفيان بن الأبرد الـكلبى ، والتقى الجيشان وقتلت غزالة ، وتخلى وجال شبيب عنه ، وظل سفيان يلاحقه حتى مات شبيب غرقا .

ولم ينته أمر الصفرية على الرغم من تلك الهزيمة ، فقد استأنفوا عملهم فى عهد هشام بن عبد الملك بقيادة بهلول بن بشر ثم بقيادة الصحارى بن شبيب لـكن سرعان ما تغير الحال وسقطت الـكوفة من أيديهم .

وعلى الرغم من كثرة أحداث الصفرية وتعدد معاركهم إلا أن شعرهم يعجز عن مواكبة هذه الخطوب والصراعات ـ ولعل السبب فى ذلك يعود إلى أن أشهر شعرائهم وهو عمران بن حطان والطرماح بن حكيم كانا يميلان إلى العقود ، ولم يتمكن أحد منهما من أن يشترك فى حروب الصفرية أو أن يسجل أحداثها وصراعاتها .

الإباضيـــة :

والإباضية آخـــر حركات الخوارج فى العصر الأموى ، وهى أولى حركاتهم فى جنوب الجزيرة العربية سنة ١٠٧ هـ .

وهـــذه الفرقة نسبة إلى عبد الله بن إباض . وقد بويع إماما للاباضية سنة ١٢٩ هـ ، وفى صنعاء قدم إليه الخوارج من كل صوب حتى عظم شأنهم بين أهل اليمن ـ ولعل السبب المباشر لذلك هو القائد الشجاع أبو حمزة الشارى فقد قاد جيشا من أهل اليمن وتوجـــه به إلى مكة فى موسم الحج سنة ١٢٩ هـ

فتقهقر أمامه الأمير الأموى عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك ، وانتصر أبو حمزة انتصارا مروعا على جيش عبد العزيز بن عمر بن عثمان بن عفان فى معركة « قديد » .

وقد صور عمرو بن الحصين شاعر الإباضية ماحـــدث فى يوم قديد ، واستهل القصيدة بإظهار خشيته من الموت قبل إتمام الجهاد والنصر ، فقال (١):

ما بال همك ليس عنك بعازب • يمرى سوابق دمعك المتساكب
وتبيت تكتلىء النجوم بمقلة • عـبرى تسر بكل نجم دائب
حـذر المنية أن تجىء بداهة • لم أقض من تبع الشراة مآربى
فأقود فيهم للعدا شنج النسا • عبل الشوى أشران ضمر الحالب
متحلبا كالسيد أخلص لونه • ماء الحسيك مع الجلال اللاتب
أرمى به من جمع قومى معشرا • بورا أولى جبرية ومعـايب
فى فتيـــة صبر ألفهم به • لف القداح يد المفيض الضارب
فندور نحن وهم وفيما بيننا • كأس المنون تقول هل من شارب
لنظل نسقيهم ونشرب من قنا • سمر ومرهفة النصول قواضب

ثم يصف خشية الخوارج وتقواهم وجهادهم فيقول :

كم من أولى مقـة صحبتهم شروا • فخذلتهم ولبئس فعل الصاحب
متأوهين كأن فى أجوافهم • نارا تسعرها أكف حواطب

(١) شعر الخوارج : ٢٢٨ - ٢٣٠ .

تلقاهم فتراهم من راكع * أو ساجد متضرع أو ناحب
يتلو قوارع تمترى عبراته * فيجودها مرى المرى الحالب
سير لجائفة الأمور أطبة * للصدع ذى النبأ الجليل مراتب
ومبرئين من المعايب أحرزوا * خصل المكارم أتقياء أطايب
عروا صوارم للجلاد وباشروا * حد الظباة بآنف وجواجب
ناطوا أمورهم بأمر أخ لهم * فرمى بهم قحم الطريق اللاحب
متسربلى حدق الحديد كأنهم * أسد على لحق البطون سلاهب

ويذكر بلاء الشراة ودخولهم مكة على أثر الانتصار فيقول :

قيدت من أعلى حضرموت فلم تزل * تنفى عداها جانبا عن جانب
تحمى أعنتها وتحوى نهبها * لله أكرم فتية وأشايب
حتى وردن حياض مكة قطبا * يحكين واردة اليمام القارب
ما إن أتين على أخى جبرية * إلا تركنهم كأمس الذاهب
فى كل معترك لها من هامهم * فلق وأيد علقت بمناكب
سائل بيوم قديد عن وقعاتها * تخبرك عن وقعاتها بعجائب

وهذه القصيدة ليست رثاء تقليديا وإنما هى لون جديد ، فقد صور الشاعر فيها خشوع أصحابه وخشيتهم من النار ، كما صور تعبدهم وانحناء أصلابهم على آيات القرآن الكريم ، وصور كذلك انصرافهم عن الدنيا وشهواتها . وبهذا فهو لم يبك فيمن يرثيهم خلال المروءة التقليدية ، وإنما بكى فيهم المثل الأعلى للخارجى كما يراه الخوارج أنفسهم .

وقد دخل أبو حمزة المدينة ومكث فيها قرابة ثلاثة شهور ، وألقى من فوق منبر الرسول صلى الله عليه وسلم خطبته المشهورة التي تشيد بتقوى رجاله وشجاعتهم ، والتي رسم فيها صورة مؤثرة لقتلى الخوارج كوسيلة يحاول بها استثارة عواطف مستمعيه من الخوارج .

وسرعان ما دالت قوة أبي حمزة أمام جيش الشام بقيادة عبد الملك بن محمد ابن عطية ، الذي قدم المدينة في جمادى الأولى سنة ١٣٠ هـ ، وقد فر أبو حمزة على أثر الهزيمة إلى مكة ، لكن ابن عطية لم يلبث أن تعقبه في مكة ، ودارت معركة عنيفة قتل فيها أبو حمزة ، كما قتلت إمرأته الجعيداء ، وصلب أبو حمزة مع من صلب من الشراة .

وقد رثى شاعر الإباضية عمرو بن الحصين أبا حمزة وغيره من الشراة بقصيدة طويلة (١) تعد من مختار شعر العرب ، وقد استهلها بالبكاء فقال :

هبت قبيل تبلج الفجر • هند تقول ودمعها يجرى
إذ أبصرت عيني وأدمعها • ينهل وا كفها على النحر
أني اعتراك وكنت عهدى لا • سرب الدموع ، وكنت ذا صبر
أقذى بعينك ما يفارقها • أم عائر أم ما لها تذرى
أم ذكر إخوان فجعت بهم • سلكوا سبيلهم على قدر
فأجبتها بل ذكر مصرعهم • لا غيره عبراتها يمرى

(١) شعر الخوارج : ٢٢٣ - ٢٢٧ .

ثم تحسر على إخوانه الشهداء ، وأخذ يشيد بهم فقال :

يارب أسلكني سبيلهم «» ذا العرش ، واشدد بالتقى أزرى
في فتية صبروا نفوسهم «» للمشرفية والقنا السمر
تالله ألقى الدهر مثلهم «» حتى أكون رهينة القبر
أوفى بذمتهم إذا عقدوا «» وأعف عند العسر واليسر
متأهبون لكل صالحة «» ناهون من لاقوا عن النكر
صمت إذا احتضروا مجالسهم «» وزن لقول خطيبهم وقر
الا تجيئهم فإنهم «» رجف القلوب بحضرة الذكر
متأوهون كأن جمر غضا «» للموت بين ضلوعهم يسرى
تلقاهم إلا كأنهم «» لخشوعهم صدروا عن الحشر
فهم كأن بهم جوى مرض «» أو مسهم طرف من السحر
لا ليلهم ليل فيلبسهم «» فيه غواشي النوم بالسكر
إلا كذا خلسا وآونة «» حذر العقاب فهم على ذعر

ويعود إلى التفجع فيقول :

كم من أخ لك قد فجعت به «» قوام ليلته إلى الفجر
متأوها يتلو قوارع من «» آى الكتاب مفرح الصدر
نصب تجيش بنات مهجته «» م الخوف جيش مشاشة القدر
ظمآن وقدة كل هاجرة «» تراك لذته ع لى قدر
تراك ما تهوى النفوس إذا «» رغب النفوس دعا إلى الحزرى

(٣) الشيعـــــة

لم تظهر الشيعة بالمعنى الحزبي إلا في عهد عثمان بن عفان حينما قام عبد الله ابن سبأ اليمني اليهودي الأصل بالتعصب لآل البيت ووضع أساس مذهب التشيع ، والانتقال في البلاد الإسلامية يحرض على عثمان ومعاوية ويظهر مساوىء بني أمية .

ولما قتل عثمان بن عفان عرض الثوار الخلافة على الإمام علي بن أبي طالب فأبى ، ثم استعانوا عليه بالأنصار والمهاجرين فقبلها وأصبح خليفة المسلمين ببيعة اشترك فيها من كانوا بالمدينة من أهل الكوفة والبصرة ومصر ، ومن كانوا بها من المهاجرين والأنصار .

وقد رفض بيعة علي كثير من أنصار عثمان وفي مقدمتهم السيدة عائشة رضي الله عنها ، ثم انضم إليها طلحة والزبير ، وما لبثوا إلا قليلا حتى تجمعوا وقصدوا قتال علي وصحبته في البصرة ، والتقى الفريقان في موقعة الجمل ، وقتل كل من طلحة والزبير ، وبعد المعركة ارتحل علي إلى الكوفة فبايعه أهلها ، وبدأت الرسل تسفر بينه وبين معاوية ، ومع ذلك فلم يقدر لها النجاح ، ثم كانت موقعة صفين والتحكيم .

وقد انتقل الإمام علي إلى العراق ، واختار الكوفة مركزا له ومقراً لدعوته وعاصمة لخلافته ، وصارت العراق والكوفة بصفة خاصة موئل الشيعة ومنبع التشيع ، ومصدرا لثوراتهم على بني أمية :

وقد شق المحكمة (١) عصا الطاعة على الإمام على ، ولم يبق إذن حوله إلا أهل الكوفة الذين أصبحوا حزبا له فى حرب معاوية وحزبه ، ثم كان من تثاقلهم عن نصرة على حتى قتل وليس له شيعة فى العراق كشيعة معاوية فى الشـــام .

وبعد مقتل على أصبح التشيع مقصورا على أتباعه مع تفاوت فيما بينهم ، وقد ندم هؤلاء على تفريطهم فى مقتل على ، فأخذوا يغالون فى حبه وتعظيمه عزاء لما قدموا له من الإساءة فى حياته ، وعلى هذا النحو كان عداؤهم لبنى أمية ، فقد ظلوا طوال العصر يستجيبون لكل من يقودهم للتمرد عليهم والثورة على دولتهم .

ولما قتل الإمام راجت الدعوة لابنه الحسن وبايعه أهل الكوفة ، وأخذ يستعد لقتال معاوية ، لكن معاوية ـ وكان أشد ميلا إلى الحرب ـ قد سار إليه فوجد الحسن أنه لا طاقة له بنزال معاوية وبخاصة بعد خذلان قومه له فتصالح معه على أن يتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية على أن يكون الأمر شورى بعد معاوية ، وغادر الحسن الكوفة إلى المدينة وعاش بها حتى مات عام ٤٨ هـ ٦٦٨ م (٢) .

وأخذ الأمويون يطيحون بأهل الشيعة حتى ضعف أمرهم وظلوا طوال أيام

(١) أنظر فجر الإسلام ، أحمد أمين : ٢٦٦ وما بعدها مطبعة النهضة المصرية الطبعة الثانية عشرة ١٩٧٨ م .

(٢) أنظر البداية والنهاية : ٨ / ١٤ .

معاوية يقصرون تشيعهم على النظر والعقيدة لا على الحروب والثورات ، إلى أن قتل الحسين بن على وبعض أصحابه فأخذ الشيعة يتحمسون لنصرة مذهبهم وأعلنوا التمرد فى عهد عبد الملك بن مروان عام ٦٥ هـ فى حركة سميت حركة التوابين ، فلما كان عهد هشام بن عبد الملك خرج زيد بن على زين العابدين ابن الحسين ، لكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل وبقيت الشيعة مذهبا عقائديا إلى أن قامت دولة بنى العباس (١) .

وتقوم عقائدهم فى أصولها على فكرة الإمام والإمامة ، وهم يجمعون بفرقهم المختلفة على مشايعة على وإمامته ، ويرى جمهور الشيعة نفس الرأى فى أولاد على ، وقد وجدت هذه العقيدة رواجا شديدا وذيوعا واسعا بين كل من تشيع للامام على .

ولا يتسع المقام لإحصاء المذاهب والفرق الشيعية وتتبعها وبيان معتقدات كل منها وما بينها من خلاف ، فكل ما يعنينا هو إبراز الشيعة كحزب وبيان شأنها السياسى وما كان لها من نضال مع الفرق الأخرى .

(٤) الزبيريون

ينسب هذا الحزب إلى زعيمه عبد الله بن الزبير بن العوام الصحابى ابن الصحابى . وقد كان ابن الزبير رجلا طموحا يحب المجد والسلطان ، وكانت الخلافة أملا من آماله ولكنه لم يفكر فيها تفكيرا فعليا إلا بعد أن أعلن

(١) أنظر أعيان الشيعة ، العاملى : ١ / ١٦ - ١٩ . مطبعة ابن زيدون دمشق ١٣٥٤ هـ .

معاوية البيعة لابنه يزيد فأخذ يدعو لنفسه بمكة عام (٦١ هـ - ٦٨٠ م) وبايعه الناس فيها بالخلافة .

ومنذ ذلك الوقت ولد حزب جديد من أحزاب المعارضة التي قامت في وجه الأمويين وهو حزب الزبيريين ، وكان هذا الحزب شديد الخطورة على الدولة الأموية ، ولو أن زعيمه قد أحسن استغلال الفرص التي أتيحت له لاقتلع هذه الدولة من أساسها ولكنه كانت تواتيه الفرص فيضيعها ، الأمر الذي أدى إلى أفول نجمه بعد زمن غير طويل (١) .

وقد اعتمد الحزب الزبيري في الدعوة إلى عبد الله بن الزبير على أمور منها أن الخلافة حق لقريش وحدها كما أعلن ذلك أبو بكر يوم السقيفة وعبد الله أكفأ من يتولاها بعد أن مات معاوية ، بل إنه كان يرى نفسه أكفأ من معاوية . يضاف إلى ذلك أن عبدالله يمت بصلة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى ذلك فهو ابن أسماء بنت أبي بكر الصديق ، وكان في المدافعين عن عثمان بن عفان وقت الحصار ، وهو رجل اشتهر بالتقوى والصلاح على حين اشتهر منافسوه من بني أمية بالخلاعة والمجون مما أسخط جمهور المسلمين عليه (٢) .

---

(١) أنظر الكامل لابن الأثير : ٤ / ٣٤٨ وما بعدها . دار صادر بيروت ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م .

(٢) بتصرف من أدب السياسة في العصر الأموي د . الحوفي : ١١٥ ، ١١٦ دار نهضة مصر ، الطبعة الخامسة .

وقد جهر عبد الله لنفسه بالدعوة بعد مقتل الحسين ، فأخذ أهل المدينة يثورون على الأمويين ، وطردوا مروان بن الحكم وسائر بني أمية عام ٦٣ هـ فأرسل يزيد جيشا بقيادة مسلم بن عقبة إلى المدينة ، وحدث قتال شديد انتصر فيه مسلم ، وقتل عددا كبيرا من خصومه ، وأجبر الناس على البيعة ليزيد (١) على أنهم خول له أن يحكم فى دمائهم وأموالهم وأهليهم من شاء ، فمن امتنع من ذلك قتله .

ولم يلبث ابن الزبير أن انضمت أغلب الأمصار الاسلامية إليه ، فقد استجاب أهل البصرة له ، وأخذوا يطلبون منه أن يرسل إليهم أميرا من قبله يأخذ البيعة له ، وكذلك كان الحال فى الحجاز واليمن ومصر والشام . . وهذه كلها بوادر تدل على أن النصر يوشك أن يحالف ابن الزبير ، وزاد من تلك الخطورة أن بنى أمية فى الشام كانوا منقسمين على أنفسهم ، ولم يتفقوا على رأى حاسم فى أمر الخليفة الجديد بعد معاوية بن يزيد ، لكن ابن الزبير لم يعرف كيف يستغل هذه الفرصة الطيبة ، ولو عرف لاضطر الأمويون إلى الإذعان والتسليم ولغدا ابن الزبير بذلك خليفة المسلمين غير منازع .

ولم يطل الخلاف الذى نشب بين بنى أمية ، فسرعان ما أفاقوا لأنفسهم واجتمعت كلمتهم وولوا مروان بن الحكم الخلافة ، وأصبحت الشام مسرحا لحزبين كبيرين حزب الأمويين وحزب الزبيريين ، وقد اشتبك الحزبان

---

(١) الكامل لابن الأثير : ٤ / ١١٨ .

فى موقعة « مرج راهط » اشتبا كا عنيفا هزم فيه أنصار ابن الزبير عام ٦٤ ﻫ مما آلم النفوس وترك فيها جرحا لا يندمل .

وفى ذلك يقول شاعر من أنصار الزبيريين وهو زفر بن الحارث (١) :

أريني سلاحى لا أبالك إننى • أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا

فنى العيش منجاة وفى الأرض مهرب • إذا نحن رفعنا لهن المثـــانيا

فلا تحسبونى إن تغيبت غافلا • ولا تفرحوا إن جئتكم بلقائيـا

فقد ينبت المرعى على دمن الثرى • وتبقى حزازات النفوس كما هيا

لعمرى لقد أبقت وقيعة راهط • لحسان صدعا بيننـا متنائيـا

وظل ابن الزبير فى صراع مع الأمويين إلى أن لاحت نهـايته على أثر هزيمة جنده فى العراق ، فقد أسرع عبد الملك وأرسل قائده الحجاج بن يوسف الثقفى فى جيش إلى مكة للقضاء عليه ، فحاصرها وضرب الكعبة بالمنجنيقات فاحترقت (٧٣ ﻫ - ٦٩١ م) ، واضطر أنصار ابن الزبير إلى التخلى عنه ، وظل يقاوم إلى أن قتل عام ٧٣ ﻫ ، فاستراح كل من الأمويين والخوارج من هذا الحزب المناوىء .

---

(١) الكامل لابن الأثير : ٤ / ١٥٢ .

ثانياً : الحيـاة الاجتماعيـــة :

ويمكننا القول أن الحياة الاجتماعية فى هذا العصر قد نشطت ، لأن مظاهر الملك بالدولة قد قامت ، واقتنى الخلفاء والأمراء الدور والقصور ، وأقاموا الحجاب والحراس وأحيوا من المناقب العربية كل مايعينهم على مآربهم فى تدعيم السيادة الأموية والملك .

- ١ -

ونتج عن هذا كله أن سار بنو أمية بمقاليد الأمور بعيدا عن روح الاسلام ومثله ، فأحاطوا أنفسهم بحياة مترفة ناعمة لاهية وزادوا شيئا فشيئا من الأخذ بأبهة الملك وفخامته ورسومه .

ولعل من أصدق مايدل على أحوال أولئك المسئولين فى الدولة ، وأخذهم بحياة الترف ماحدث من حوار بين خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان :

جاء عبد الله بن يزيد بن معاوية إلى أخيه خالد بن يزيد ، فقـال : لقد هممت اليوم يا أخى أن أفتك بالوليد بن عبدالملك ، فقـــال له خالد : بئس والله ما هممت به فى ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين ، فما ذاك ؟ قال : إن خيلى مرت به فعبث بها وأصغرنى ، فقال خالد : أنا أكفيك ، فدخل على عبد الملك والوليد عنـــده ، فقال : يا أمير المؤمنين . إن الوليد بن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين ، مرت به خيل ابن عمه عبد الله بن يزيد فعبث بها وأصغره ، وكان عبد الملك مطرقا فرفع رأسه وقال :

« إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون » .

فقال خالد :

« وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (١) .

وقد عقب الدكتور محمد طاهر درويش على هذا الحوار فقال : « فهذه القصة تدلنا على أن هؤلاء الأمراء كانوا يقتنون الخيول للتفاخر ومباهاة على عامة أهل الترف ، وأن عبد الملك لم يجد غضاضة فى أن يعبر عن نفسه على لسان القرآن الكريم بأنه من الملوك الذين إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وأن خالدا نعته على الوجه نفسه بأنه من المترفين الفاسقين » (٢) .

من أجل ذلك كله نشأ مجتمع جديد ، كان من ظواهره أن هذا الملك الظليل فى أفياء الحضارة وأبهة السلطان يدعو الناس من كل الأرجاء إلى ساحته والالتفاف حوله ، الأمر الذى شرع أشياء كثيرة كتقريب القرابة وتحزيب الأحزاب ، واستغلال النفوذ ، وجلب المنافع ، وعدم التعفف فى سبيل تحقيق المآرب والأغراض عن

(١) الخطابة فى صدر الاسلام د. محمد طاهر درويش: ٢ / ٢٧٣. دار المعارف بمصر ١٩٦٧ .

(٢) المصدر السابق : ٢ / ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

استخدام وسائل السياسة والدهاء والكيد، التي لا يقيدها وازع من خلق أو دين.

وقد أوسع الأمويون في رحابهم لذوي القربى، فزادوا في أعطياتهم، ومنحوهم الجوائز والصلات، وكان بعض الوافدين تدفعهم دواعي القرابة والصهر إلى الطمع في العطاء والمنح، وكان الأمراء يقرونهم على هذا ويعطونهم:

قدم زيد بن منية (١) على معاوية من البصرة، فشكا إليه دينا لزمه فقال: يا كعب. أعطه ثلاثين ألفا، وليوم الجمل ثلاثين ألفا أخرى، ثم قال له: ألحق بصهرك. فقدم على عتبة بن أبي سفيان بمصر فقال:

« إني سرت إليك شهرين أخوض فيهما المتالف، ألبس أردية الليل مرة، وأخوض في لجج السراب أخرى، موقرا من حسن الظن بك، وهاربا من دهر قطم، ودين لزم، بعد غنى جدعنا به أنوف الحاسدين، فلم أجد الا إليك مهربا وعليك معولا ». فقال عتبة: « مرحبا بك وأهلا إن الدهر أعاركم غنى، وخلطكم بنا، ثم استرد ما أمكنه أخذه، وقد أبقى لكم منا ما لا ضيقة معه، وأنا واضع يدي ويدك بيد الله ». فأعطاه ستين ألفا أخرى (٢).

(١) أخو يعلى بن منية صاحب جمل عائشة، ومتولي هذه الحرب، ورأس أهل البصرة، وقد تزوج عتبة بن أبي سفيان بنته.

(٢) صبح الأعشى، القلقشندي: ١ / ٢٥٧. القاهرة ١٩١٣.

- ٢ -

وقد أحيا الأمويون العصبية واعتصموا بها لتعينهم على مآربهم فى تدعيم السياسة الأموية والملك الأموى (١) وليغلبوا بها كل من لم تجد معه وسائل الدهاء والمال والسلاح . وكان لهذا أثره فى محيط الحياة الاجتماعية ، إذ ظل المجتمع يعيش فى ظلال الجاهلية تراوده أحداثها ، وتخيم عليه سحبها .

دخل عقيل بن أبى طالب على معاوية وقد كف بصره ، فأجلسه على سريره ، ثم قال له :

« أنتم معشر بنى هاشم تصابون فى أبصاركم ، قال عقيل : وأنتم معشر بنى أمية تصابون فى بصائركم » .

وقال له يوما : « ما أبين الشبق فى رجالكم يا بنى هاشم ! قال عقيل : « لكنه فى نسائكم أبين يا بنى أمية » .

وقال معاوية يوما : « يا أهل الشام ، هل سمعتم قول الله تبارك وتعالى فى كتابه : « تبت يدا أبى لهب وتب » ؟ قالوا نعم . قال : فإن أبا لهب عمه . فقال عقيل : فهل سمعتم قول الله عز وجل : « وامرأته حمالة الحطب » ؟ قالوا : نعم . قال : فإنها عمته . ثم قال : يا معاوية . إذا دخلت النار فاعدل ذات اليسار ، فإنك ستجد عمى أبا لهب مفترشا عمتك حمالة الحطب ،

---

(١) أنظر أدب السياسة فى العصر الأموى د . أحمد الحوفى : ٤٣٣ - ٤٦٢ دار نهضة مصر ، الطبعة الخامسة .

فانظر أيهما خير ! .

وقال له معاوية يوما : والله إن فيكم لخصلة ما تعجبني يا بني هاشم . قال : وما هي ؟ قال : لين فيكم . قال : لين ماذا . قال : هو ذاك . قال : إيانا تعير يا معاوية ؟ أجل والله إن فينا للينا من غير ضعف وعزا من غير جبروت ، وأما أنتم يا بني أمية ، فإن لينكم غدر وعزكم كفر قال معاوية : ما كل هذا أردنا يا أبا يزيد .

وقال معاوية لعقيل : لم جفوتنا يا أبا يزيد ؟ فأنشأ يقول :

إني امرؤ مني التكرم شيمة ... إذا صاحبي يوما على الهون أضمرا

وايم الله يامعاوية لئن كانت الدنيا مهدتك مهادها ، وأظلتك بحذافير أهلها ، ومدت عليك أطناب سلطانها ، ماذاك بالذي يزيدك مني رغبة ، ولا تخشعا لرهبة . قال معاوية . لقد نعتها أبا يزيد نعتا هش لها قلبي ، وإني لأرجو أن يكون الله تبارك وتعالى ما ردانى برداء ملكها ، وحباني بفضيلة عيشها إلا لكرامة ادخرها لي ، وقد كان داود خليفة ، وسليمان ملكا ، وإنما هو المثال يحتذى عليه ، والأمور أشباه ، وايم الله يا أبا يزيد لقد أصبحت علينا كريما وإلينا حبيبا ، وما أصبحت أضمر لك إساءة » (١) .

وقد أخذت العصبية تعمر صدور بني أمية ، ووجدت لها متنفسا

(١) جمهرة خطب العرب : أحمد صفوت : ٢/٢٣ و ١٢٣ مطبعة الحلبي ١٩٣٣ م .

فى الأقاليم والمدن ، وصارت جنسية بين العـــرب والموالى ، وعائلية بين الأمويين والهاشميين ، وأخيرا صارت قبلية بين القبائل جميعها فعلا شأن بعض القبائل ، وهان شأن البعض الآخر (١) وهنـاك غير هذه عصبيات قبلية فرعية ربما كان لها أبعد الأثر فى الحياة الاجتماعية بصفة خاصة .

تلك هى سياسة الأمراء والولاة والقواد الذين كان يعنيهم الملك والخلافة، إذ كانوا يحيون العصبيات لعلها تسند سياستهم ، وما دروا أن هذه العصبية كانت شرا مستطيرا على ملك الأمويين ، فلقد عادت عليهم بالوبال ، وجعلتهم معرضين دائما للاحن والثورات ، كما جعلتهم ملعبة بين اليمن ونزار خاصة .

والأمويون ـ وإن استنصروا بالعصبية على خصومهم ـ لم يلبثوا إلا قليلا حتى استنصر بها بعضهم على بعض . . وطبيعى لا يسلم بنو أميـــة بمسلكهم هذا من إثارة واغضاب ، هذا إلى ماجرته العصبية من شـــرور ومخاطر ، وقد تحقق ذلك فسرعان ماصارت مرضا فى المجتمع ونجمت عنهـا فتن وثورات ، كان من نتيجتهـا أن تقدم الموالى واستعانوا ببعض العرب على بعض ، فآذنوا بذهاب ملك الأمويين وظهرت الدعوة لبنى العباس (٢)

- ٣ -

كذلك شهد العصر الأموي سلسلة من التحولات الاجتماعية غذتها عوامل

---

(١) أنظر تاريخ الشعر السياسى ، أحمد الشايب : ٣٠٩ وما بعدها .

(٢) أنظر المصدر السابق : ٣١٢ .

متعددة ، وكان من أهمها امتزاج حضارات الأمم المختلفة (١) وتأثر العرب بها وأخذهم عنها ، وبدأت بوادر هذا التأثر واضحة في الحجاز والشام لظروف اقتضتها مصلحة الخلافة حيث شاع اللهو والترف في المجتمع ، وكان على رأس ضروب اللهو والترف فن الغناء ، حتى إنه ليخيل لمن يتصفح كتاب الأغاني أنه لم يعد للناس في مكة والمدينة في أثناء هذا العصر من عمل سوى السماع للغناء حتى العباد والفقهاء كانوا يطلبونه (٢) .

وأول ما يلفت نظر الباحث من التغييرات الاجتماعية ما تسجله المصادر التاريخية وغير التاريخية عن خلفاء بني أمية وأحوالهم وما كانوا ينعمون فيه من لهو وترف . فهم لم يلبثوا - إذا استثنينا معاوية بن أبي سفيان - أن طلبوا هؤلاء المغنين ، وقد بالغ في ذلك يزيد بن عبد الملك ، وتابعه ابنه الوليد (٣) .

ومن يراجع شعر الحجاز والشام يجده في أكثره يؤلف لهؤلاء المغنين كما يجده في مجموعه يعبر عن ذوق جديد وحضارة جديدة . وهذا هو السبب في الاختلاف الشديد بين شعرهم وبين شعر الجاهليين ؛ ولا عجب فشعر الأمويين قيل تحت تأثير ترف لم يكن للعرب في الجاهلية عهد به ؛ فقد بنى العرب القصور واكتظت قصورهم بالجواري الأجنبيات من كل لون وأترف

(١) أنظر تاريخ الأدب العربي د. شوقي ضيف : ٢/ ١٩٣ وما بعدها .

(٢) التطور والتجديد في الشعر الأموي د. شوقي ضيف : ١٠١ . دار المعارف الطبعة السادسة . (٣) أنظر المصدر نفسه : ٣٤٣ .

ذوقهم ، وأترف شعورهم ، وعاش الموالى فى خدمتهم ، وقاموا لهم على فن الغناء الذى كانوا يحبونه ، فأحكموه احكاما جديدا » (١) .

وخير من يصور لنا هذا الذوق الجديد هو الشاعر الأحوص ، فالحياة عنده ليست إلا العشق والهوى ، وقد عشق من المغنيات الكثيرات ودار شعره غالبا حول الحب والغزل ، وقد أخـــذ الغناء يؤثر فى شعره بصوره المختلفة (٢) .

ونحن إذا ماتركنا الشام والحجاز ومدنهما الكبيرة إلى العراق ومدنه الكبيرة وجدنا العرب يشتغلون طوال هـــذا العصر بالحروب والفتوح ، وكانوا دائما على أهبة القتال والاشتراك فى البعوث التى يرسلها زياد والحجاج لتعقب الخوارج أو فتح مدن الترك فى خراسان وما وراء النهر .

وأكبر الظن أنه قد اتضح الآن وضوحا لا لبس فيه أن الشعر فى العصر الأموى مثل الحياة الاجتماعية من جميع أطرافها ، وتطور مع تطورها ، فالموالى وشعوبيتهم والعرب وعصبياتهم وقريش وترفها وغناؤها ، كل ذلك مصور فى الشعر الأموى أروع تصوير .

---

(١) التطور والتجديد فى الشعر الأموى د . شوقى ضيف : ١٠٢ .

(٢) أنظر الأغانى : ٢١ / ٩٦ وما بعدها . الهيئـــة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ م .

ثالثا : الحيـــاة الأدبية :

كما شهد عصر بنى أمية تطورات سياسية واجتماعية ، شهد كذلك نهضة أدبية ، لأن الأدب جانب من جوانب الحياة ، ومن الصعب أن تتصور تقدم العصر فى جميع الجوانب ، وركوده وتعثره فى جانب واحد هو الأدب .

- ١ -

وكان خلفاء بنى أمية أشد ميلا إلى العلم والأدب ، وكانوا يزاحمون العلماء والأدباء ، ويجعلون من مجالسهم حلقات لأرباب المعرفة ؛ يتصارعون فى الرأى ؛ أو يقارعون فى الحجة حتى اشتهر كثير منهم بالشعر وروايته (١) .

ولقد حرص الخلفاء على اجتذاب الشعراء واتخاذهم ألسنة تنافح عن حكمهم وتدعو إلى تقبله وتأييده ؛ وكان معاوية أسبق الخلفاء إلى انتهاج هذه السياسية ؛ بل إنه انتهج ذلك قبل أن تئول إليه الخلافة (٢) ولذلك كان مجلسه القبلة التى يتطلع إليها كبار الشعراء والسدرة التى يحلمون بالانتهاء إليها .

وكانت شخصيته ذات تأثير مباشر على الشعر والشعراء وموقفه من الشعر جدير بعناية الدارسين . لأنه يعطى فكرة واضحة لروح ذلك العصر وجوه العام . فقد قال : « يجب على الرجل تأديب ولده ، والشعر أعلى مراتب الأدب

(١) أنظر الأدب الأموى د . ابراهيم أبو الخشب : ١٧ وما بعدها . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢) أدب السياسة فى العصر الأموى د . أحمد الحوفى : ٢٥٧ .

وقال : اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر دأبكم (١) .

وكان عبدالملك بن مروان أوضح سبيلا فى تشجيعه حفظ الشعر وروايته ففى عهده أصبح الشعر أكثر من أى وقت آخر شديد الالتصاق بمجرى الحياة اليومية .

ومن الشواهد التى نسوقها للدلالة على مكانة الشعراء عند الخلفاء ماحدث للأخطل ، فقد اصطفاه يزيد بن معاوية طوال خلافته ، وقربه إليه عبدالملك ابن مروان ، وكان عبد الملك عظيم الإعجاب به كثير المكافأة له .

قال مرة لعبد الملك : يا أمير المؤمنين ، زعم ابن المراغة أنه يبلغ مدحتك فى ثلاثة أيام وقد أقمت فى مدحتك :

* خف القطين فراحوا منك أو بكروا *

سنة فما بلغت كل ما أردت . فقال عبد الملك : فأسمعناها يا أخطل ، فأنشده إياها ، فجعلت أرى عبد الملك يتطاول لها ثم قال : ويحك يا أخطل ! أتريد أن أكتب إلى الآفاق أنك أشعر العرب ؟ قال : أكتفى بقول أمير المؤمنين . وأمر له بجفنة كانت بين يديه فملئت دراهم وألقى عليه خلعا ، وخرج به مولى لعبد الملك على الناس يقول : هذا شاعر أمير المؤمنين ، هذا أشعر العرب (٢) .

---

(١) العمدة لابن رشيق : ١/٢٩ . دار الجيل بيروت .

(٢) الأغانى للأصبهانى : ٨/٣٠٢٣ ، ٣٠٢٤ طبعة دار الشعب ، الطبعة الثانية .

وقد قام حوار بين عبد الملك والعجاج بن رؤبة ، وهذا الحوار يدل على أن مجالس عبد الملك كانت حافلة بالأدباء ، وعلى أنه واسع المعرفة بآداب العرب ، وكان يطيب له الحديث فى ذلك .

فقد دخل العجاج على عبدالملك بن مروان ، فقال : ياعجاج . بلغنى أنك لاتقدر على الهجاء ، فقال : يا أمير المؤمنين . من قدر على تشييد الأبنية ، أمكنه إخراب الأخبية ، قال : فما يمنعك من ذلك ؟ قال : إن لنا عزا يمنعنا من أن نظلم ، وأن لنا حلما يمنعنا من أن نظلم ، فعلام الهجاء ؟ قال : لكلماتك أشعر من شعرك ، فأنى لك بعز يمنعك من أن تظلم ؟ قال : الأدب البارع ، والفهم الناصع ، قال : فما الحلم الذى يمنعك من أن تظلم ؟ قال : الأدب المستطرف ، والطبع التالد ، قال : ياعجاج . لقد أصبحت حكيما . قال : وما يمنعنى وأنا نجى أمير المؤمنين (١) .

والحجاج بن يوسف مع مافيه من جد وصرامة كان يسير فى ذلك الاتجاه فكان يستشهد بالشعر وبخاصة الجاهلى منه ، والأمر المؤكد أنه وغيره من الأمويين شجعوا بمختلف الأساليب والسبل إحياء تراث العرب وعلى رأس ذلك الشعر ، وقد دفعهم هذا الاهتمام إلى النظر للشعر نظرة تكاد تخالف نظرة من سبقهم (٢) .

---

(١) الأمالى للقالى : ٢ / ٤٩ دار الكتب ١٩٢٦م . وزهر الآداب للحصرى : ٢ / ٢٦٤ . الأميرية .

(٢) أنظر شعر البصرة فى العصر الأموى : د . عون قاسم ٧٧ وما بعدها . دار الثقافة بيروت ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م .

وقد انتهج ولاة بني أمية وقوادهم هذا النهج فشجعوا الشعراء على الإشادة بهم ، حتى رحل الشعراء إليهم ليمدحوهم ولينالوا عطاياهم ، وظلوا يتزاحمون على قصورهم ، حتى أصبح لهم في كل مصر شعراء .

وقد انتهج الخليفة سياسة التشجيع ، فوزع على الشعراء حظوظهم من الشهرة والرزق ، وكان يتصرف في شعرهم ويحدد لهم مجال القول فيه (١) ، وانتهج الشعراء نفس النهج ، وغلبوا على وجدانهم وضمائرهم وألسنتهم ، وانساقوا - تحت ضغط الرغبة أو الرهبة - لما هو مطلوب منهم ، وأخذوا يتحينون الفرص لكي يقولوا فيما وضع لهم دون أن يصادف النظم هوى في نفوسهم ، فشاع من ثم النفاق والتزييف الوجداني ، والمبالغات المسرفة .

- ٢ -

ولاشك أن عصر بني أمية قد أمدته روافد عديدة دعمته دعما ، وهو دعم نجد آثاره في إزدهار الثقافة الأدبية من لغة وشعر وأخبار ، فقد خطت تلك الثقافة خطوات واسعة دفعت بالأمويين إلى الاعتزاز بما خلف العرب من تراث أدبي ، والإهتمام بصبغ دولتهم صبغة عربية ، وقد جرهم ذلك إلى الاهتمام بالشعر الجاهلي كوسيلة لإحياء أمجاد الماضي بقصد رسم صورة مشرقة للحاضر .

وقد نتج عن هـــذا أن اهتم الخلفاء بالشعر وبروايته ونقده ، وعقدوا

(١) قيم جديدة للأدب العربي د . بنت الشاطئ : ١٠٠ طبعة ١٩٦١ م

مجالس للسمر به في قصورهم ومجالسهم ، على أنهم لم يكتفوا بتشجيع الشعراء وإغداق العطايا عليهم فحسب ، بل أخذ كثير منهم يغرون بعض الشعراء ببعض ، ويحرضون بعضهم على هجاء بعض ، ولعل غاية الشعراء من هذا أنهم أرادوا أن يشغلوا الشعراء ويقبائلهم بالصراع الأدبي ، ويصرفوهم عن المشاركة في الأمور السياسية وعن التفكير في الخلافة .

وذكر أبو الفرج الأصبهاني : أن جريرا وقف على باب عبد الملك بن مروان والأخطل داخل عنده ، وكانا قد تهاجيا ولم ير أحد منهما صاحبه ، فلما استأذنوا عليه لجرير أذن له فدخل فسلم ثم جلس وقد عرفه الأخطل ، فطمح طرف جرير إلى الأخطل وقد رآه ينظر إليه نظرا شديدا فقال له : من أنت ؟ فقال : أنا الذي منعت نومك وتهضمت قومك ، فقال له جرير : ذلك أشقى لك كائنا من كنت ! ثم أقبل على عبد الملك فقال من هذا يا أمير المؤمنين جعلني الله فداءك ! فضحك ثم قال : هذا الأخطل يا أبا حزرة فقال جرير : فلا حياك الله يا ابن النصرانية ، أما منعك نومي فلو نمت عنك لكان خيرا لك ، وأما تهضمك قومي فكيف تهضمهم وأنت ممن ضربت عليهم الذلة وباء بغضب من الله وأدى الجزية عن يد وهو صاغر . وكيف تهضم لا أم لك قوما فيهم النبوة والخلافة وأنت لهم عبد مأمور ومحكوم عليه لا حاكم . ثم أقبل على عبد الملك فقال : ائذن لي يا أمير المؤمنين في ابن النصرانية فقال : لا يجوز أن يكون ذلك بحضرتي (١) .

---

(١) الأغاني : ٨ / ٢٨٠٨ ، ٢٨٠٩ ط دار الشعب .

وأظن أننا لا نغلو إذا قلنا إن الشعراء قد تحولوا تحت تأثير هذا التطور إلى فن جديد أو إلى لون جديد من الشعر ذلك اللون هـــو فن النقائض ، وأصبح الشعراء يحترفونه احترافا ، حتى ليوشك قارىء الشعر الأموى أن يظن أنه كان أهم موضوع يجذب إليـــه الشعراء وخاصة فى العراق ، حيث تكتلت القبائل فى البصرة والكوفة ، وأخذت كل قبيلة تنظر فى نفسها وفيما كان بينها وبين القبائل الأخرى من أيام وحروب ، واستحال ذلك كله شعرا ، فكل شاعر لقبيلة ينشد شعرا يفتخر فيه بقبيلته وما كان لها من انتصارات ، ثم يحاول جاهدا أن يرمى القبائل المعادية لقبيلته (١) .

ومعظم النقائض القبلية فى العصر الأموى كانت تدور بين قيس من جهة واليمن وتغلب من جهة أخرى ، وهناك أسباب أدت إلى احتكاك هذه القبائل بعضها ببعض ، فقد احتضن الأمويون أهل اليمن واعتمدوا عليهم دائما . وكان لانتشار نفوذ قبائلهم فى بوادى الشام سببا فى أن اختصهم الأمويون بالعناية وبلغ من تعصب معاوية لهم أنه ظل حينا من الدهر لا يفرض فرضا لغير اليمن من القبائل الأخرى .

وطبيعى أن تغضب قيس لهـذا التعصب ولهذه المحاباة ، وأخذت تحقد على الأمويين ، وسرعان ما تحول هذا الحقد إلى نشاط حربى ، حين أعلنت تعصبها لابن الزبير واشتبكت مع بنى أمية واليمن فى موقعة « مرج راهط »

(١) أنظر تاريخ الشعر العربى د . محمد عبد العزيز الكفراوى : ١ / ١٧٩ والتطور والتجديد فى الشعر الأموى د . شوقى ضيف : ١٦٢ وما بعدها

وقد استمرت هذه الموقعة عشرين يوما، وأوقعت فيها كلب وقبائل قضاعة ومن انضم إليهم من تغلب هزيمة مروعة بقيس، وقتل فيها قائدهما الضحاك ابن قيس وهرب الشاعر زفر بن الحارث.

وإذا كانت هذه الموقعة قد انتهت بهذه النتائج فإن القيسيين لم يوقفوا نشاطهم التعصبي ضد قبائل اليمن وتغلب، وقد أعلن ذلك زفر بن الحارث زعيم قيس بعد الضحاك في قصيدته التي أنشدها في أعقاب تلك المعركة والتي يعتذر فيها عن فراره.

يقول (١):

لعمري لقد أبقت وقيعة راهط • لمروان صدعا بيننا متنائيا

أريني سلاحي لا أبالك إنني • أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا

أتاني عن مروان بالغيب إنه • مقيد دمي أو قاطع من لسانيا

ففي العيش منجاة وفي الأرض مهرب • إذا نحن رفعنا لهن المثانيا

فلا تحسبوني إن تغيبت غافلا • ولا تفرحوا إن جئتكم بلقائيا

فقد ينبت المرعى على دمن الثرى • وتبقى حزازات النفوس كما هيا

أتذهب كلب لم تنلها رماحنا • وتترك قتلى راهط هي ماهيا

لعمري لقد أبقت وقيعة راهط • لحسان صدعا بيننا متنائيا

أبعد ابن عمرو وابن معن تتابعا • ومقتل همام أمنى الأمانيا

---

(١) تاريخ الطبري: ٥ / ٥٤١ دار المعارف، الطبعة الرابعة. والأغاني: ٢١ / ٧٤٧٩ ط دار الشعب.

فلم ترمنى نبوة قبل هذه • فرارى وتركى صاحبى ورائيا
عشية أعدو بالقران فلا يرى • من الناس إلا من على ولاليا
أيذهب يوم واحد إن اسأته • بصالح أيامى وحسن بلائيا
فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا • وتثأر من نسوان كلب نسائيا
ألا ليت شعرى هل قصيين غارة • تنوخا وحى طيء من شفائيا

وليست هذه هى كل النقائض التى اندلعت على إثر العصبيات بين القبائل فى عصر بنى أمية ، فهناك نقائض فردية انبعثت من أحقاد شخصية ، وهى تمت بصلة قوية إلى النقائض القبلية حتى ليصعب الفصل بين هذه وتلك أحيانا ومثال ذلك ما كان بين كل من جرير والأخطل والفرزدق (١) .

على أننا إذا كنا لاحظنا على شعراء العصر تأثرهم بالعصبيات والخصومات القبلية ، وكانت هذه وتلك يدلى كل شاعر فيهما بدلوه ، ويحاول أن يأتى بكل مايستطيع من ثنـــاء على قبيلته ، وفى الوقت ذاته يحاول أن يغض من شأن خصومها .. فإننا نلاحظ أيضا أن هذه البيئة ـ وبخاصة بيئة العراق ـ قد أهلت الشعر العربى لأن يخوض فى موضوع الخصومات السياسية التى اشتعل أوارها بين الخوارج والشيعة وبين الأمويين (٢) .

---

(١) أنظر التطور والتجديد فى الشعر الأموى : د . شوقى ضيف : ١٦٢ وما بعدها .

(٢) يلاحظ ماسبق من بيان الحالة السياسية .

الفصل الثـــانى

التعريف بالفروسية

١ - الفروسية فى اللغـــة :

كلمة « الفروسية » ككل كلمة لهـا تاريخ قد يتغير ويتبدل ، ولها منحى يتقلب فى أوضاعه المختلفة من عصر لآخر ومن بيئة لأخرى ، فكل عصر - وكذلك كل بيئة - يخلع على الكلمة مايراه المثل الأعلى للفروسية .

وسأحاول أن استظهر تقلبات تلك الكلمة وتطور منحاهـا مع تعضيد ذلك باستعراض بعض النصوص فى عصور وبيئات مختلفة .

وقد وردت لهذه الكلمة تعريفات فى معاجم اللغة العربية :

أولا : لسان العرب :

الفرس : واحـد الخيل والجمع أفراس ، الذكر والأنثى فى ذلك سواء وراكبه فارس مثل لابن وتامر . قال ابن السكيت : إذا كان الرجل على حافر برذونا كان أو فرسا أو بغلا أو حمارا قلت : مر بنا فارس على بغل ومر بنا فارس على حمار .

قال الشاعر :

وإن امرؤ للخيل عندى مزية * على فارس البرذون أو فارس البغل

وقال عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير : لا أقول لصاحب البغل فارس ولـكنى أقول بغال ، ولا أقول لصاحب الحمار فارس ، ولـكنى أقول حمار .

والفرس نجم معروف لمحاكاته الفرس في صورته ، والفارس : صاحب الفرس على إرادة النسب ، والجمع فرسان وفوارس ، وهو أحد ماشذ من هذا النوع فجاء في المذكر على فواعل .

والفراسة بالفتح مصدر قولك رجل فارس على الخيل، يقول الأصمعي : يقال فارس بين الفروسة والفراسة والفروسية ، وإذا كان فارسا بعينه ونظره فهو بين الفراسة بكسر الفاء ويقال : إن فلانا لفارس بذلك الأمر إذا كان عالما به . ويقال - أي في الحديث الشريف - اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنـــور الله .

وقد فرس فلان بالضم يفرس فروسة وفراسة إذا حذق أمر الخيل . قال : وهو يتفرس إذا كان يرى الناس أنه فارس على الخيل . ويقال : هو يتفرس إذا كان يتثبت وينظر ، وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أفرس بالرجال يريد أبصر وأعرف . يقـــال رجل فارس بين الفروسة والفراسة في الخيل وهو الثبات عليها والحذق بأمرها ، ورجل فارس بالأمر أي عالم به بصير .

والفراسة بكسر الفاء في النظر التثبت والتأمل للشيء والبصر به ، يقال إنه لفارس بهذا الأمر إذا كان عالما به ، وفي الحديث الشريف : علمـــوا أولادكم العوم والفراسة ، الفراسة بالفتح : العلم بركوب الخيل وركضها من الفروسية .

والفارس الحاذق بما يمارس من الأشياء كلها ، وبها سمى الرجل فارسا ، يقول ابن الأعرابى : فارس فى الناس بين الفراسة والفراسة ، وعلى الدابة بين الفروسية ، والفروسة لغة فيه ، والفراسة بالكسر : الاسم من قولك تفرست فيه خيرا ، وتفرس فيه الشىء : توسمه ، والاسم الفراسة بالكسر وفى الحديث الشريف : « اتقوا فراسة المؤمن » .

ثانياً - المصباح المنير :

(الفرس) يقع على الذكر والأنثى فيقال هو (الفرس) وهى (الفرس) وجمعت (الفرس) على غير لفظها فقيل خيل وعلى لفظها فقيل (ثلاثة أفراس) بالهاء للذكور (وثلاث أفراس) بحذفها للاناث . والفارس الراكب على الحافر فرسا كان أو بغلا أو حمارا قاله ابن السكيت يقال مر بنا (فارس) على بغل و (فارس) على حمار وفى التهذيب فارس على الدابة بين الفروسية . قال الشاعر :

وإنى امرؤ للخيل عندى مزية * على فارس البرذون أو فارس البغل

وقال أبو زيد لا أقول لصاحب البغل والحمار (فارس) ولكن أقول بغال وحمار وجمع الفارس (فرسان) و (فوارس) وهو شاذ .

ثالثاً - القاموس المحيط :

الفرس للذكر والأنثى أو هى فرسة والجمع أفراس وفروس وراكبه فارس أى صاحب فرس وفوارس جمع شاذ . وهما كفرسى رهان يضرب

لاثنين يستبقان إلى غاية فيستويان . ويقال : من فارس على بغل وكذا على كل ذى حافر أو لا يقال .

والفراسة بالكسر اسم من التفرس وبالفتح الحذق بركوب الخيل وأمرها كالفروسة والفروسية .

رابعاً - المنجد :

فرس فراسة بالعين : ثبت النظر وأدرك الباطن . يقال هو فارس بالأمر أى عالم به ، والأفرس الأصدق فراسة والفراس : الألمعى .

وفرس فراسة وفروسة وفروسية كان حاذقا فى أمر الخيل . تفرس الرجل : أرى الناس أنه فارس . يقال فلان ليس بفارس ولكنه يتفرس .

خامساً - المعجم الوسيط :

فرس فراسة وفروسة وفروسية حذق أمر الخيل وأحكم ركوبها فهو فارس بالخيل وفلان صار ذا رأى وعلم بالأمور ، فهو فارس بالأمر : عالم بصير . وفارسه مفارسة وفراساً : غالبه فى الفروسية . وتفرس فلان : تظاهر بالفروسية . يقال فلان ليس بفارس ولكنه يتفرس .

والفارس الماهر فى ركوب الخيل جمعه فوارس وفرسان وللفرسان فى الجنسين المحاربون على ظهور الخيل .

والفراسة المهارة فى تعرف بواطن الأمور من ظواهرها ، وفى الحديث

لتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله . والفرس واحد الخيل (الذكر والأنثى فى ذلك سواء) جمعه أفراس وفروس . ويقال فى المثل : هما كفرسى رهان يضرب لاثنين يستبقان إلى غاية فيستويان .

٢ - من الفارس ؟

ومن هذا العرض يتضح لنا أن الفارس هو راكب الفرس الحاذق بأمرها ، وأن للمقاتل يدعى فارسا نسبة إلى الفرس ، وأن الفرسان فى الجيش هم المحاربون على ظهور الخيل . . الأمر الذى يؤكد أن هناك علاقة وثيقة بين الفارس والفرس بحيث لا يتصور الفارس بلا فرس ، بل إن الفرس أساسى للفـــارس .

وبعد هذا نأتى إلى سؤال فى غاية الأهمية وهو : من الفارس ؟ والاجابة على هذا السؤال مهمة جدا حتى يكون كلامنا مبنيا على أساس محدد واضح .

وعندى أن امتلاك شخص ما لفرس كسلاح من الأسلحة ووسيلة من الوسائل ليس كافيا لأن يجعله فارسا ولا أن يجعله ناجحا فى ميدان الفروسية فالفرس كوسيلة من الوسائل ميسورة لكل الناس ، وليس صعبا على أى شخص أن يمتلك فرسا يصول به ويجول . ولكن هل يكفى هذا الامتلاك لأن يجعل الشخص فارسا بالمعنى المفهوم ؟ .

والحقيقة أن امتلاك الفرس وحده لا يكفى لأن يكون سبيلا إلى الفروسية

لأن هذا الحكم يترتب عليه أن يكون جميع أفراد العرب فرسانا ، لأن امتلاك الفرس غالبا كان من لوازم كل عربى ، ومع اعتياد العرب على هذا فلم يكونوا جميعا فرسانا ، وإنما كان الفرسان قلة بارزة فى حياتهم ، وكان كثير من العرب يتمنى لو نجح فى هذا الميدان كما نجح الفرسان أنفسهم ، أو على الأقل كان كل منهم يأمل أن يكون من بين هؤلاء الفرسان الذين تتردد أسماؤهم مقرونة بالقوة والشجاعة أحيانا ، وبشىء من الاعجاب فى كثير من الأحيان . . ولكن هؤلاء لم يكتب لهم النجاح فى ميدان الفروسية وإنما نجح فيها قلة بارزة لما كان لديهم من مقومات ذاتية توفرت فيهم ولم تتوفر فيمن عداهم . . ومن أجل هذه المقومات لم يكتب النجاح فى الفروسية إلا لأفراد قليلة .

وقد فطن أبو الطيب المتنبى لهذا فلم يسلم بأن الفارس هو الذى يمتطى ظهر الفرس فحسب ، ولكنه قنن للفروسية قانونا وأضاف إليها شروطا لا تتوفر إلا عند القلة القليلة من الناس ، فليست الفروسية عنده ملاحة وجه ، لأنها إن كانت كذلك فستكون نهبا لكل الناس ، وإنما هى بأس وكفاح ، والفارس عنده هو الذى يثبت على ظهر فرسه ويوقرها إذا أرادت الفرار ، ودمه ينسكب من أعطافها .

يقـــول :

وفارس الخيل من خفت فوقرها • فى (الدرب) والدم فى أعطافه دفع (١)

(١) شرح ديوان المتنبى وضع البرقوقى : ٢/٣٣٣ دار الكاتب العربى بيروت فارس الخيل المقصود به سيف الدولة . خفت : أسرعت وقرها : ثبتها والدرب : الطريق إلى الروم . والأعطاف : الجوانب .

وإذا كانت مصاحبة الفارس للفرس فى حومة الوغى علامة أصيلة من علامات الفروسية ، فإن التنحى عنه فى ميدان القتال أحيانا يكون من دواعى الفخر عند العرب ، لأن هذا موقف لا يتقنه إلا القلة القليلة من الفرسان ، وأية شجاعة تفوق هذا الذى لا يعتصم بظهر فرسه ، وظهر حاله فى القتال بدون الفرس كحاله عليها ، إن هذا لا ينزل عن فرسه إلا إذا كان شجاعا يعتد بشجاعته ، ومن ثم فلا ينزل إلا أولو البأس والقوة ومن وجد فى نفسه المقدرة على ذلك".

يقول ربيعة بن مقروم (١) :

فدعوا نزال فكنت أول نازل * وعلام أركبه إذا لم أنزل

• • •

وعلى الرغم من تحديد علماء اللغة لكلمة الفروسية ، إلا أننا لانستطيع أن نأتى بتعريف جامع مانع لها ، لأن كل إنسان يرى فى نفسه المثل الأعلى فى تصرفه ، ولهذا تطورت الكلمة على مر الأيام وأصبح لها معنى عرفى يعتد به وهو لا يقل شأنا عن ذلك المعنى اللغوى الذى ذكره علماء اللغة .

ونحن نرى كلمة «الفروسية» تستخدم فى الدلالة على القوة ، لأن الفروسية مصدر القوة عادة وعنوانها غالبا . والفارس : هو الرجل القوى الكامل القوة وقد جعلته قوته يزن عشرات الرجال فى الطاقة البشرية ، فهو من أصح الناس

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى : ١ / ٦٤٣ . لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ ١٩٦٧ م .

بنية وأشدهم جلدا وأبينهم عافية وما إلى ذلك من العوامل التي تصح بها الأجسام وتقــوى .

وقد تطورت الكلمة تطورا آخر فانتقلت من فروسية القوة إلى فروسية فيها كثير من صفات الإنسانية ومثلها العليا . وهذه الصفات ليس لها أسلوب واحد معين ، فهي تختلف باختلاف نظر الأشخاص إليهـــا ، فبعضهم يرى فروسيته في الشجاعة والجرأة ، وبعضهم يراها في الصرامة والجلد ، وبعضهم يراها في احتمال مالا يطاق من الشدائد والمشقات ، وبعضهم يراها في الجود والكرم ، وبعضهم يراها في حسن المعاملة ، وبعضهم يراهـا في الحدب على الضعفاء ، وبعضهم يراها في صون الحرمات ، وكل إنسان في الحياة يرى في تصرفه المثل الأعلى .

وقد قرر ذلك الدكتور أحمد أمين فقـال : « إن الفروسية سواء كانت عربية أو غربية تتضمن الشجاعة والاتيان بأعمال البطولة والكرم والسماحة والعفو عند المقدرة واحترام المرأة ووفاء العهد وحماية الضعفاء » (١) .

من أجل هـــذا تعددت وسائل مزاولتها واختلفت باختلاف استعداد الفارس وامكانياته ومؤهلاته الذاتية . فكل فارس يزاول ما يناسب امكانيات القوة والاستعداد، كذلك تختلف باختلاف الظروف التي تتيح للفارس مزاولة فروسيته (٢) .

---

(١) الصعلكة والفتوة في الاسلام : ٧٥ دار المعارف سلسلة اقرأ أبريل ١٩٥٢

(٢) أنظر الفتوة عند العرب ، عمر الدسوقي : ٢١ وما بعدها .

وليس فى إمكاننا فى هذا المقام حصر ماقيل فى ذلك . ومن يتصفح كتاب الأغانى و كتاب العقد الفريد وأمثالها يجد كثيرا من هذا مثل قصص زيد الخيل ، وعمرو بن معد يكرب والمهلهل وعنترة العبسى وعروة بن الورد . . فما قيل حول هؤلاء الشعراء يستدل به على أن الفروسية تختلف باختلاف نظر الأشخاص إليها .

٣ - الفروسية وألفاظ أخرى :

هذا ويجب أن نشير إلى أن مدلول الفروسية قد تؤديه أو تؤدى بعضه ألفاظ أخرى سنذكرها ونحدد مابين هذه الألفاظ من اشتراك فى المدلول اللغوى أو العرفى .

وأقرب هذه الألفاظ وأشهرها هو لفظ « الفتوة » بحكم وضعه اللغوى وبحكم استعماله ، لأن مايشغل الفارس هو نفسه الذى يشغل الفتى أو بعضه .. مما يؤكد قوة الاتصال بين الفتوة والفروسية .

وقد لقيت هذه الكلمة اهتماما فى توضيح مدلولها أكثر من غيرها (١) .

ففى كتب اللغة : الفتوة فى اللغة من الفتاء وهو الشباب ثم جعلت وصفا فقالوا هو فتى أى شاب ، والفتوة هى القوة ، لأن الشباب مصدرها عادة ، وعلى هذا فالفتى لابد أن يكون قويا شجاعا فيه عزم ومضاء . ويقول الشيخ

(١) أنظر الفتوة عند العرب ، عمر الدسوقى : ١١ وما بعدها .

المسن تفتيت إذا تخلق بأخلاق الفتيان من القوة الجسدية .

وقد انتقلت الكلمة على سبيل التطور من المدلول الحسى إلى مدلولات أخرى معنوية ، فاستعملت فى القوة المعنوية قياسا على القوة الجسدية ، لأن المعنويات وليدة الحسيات .

يقول الأستاذ عمر الدسوقى (١) : « والحق أن العرب تعنى بالفتوة الشجاعة ، والإيثار ، والسخاء ، والوفاء وكثيرا من الصفات الحميدة ، والفتى عندهم هو السيد الذى نال السؤدد والشرف بخلاله الكريمة وأفعاله العظيمة ، ويقال : هذا فتى الحى أى سيده ، والكامل الجزل من رجاله » .

واستعملت بمعنى السخاء والكرم . يقول صاحب القاموس (٢) : الفتى : الشاب والسخى الكريم والفتوة الكرم

وتتفق كتب اللغة مع الروايات الأدبية والأخبار على هذا الوصف . فقد ذكر أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه الأغانى وهو فى معرض ترجمته لحنين الحيرى مايفيد أن الفتوة كانت تستعمل للدلالة على المروءة من كرم وسخاء . يقول (٣) : « قال حماد فى خبره قال أبى حدثنى بعض أهل العلم بالغناء عن حنين قال : خرجت إلى حمص ألتمس الكسب بها وأرتاد من أستفيد منه شيئا ، فسألت عن الفتيان بها وأين يجتمعون

---

(١) المصدر السابق : ١٣ .

(٢) فصل الفاء باب الياء .

(٣) الأغانى : ٢ / ٧٦٤ ، ٧٦٥ . طبعة دار الشعب .

فقيل لى : عليك بالحمامات فإنهم يجتمعون بها إذا أصبحوا فجئت إلى أحدها فدخلته فإذا فيه جماعة منهم ، فأنست وانبسطت ، وأخبرتهم أنى غريب ، ثم خرجوا وخرجت معهم ، فذهبوا بى إلى منزل أحدهم ، فلما قعدنا أتينا بالطعام فأكلنا ، وأتينا بالشراب فشربنا » .

كذلك يذكرنا قول طرفة بن العبد فى معلقته (١) :

إذا القوم قالوا من فتى خلت أننى * عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

بأن الفتى هو الذى يدعى فى الملمات والشدائد كما يدعى الفارس ، وأنه يجوب البلاد - شأنه شأن الفارس - باحثا عن المغامرات ، نادبا نفسه لأداء الخدمات الإنسانية ، لأن الفتوة تقتضى أن يكون الفتى ذا عزيمة ومضاء ، وإلا قضى عليه تردده وتبلده ، فهو يناجز فتيانا فلا بد أن يكون قوى الجنان نافذ الرأى .

وقول ابن أهبان الفقعسى فى رثاء أخيه (٢) :

على مثل همام تشق جيوبها * وتعلن بالنوح النساء الفواقد
فتى الحى إن تلقاه فى الحى أو يرى * سوى الحى أو ضم الرجال المشاهد
إذا نازع القوم الأحاديث لم يكن * عييا ولا عبئا على من يقاعد
طويل نجاد السيف يصبح بطنه * خميصا ، وجاديه على الزاد حامد

---

(١) شرح المعلقات السبع للزوزنى : ٦٠ طبعة الحلبى ، الطبعة الثالثة ١٣٧٩ هـ ١٩٥٩ م .

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى : ٣/١٠٦٥ ، ١٠٦٦ . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨ م .

يذكرنا بأن الفتى عند العرب هو من كملت فيه صفات السيادة ، حتى أصبح زعيم قومه وملجأهم فى كل ملمة ، وهو أيضا كريم لدرجة تجعله يؤثر الضيفان على نفسه .

يقول الأستاذ عمر الدسوقى (١) : « وإذا كان الكرم سمة واضحة من سمات الفتوة فقلما يكون الكريم غير شجاع ، إذ الشجاعة والكرم متلازمان ، فالشجاع يقدم على الخطر مضحيا بقوته بل بنفسه ، والكريم يضحى بماله ، والنفس والمال أغلى مايحرص عليه الانسان » .

ولا يستطيع أحد أن يحصى ذلك الفيض من الشعر الذى قرن فيه الشعراء بين الكرم والشجاعة . وحسبى ماقاله شاعر فيهما معا (٢) :

يلقى السيوف بوجهه وبنحره ٭ ويقيم هامته مقام المغفر
ويقول للطرف اصطبر لشبا القنا ٭ فعقرت ركن المجد إن لم تعقر
وإذا تأمل شخص ضيف مقبل ٭ متسربل أثواب عيش أغبر
أوما إلى الكوماء هذا طارق ٭ نحرتنى الأعداء إن لم تنحرى

ومن هذه الألفاظ لفظ « الحماسة » . والحماسة فى اللغة الشجاعة . يقال : حمس كفرح : اشتد وصلب فى الدين والقتال فهو حمس وأحمس وهم حمس ، والحمس الأمكنة الصلبة جمع أحمس وهو لقب قريش وكنانة ومن تابعهم فى

---

(١) الفتوة عند العرب : ٨٨ .

(٢) الأمالى لأبى على القالى : ١ / ٦٨ ، ٦٩ . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ . المغفر : الخوذة والطرف : الجواد . والكوماء : الناقة السمينة

الجاهلية لتحمسهم فى دينهم أو لالتجائهم بالحمساء وهى الكعبة لأن حجرها أبيض إلى السواد ، والحماسة الشجاعة والأحمس الشجاع كالحميس والمتشدد والعام الشديد وسنة حمساء وسنون أحامس وحمس .. وحمس اللحم قلاه وفلانا أغضبه كأحمسه وحمسه . واحتمس الديكان اقتتلا والأحموس الغضب وبنو أحمس بطن من ضبيعة (١) .

والمادة تدل كما رأينا على الشدة والصلابة ، ولذلك ارتبطت فى أول الأمر بالقوة الجسدية ، واقترنت دائما بالبطولات الحربية . وظهر نتيجة لهذا الشعر الحماسى ، وهو الذى يدور حول الحروب من الإعداد لها والتحدث عن نتائجها وما تمخضت عنه ، والاشادة بأبطال هذه الحروب الذين كان لهم جهد مشكور فى البذل والعطاء .

وقد تحولت مادة هذه الكلمة من القوة الجسدية إلى صورة أخرى مثالية ظهرت فيها قوة النفس مع قوة الجسد وهذا هو ما يعرف بالبطولة أو الفروسية ، واقترن فى هذه الحالة تمجيد البطولة الجسدية بمجموعة من الفضائل والخصال الحميدة يطلبونها فى البطل مثل الحزم والحلم والوفاء والكرم وحماية الجار والصبر عند الشدائد وإغاثة الملهوف . وبذلك صار فن الحماسة ميدانا يتناول فيه الشاعر البطولة وما حولها من صفات ومثل عليا تتصل بها وتؤازرها (٢)

---

(١) أنظر القاموس المحيط باب السين فصل الحاء .

(٢) أنظر الحماسة تأليف الأساتذة السباعى بيومى ومحمد خلف وعمر الدسوقى وشوقى ضيف وأحمد بدوى : ٢ وما بعدها .

ومع أن الصعلكة قد استعملت فى أساليب العدوان بصوره المختلفـة وأصبح هذا شائعا فى الجاهلية وصدر الاسلام ، حتى إن كتب اللغة والأدب تسوق أخبار الصعاليك على أنهم قطاع طرق أو لصوص .. مع هذا فقد كان من مدلولها ما يدور حول الكرم مع النجدة .

وفى هذا المعنى يقول حاتم الطائى (١) :

وﷲ صعلوك يساور همه * ويمضى على الأحداث ليثا مقدما
إذا ما رأى يوما مكارم أعرضت * تيمم كبراهن ثمت صمما

كما كان من مدلولها ما يدور حول الشجاعة والبطولة ، ومن هذا ما قاله أبو الطيب المتنبى فى وصفـه للحمدانيين وبطولاتهم وهم يخوضون الحروب ضد الروم .

يقـول (٢) :

المخفرين بكل أبيض صارم * ذمم الدروع على ذوى التيجان
متصعلكين على كثافة ملكهم * متواضعين على عظيم الشأن
يتقيلون ظـلال كل مطهم * أجل الظليم وربقة السرحان
خضعت لمنصلك المناصل عنوة * وأذل دينك سائر الأديان

فالمتنبى لا يقصد هنا وصف الحمدانيين بمعانى الصعلكة المشهورة فى الجاهلية

---

(١) ديوان حاتم الطائى : ٨٢ ، ٨٣ . دار صادر بيروت ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م .
(٢) شرح ديوان المتنبى : ٤ / ٣١٢ ، ٣١٣ .

من سلب ونهب وإغارة ، وإنما يقصد الشجـــاعة والبسالة وما إلى ذلك من الصفات الحميدة التى اكتسبها الحمدانيون فى حروبهم المتكررة مع الدولة البيزنطية والتى أذاقوا الروم بفضلها الويلات والهزائم المتواصلة .

وقد تمثلت الفروسية والصعلكة عند الشاعر عروة بن الورد (١) ، فهو شاعر من شعراء الجاهلية ، وفارس من فرسانها ، وصعلوك من صعاليكها المعدودين المقدمين الأجواد (٢) ، وكان له طابع خاص فى فروسيته وذلك بما امتاز به من خلق فى الكرم والجود ، وفى تواضعه الشديد للفقراء وعطفه عليهم وبذله كل ما عنده لهم .

وقد تقدم على الشعراء الصعاليك لما عنده من فروسية وشجاعة ، وبلغت مكانته درجة جعلت الخلفاء يتمنون أن يصاهروه أو ينتسبوا إليـــه ، وقد أعجب به معاوية بن أبى سفيان وقال عنه : « لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم » (٣) .

ويقول عبد الملك بن مروان : « مايسرنى أن أحدا من العرب ولدنى من لم يلدنى إلا عروة بن الورد لقوله :

---

(١) أنظر الأصمعيات : ١٠ / ٤٣ . تحقيق شاكر وهارون . دار المعارف ١٩٥٥ م ، والشعر والشعراء : ٢ / ٦٧٥ دار المعارف ١٩٦٦ م .
(٢) الأغانى : ٣ / ٩١٩ ط دار الشعب .
(٣) المصدر السابق والصفحة نفسها .

إنى امرؤ عافى إنائى شركة • وأنت امرؤ عافى إنائك واحد
أتهزأ منى أن سمنت وأن ترى • بجسمى مس الحق والحق جاهد
أفرق جسمى فى جسوم كثيرة • وأحسو قراح الماء والماء بارد

لهذا كله كان عروة بن الورد يعد من شعراء الجاهلية الكرام ، ومن فرسانها المعدودين الأجواد ، حتى قيل عنه انه كان يؤثر الآخرين . وقد لقب « عروة الصعاليك » لجمعه إياهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا فى غزواتهم ولم يكن لهم معاش ولا مغزى » (١) .

ومن الألفاظ التى يؤدى استعمالها العام بعض ماتدل عليه كلمة الفروسية لفظ « فاتك » فهو يدور حول الجرأة والشجاعة ، وإن كان يدخل فى ميدان الصعلكة .

تقول كتب اللغة : الفاتك : الجرىء الشجاع . ويقول ابن منظور (٢) : الفتك : هو ركوب ما هم من الأمور ودعت إليه النفس ، والفاتك الجرىء الصدر والجمع الفتاك ، ورجل فاتك جرىء ، والفتك هو القتل أو الجرح مجاهرة .

وهذا المعنى - أى الجرأة والشجاعة - هو الذى يربط الفتك بالفروسية ، ويجعلهما وصفين يلتقيان بحيث يؤدى أحدهما بعض مايؤديه الآخر . والمعنى نفسه شائع فى شعر الفروسية ، فالشعراء الفرسان يفخرون دائما بجرأتهم

(١) الأغانى : ٣ / ٩١٩ . ط دار الشعب .
(٢) لسان العرب : ٣٧ / ٣٣٤٣ دار المعارف .

وشجاعتهم ومضاء عزيمتهم .

وهناك مواقف يتصف فيها أشخاص بالفتك ويكون المراد بالوصف الشجاعة والجرأة فحسب ، كما وصف عمرو بن كلثوم بأنه فاتك مع أنه كان سيد تغلب غير منازع (١) ، الأمر الذى يؤكد أن المراد بوصفه بهذا الوصف هو مجرد الشجاعة والجرأة والإتيان بأعمال البطولة .

وهكذا وضحنا التقارب فى المدلول بين لفظ « الفروسية » وألفاظ « الفتوة » و « الحماسة » و « الصعلكة » و « الفتك » ، وبينا أن هذه الألفاظ قد تنتهى فى بعض مدلولاتها إلى غاية واحدة .

٤ - ما المقصود بفروسية الخوارج ؟

ومع هذا البسط الذى فهمنا به طبيعة شعراء الفروسية وسلوكهم ومنهجهم نأتى إلى نقطة فى غاية الأهمية وهى : ما المقصود بفروسية الخوارج ؟ هل هى تلك الفضائل التى كمنت فى قرارات نفوسهم ، والتى تحلى بها فرسانهم ودعمت شخصيتهم ، وثبتت إيمانهم بأنفسهم ، ودفعتهم إلى درج المجـــد دفعا حميدا فوهبتهم العزة والقوة المعنوية وجعلتهم يقفون أمام الأعاصير فلا تكتسحهم فى طيات أمواجها ؟ .

إن أقوم طريق نسلكه هو أن نرجع إلى تاريخ الخوارج المشرق الذى يفيض بالشجاعة والبطولة وكثرة الحروب فأعرض بعض صفحاته وأقدم

(١) أنظر خزانة الأدب للبغدادى : ٣ / ١٨٣ تحقيق وشرح هارون . دار الكاتب العربى . القاهرة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٨ م .

نماذج الفتوة والفروسية عند فرسان الخوارج الأمجاد ، وأبين كيف كان مجتمع الخوارج مناخا مناسبا للفروسية حتى إنه لتتضاءل أمامه كل المجتمعات الحديثة التي وصفت بالقوة والفتوة والفروسية .

على أن أحاديث فرسان الخوارج وأخبارهم ونوادر فروسيتهم كانت مبعثرة في ثنايا كتب الأدب والتاريخ ، ولها روايات عدة ، ونحن لا نستطيع أمام هذا الفيض الزاخر من الأخبار والأحاديث استيعاب كل ماتحدث به الأدب والتاريخ عن فروسية الخوارج وبطولتهم .

فقد عاش الخوارج في عصرهم وهم في جهاد مستمر وكفاح مرير طويل وقد جعلهم هذا من أكثر الناس احتمالا لما لا يطاق من الشدائد والمشقات ، وفضلا عن ذلك فقد فرضت عليهم حياتهم أن يكونوا على درجة عالية من الشجاعة لا يترددون ولا يتقاعسون ، فإذا ضاقت على أحد منهم السبل ولم يجد من الموت بدا رأى من العار أن يولى ظهره للمحن والشدائد ، بل عليه أن يقتحم غمراتها ، ويبيع نفسه رخيصة في ميدان القتال . . وهذه لعمري هي حياة الفروسية الحقيقية التي تقوى في النفس الإنسانية حوافز الكفاح والنضال والتي تملأ القلوب شجاعة فائقة واستهتارا بالمخاطر .

هذه هي الفروسية التي تحلى بها فرسان الخوارج ، وكانت من أبرز صفاتهم : شجاعة فائقة فيها قوة واستبسال في القتال وتحد للمنية ، وخوض المكاره بقلب ثبت ، واحتمال مالا يطاق من المشقات ، والأخذ بالحذر واليقظة في ميادين القتال ، وقوة الإرادة وصلابة العزيمة .

وقد ظلت هذه الصفات السامية ميزة لكل خارجي في شتى الأقطار التي أقاموا بها أو دخلوها ، وصارت سجية من سجاياهم ، ونمت نموا طبيعيا عندهم ، واحتلت في نفوسهم منزلة سامية ، ولم تضعف هذه الصفات عند أحد منهم كما ضعفت عند آخرين لتوافر الأسباب والعوامل المساعدة على ذلك .

٥ - شعر الفروسية والحياة الجديدة في العصر الأموي :

شعر الفروسية بمعناه العام قديم عند العرب ، فلقد عرف الجاهليون القتال والنزال ، ولم تسد الروح الحربية في أي عصر كما سادت في عصرهم ، وإن كانوا لم يحاربوا قوما بعيدين عنهم ، بل كانت معظم حروبهم غالبا بين قبائلهم فحسب ، وكل شعر لهم طال أم قصر قد وصفت فيه المعارك ورويت فيه أخبار البطولة ، وأهوال الوقائع وملاحمات الجلاد .

وإذا كان الحال أنه لم تخل أمة من حرب ، وهي إما أن تكون لها مع الجار أو مع من في الدار (١) . . فإن حياة الجاهليين في البادية أولى وأجدر بأن تكون حياة فروسية ، فقد سعت كل قبيلة إلى التميز والتفرد والتفوق في كل مايخلد مناقبها ومفاخرها ، ثم إنهم كانوا ذوي مروءة وهمة ، وبلغت شجاعتهم درجة جعلتهم يؤثرون الموت في ظل الكرامة والحرية ، ويبيعون أرواحهم رخيصة في ميدان القتال دفاعا عن العرض أو ذودا عن الحرمات .

(١) شعر الحرب في أدب العرب د . زكي المحاسني : ٣٣ دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ١٩٧٠ م .

ومن يتصفح قصائد شعراء الجاهلية يجد بين يديه شعرا يحوى المعارك ، ويصاحب الجنود فى الذهاب للنزال ، ويرى الإقبال والإدبار ، والرمى بالنبل والطعن بالسيف ، ثم يرى ماتسفر عنه المعارك من غنيمة للفائز وخسارة للمهزوم ، ومن إعداد العدة للثأر ، وما لابس ذلك كله من فخر ومدح ورثاء وهجاء ، وكأن القصيدة فى هذا الشمول تعد ملحمة كبرى تماثل ما لدى غير العرب من ملاحم (١) .

ومعروف أن بلاد العرب استحالت فى الجاهلية إلى مايشبه ميدانا كبيرا تقتتل فيه القبائل وتتصارع ، وكانت الحرب فى داوهم سجالا ، فلا ينتهون من معركة إلا دخلوا فى غيرهـا ، بل إنهم لم يلبثوا أن ينتهوا من معركة حتى ينهض كل فريق لنجدة فريقه فتكون حرب جديدة ويوم آخر مشهود فمن حرب « الأوس والخزرج » إلى حرب « داحس والغبراء » إلى حرب « البسوس » إلى « يوم ذى قار » إلى « يوم حليمة » وغير ذلك من الحروب والوقائع التى كثرت دوافعها وأسبابها عندهم .

هذا إذا أضفنا أنهم لم يكونوا زاهدين فى الشهرة والزعامة وحب التسلط فإن كثيرا من ساداتهم وغطاريفهم شنوا الحرب من جراء الإمارة ، وكانوا كغيرهم من الأمم يتغلب فيهم القوى على الضعيف ولا يحمى لديهم الذمار إلا بحد السيف (٢) .

---

(١) أنظر الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور د . شوقى ضيف : ١٩ دار المعارف ١٩٧٧ . (٢) شعر الحرب فى أدب العرب د. زكى المحاسنى ٣٤

كذلك نشبت الحرب بينهم من جراء الحفاظ على الشرف والعرض والدفاع عن كرامة المرأة ، فهم يوقدون نار الحرب بسبب معشوقة هال أهليها العار وقد يكون طلب المال حاملا لهم على الحروب ، بل لعله يكون ستارا تنفذ من خلاله أحقاد الصدور ، كما حدث في « حرب البسوس » والتي شبت بسبب ناقة للبسوس بنت منقذ .

هذا إذا أضفنا أن الجاهليين كانوا ذوي حمية شديدة وقلوب جريئة ، ومهارة فائقة تجعلهم لا يبكون على من قتل في معركة ، لأنهم - مع فداحة المصاب - يرون ذلك واجبا تفرضه حياتهم عليهم :

ولا تراهم وإن جلت مصيبتهم * مع البكاة على من مات يبكونا (١)

وقد وقفت المرأة تصف المعارك وتمجيد تصوير الأبطال ، وكأنها أحست أنها تشارك الرجل في الحرب فلا بد وأن تشاركه في الشعور الحماسي تلقاء الحروب ونكباتها ؛ وما كن - أي النساء - في ذلك أقل إجادة من الرجال ، وكفاهن ، فخرا أن كانت بينهن الشاعرة « الخنساء » .

وقد خاطب كثير من شعراء العرب نساءهم حين يقولون شعرا في الفروسية ، وهم بذلك يقررون أن المرأة ضرورية عندهم لشعر الحرب والفروسية ، فهي تستثيرهم للحرب . وهذا واضح في قول عنترة مخاطبا محبوبته (٢) :

---

(١) الفتوة عند العرب ، عمر الدسوقي : ٥٣ نهضة مصر .

(٢) ديوان عنترة : ١٥ وما بعدها . دار صادر بيروت .

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك • إن كنت جاهلة بما لم تعلم
يخبرك من شهد الوقيعة أننى • أغشى الوغى وأعف عند المغنم
ومدجج كره الكماة نزاله • لا ممعن هربا ولا مستسلم
جادت يداى له بعاجل طعنة • بمثقف صدق الكعوب مقوم
فشككت بالرمح الأصم ثيابه • ليس الكريم على القنا بمحرم
ولقد ذكرتك والرماح نواهل • منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها • لمعت كبارق ثغرك المتبسم

أما فى عصر صدر الإسلام فقد حدث انقلاب دينى مس حياة العرب فأخرجهم من حياة الوثنية إلى حياة روحية سامية ، فامتلأت قلوبهم بالايمان ، الأمر الذى أدى إلى حدوث تطور وتغيير فى شعر الفروسية وبخاصة فى معانيه ، إذ دخلتها بعض المعانى والمبادىء الاسلامية .

وما أن نشبت المعارك بين المسلمين وبين كفار قريش حتى أخذ شعراء كل حزب يتبارون فى تسجيل مايدور فى هذه المعارك ، وقد التزم شعراء المسلمين بالقيم والمبادىء الجديدة ، أما من عميت قلوبهم من شعراء مكة فقد وقفوا يحمسون قومهم ضد الرسول صلى الله عليه وسلم وضد دعوته ، غير مبالين بما يقولونه من هجاء مقذع .

وزاد شعر الفروسية أنه لم يقتصر على وصف المعارك التى دارت بين جيش المسلمين وجيش الكفار ، والافتخار باحتمال المشاق وخوض المكاره

فحسب ، بل أخذ يتخطى ذلك كله فواكب الفتوحات الإسلامية ، وأخذ الشعراء ينظمون أناشيد حماسية مدوية يتغنون فيها بانتصاراتهم (١) .

أما فى عصر بنى أمية فقد تعقدت الأمور السياسية ، وأصبح لزاما على الشعراء أن يعدوا أنفسهم لمهمة كبرى ينهضون بأعبائها الجسام متمثلة فى أشعار الفروسية ووصف الحرب ، فالعصر وما فيه من سياسة معقدة وحروب وفتن قد أوجب على الشاعر أن يخضع لسلطان الحرب والسياسة .

وليس من شك فى أن العصر الأموى شهد عدة ظواهر جديرة بالتسجيل والدراسة ، ففيه تطور الشعر وأصبح له دور بارز فى تصوير الحياة الجديدة وما حدث فيها من تطورات سياسية سادت العصر من مبتدئه إلى نهايته.

ولو ذهبنا نلتمس فنون الشعر وموضوعاته فى هذا العصر وجدناها تنبع غالبا من روافد ثلاثة : رافد تقليدى يتمثل فى الموضوعات القديمة كالمدح والهجاء والفخر والوصف . ورافد كان قبل ضيق الأفق قريب الغور ، إلى أن كان العصر الأموى فلم يبق على ما كان عليه قبل ، بل اتسعت مناحيه ودخلها كثير من التجديد الذى جاء بسبب الحضارة بألوانها المختلفة . ذلك هو شعر الغزل العذرى .

أما الرافد الثالث فإنه مع ثرائه وذيوعه جديد كل الجدة بما استكمل من مقومات فى هذا العصر ، ذلك هو « شعر الفروسية » ، وقد كان الصراع

---

(١) أنظر د . شوقى ضيف (العصر الاسلامى) ص ٦٢ . دار المعارف الطبعة الثامنة .

الحزبى أبرز أثرا فى هذا الشعر من الصراع الحزبى فى أواخر صدر الاسلام أو فى عصر بنى العباس . وأحسب أنه لا يستطيع أحـد أن يفصل بين شعر الفروسية وبين الشعر السياسى ، فإن ثمة شعرا كثيرا من النوع الأول كانت السياسة دافعة إليه ، وما قيل منه لأجل الحرب قيل أيضا لوجه السياسة (١)

ولعلنا لانعدو الحقيقـة إذا قلنـا إن شعر الفروسية الذى أثمره الصراع فى العصر الأموى يعد تراثا ضخما فى أدبنا العربى ، وهـــو ـ وإن امتدت العوامل الفعالة فى نهضته وازدهاره إلى غيره من العصور ـ يعد مرآة لمجتمع شهد صراعا حزبيا أشد عنفا وأطول مدى ، ونجمت فى أرضه دعـــوات وآراء سياسية متعارضة ، نشأ بسببها حزب وأفل بسببها نجم حزب آخر .

ولا شك أن قرائح الشعراء فى هذا العصر هى التى هيأت لخدمة هذا الضرب من الشعر ، فالعصبية التى سادت العصر دفعت الشاعر إلى أن يخوض فى شعر الفروسية وينشد أبياتا يفضل بها قبيلته وقومه على من يذهب غير مذهبهم من أعدائهم ومناوئيهم ، وقد نبغ فى هذا ـ بفضل القرائح الفذة ـ شعراء فحـول استطاعوا أن يفوقوا غيرهم فى الفخـــر والحماسة ودعايات السياسة وذكر الحروب .

ولا يمكن القول بأن شعر الفروسية فى العصر الأموى يخلو من المآرب السياسية ، فهذا حكم لايخلو من غلو وتطرف عن الحقيقة ، فقد تكون

---

(١) أنظر شعر الحرب فى أدب العرب د . زكى المحاسنى : ٥١ ـ ٥٥ .

السياسة هى الدافع إلى نظم شعر الفروسية ، فهو - أى شعر الفروسية - تتمة طبيعية لصراعات العصر وخصوماته ، وما اختارت الأحزاب السياسية الحرب ولا امتشقت السيوف إلا لإزالة الحواجز الماثلة أمام مآربهم السياسية ثم إن من شعراء العصر من كانوا فوارس فى الميدان ، وقد وظفوا شعرهم لصالح دعوتهم حتى كادوا يقصرونه عليها .

وأحسب أن شعراء العصر وبخاصة العمالقة منهم (جرير والأخطل والفرزدق) لو خلصوا إلى شعر الفروسية وإلى حروب العصر ، فوصفوا وقعاتها وسكبوا خيالاتهم الرائعة فى هذا الوصف ، ولم يكتفوا بأبيات يبثونها بين شعر المدح والفخر والهجاء لخلدوا فروسية الأبطال الذين أنبتهم عصر بنى أمية ، لما روى عن خوارق بطولاتهم وروائع شجاعتهم واقدامهم فى الحرب والجود بأنفسهم فيها .

لكنهم وكانوا عصبة كبرى تألب بعضهم على بعض من جراء العصبية التى ورثوها من الجاهليين لقرب العهد بينهم وبين أهلها ، وأخذوا يتراشقون بهجاء شغل رواة الأدب ومؤلفيه قديما وحديثا .

فهذا هو الفرزدق قد شغله شعر الهجاء عن شعر الحرب ، واقتصر فى وصفه للحرب على أبيات بثها فى ثنايا قصائده ، فهو فى هجائه لابن يزيد بن مسعود ابن خالد ، يأتى بأبيات فى الفروسية عند قومه نحس منها أنه لم يلم بوصف المعارك ، ولم يبذل جهدا فى تصوير وقائعها والتحام جيوشها ، وكأنه لم يعرف شيئا عن فنون الحرب .

يقـــول (١) :

وكم من رئيس غادرته رماحنــا • يمج نجيعا من دم الجوف أحمرا
ونحن صبحنا الحى يوم قراقر • خميسا كأركان اليمامة مدسرا
ونحن أجرنا يوم حزن ضرية • ونحن منعنا يوم عينين منقرا
ونحن حدرنا طيئا عن جبالها • ونحن حدرناعن ذوى الغور جعفرا
بأرعن جرار تنىء له الصوى • إذا ما اغتدى من منزل أو تهجرا
له كوكب إذ ذرت الشمس واضح • ترى فيه منا دارعين وحسرا

ولم يشذ شعر الفروسية عن التطور الذى ساد العصر الأموى ، وامتلأت دواوين شعراء العصر بمنظومات حماسية تصف الحروب والفتن ، وهى حماسة لاتحركها العصبية القديمة فحسب ، بل كان يحركها فى الأعم الأغلب ماساد العصر من صراعات حزبية ندر أن نجد فى عصر آخر مثيلا لها .

هذا إذا أضفنا أن شعراء الأحزاب المعادية للأمويين كانوا غـــلاة فى مبادئهم ، وكان لكل شاعر منهم دعوة فى شعره الحربى ، فهنـاك إلى جانب شعراء الحزب الحاكم شعراء الخوارج ، وهم قوم يرفضون الحيـــاة تحت الخضوع لآراء غير آرائهم ، وظلوا بفرقهم المختلفـــة يحاربون الأمويين حربا مقدسة .

يقول شاعرهم قطرى بن الفجاءة فى الحروب (٢) :

---

(١) الديوان : ١ / ١٩٥ . دار صادر بيروت ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م .

(٢) شعر الخوارج : ١١٢ .

لا يركنن أحد إلى الإحجام * يوم الوغى متخوفا لحمام

فلقد أرانى للرماح دريئة * من عن يمينى مرة وأمامى

حتى خضبت بما تحدر من دمى * أكناف سرجى أو عنان لجامى

ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب * جذع البصيرة قادح الإقدام

متعرضا للموت أضرب معلما * بهم الحروب مشهر الأعلام

أدعو الكماة إلى النزال ولا أرى * نحر الكريم على القنا بحرام

وهناك حزب الشيعة ، وقد صور شعراؤه اضطراب الأمور فى العراق ، وأخذوا يناخون خصومهم ، ويدفعون أنصارهم إلى التضحية وبذل الأرواح فى سبيل تحقيق أمانيهم والذود عن حياضهم ، وكان شعرهم صدى لحروب الشيعة مع غيرها من الأحزاب الأخرى .

كذلك وصف شعراء الحزب الزبيرى ثورات حزبهم على الأمويين ، وصوروا لنا من خلال شعرهم الحربى ما آل إليه أمر الحجاز من اضطراب ولا أدل على ذلك من شعر عبيد الله بن قيس الرقيات ، فقد خرج معاديا للأمويين ومن والاهم ، ومشيدا بالبطولات التى عرفها التاريخ للزبيريين .

يقول واصفا أفراسه مع قومه وقد ركبها (١) :

فغدونا بهن فى غبش اللي ـــــل دقاقا كأنهن المغالى

أدرك الذحل فتية من بنى عم ـــــرو بصبر النفوس بين العوالى

(١) الديوان : ١١٦ . بيروت ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م .

لو رأتني ابنة النويعم ليلى * إذ نلف الأبطال بالأبطال
حين تنعى أخاك بالأسل السمـ * ـر وشعث كأنهن السعالى
لشفى نفسى انتقام بنى عمـ * ـك حين الدماء كالجريال
طال من طل فى الحروب ولم يطـ * ـلل على ولا دماء الموالى
وبنى مالك بن حسل ثأرنا * غير فخر بنا وغير انتحال
وأصبنا بعد الرجال رجالا * وحوينا الأموال بالأموال

وهكذا كانت الصراعات الحربية عاملا قويا فى اتساع آفاق هذا الشعر وفى تعدد مناحيه ، حتى جاء غنيا بالمعانى الحربية ومعبرا أصدق تعبير عن المعارك والوقائع التى شهدها العصر ، وإن كان قد جاء فى بعض الأحيان ممزوجا بأغراض شعرية أخرى ، حتى صارت جل القصائد ممزوجة بالهجاء والمديح والفخر والرثاء . ظهر ذلك فى المدح والهجاء عند كل من جرير والأخطل والفرزدق ، كما ظهر فى الرثاء وبخاصة عند شعراء الخوارج .

فالصلة إذن بين شعر الفروسية وبين الأحداث السياسية فى هذا العصر صلة قوية ووثيقة ، بل إنهما متلازمان ، لأن شعر الفروسية شعر يدور حول وصف أحداث البطولة فى المعارك الحربية سواء أكان مدار القول هو قائد المعركة أو أمير الحملة أم كانت حول الجنود وآلاتهم الحربية ، أم متعلقة بالشاعر الفارس الذى يفخر بشجاعته وبشخصه المثالى ، ويصف أعمال الفروسية التى تصدر عنه فى حومة الوغى . وهذا الشعر هو شعر الاستماتة فى سبيل الغاية التى بسببها يناضل أولئك المنازلون فى المعارك والخائضون

للأحداث السياسية ، فكلما نشبت معركة أو حدث صراع سياسى لأمر ما نجد الشعر يصف تلك المعركة ويعبر عن هذا الصراع وما يدور فيه من أحداث ووقائع .

وأكبر الظن أن تعدد الأحزاب وتصارعها بالألسنة والأقلام كما تتصارع بالسيوف والرماح ، ووقوف كل شاعر بجانب حزبه يعضده ويدعو له ، ويحمل على خصومه ، كان من أقوى العوامل فى نهضة الشعر بصفة عامة وكان أشد هذه العوامل قوة فى نهضة شعر الفروسية بصفة خاصة ، فهو ينبوع ثر له ولو لم تكن الحزبية ما كان ذلك الضرب من الشعر ! .

كما كان لظهور هذه الأحزاب على مسرح الحياة السياسية أثر مباشر وخطير فى ظهور ذلك اللون الجديد من الشعر السياسى الذى تمثلت فيه شخصيات تلك الأحزاب ومبادئها وأهدافها ، فأنت تشهدها عند كل صدام للشعراء ، وتراها فى كل معاركهم ، وفى كل جولة من جولاتهم . بل إن هذا اللون من الشعر سرعان ما اتسع بين شعراء الحزب الأموى ، فتعددت فيه مشاربهم وأهواؤهم حتى أصبح لكل شاعر منهم موقف خاص وظروف معينة تربط بينه وبين بنى أمية (١) .

وهذا كله يجعلنا نكرر القول بأن شعر الفروسية عند العرب عامة يمتاز عن مثيله عند غيرهم ، فهو وليد مواقف وصراعات حقيقية وقعت بالفعل

---

(١) أنظر تاريخ الشعر العربى د . الكفراوى : ١ / ٨٩ وما بعدها .

.. وفوق ذلك فهؤلاء الشعراء الذين تغنوا بهذا الشعر كثيرا ما كابدوا الحروب وعانوا شدائدها ، فلم يقولوا الشعر وهم بعيدون عن الحرب ، ولم يسجلوا وقائعها دون أن يكون لهم عهد بها كما كان يفعل معظم شعراء الأمم الأخرى .

ولا شك أن موضوعات شعر الحرب والفروسية هي التي هيأت القرائح ودفعت الشعراء إلى أن يرتقوا بهذا اللون من الشعر ، لأنه لم يحدد للشاعر أحد مجال القول فيه ، ولكن الشاعر هو الذي يهب نفسه له ، فيصف المقاتلين يتلاحمون بين الحياة والموت ساكبا على كل ذلك تعابير العربية في أروع قوالبها .

ثم إن شعراء الفروسية كانوا مسوقين لهذا الشعر بدافع من الروح الإسلامية ، فهم يدافعون عن الإسلام إذا ما كانت الثورات والحروب في الأقاليم والأمصار المفتوحة ، ويبتغون في الدين المثل الأعلى والغاية السامية مجردة عن باطل الحياة إذا ما كانت الصراعات صراعات حزبية داخلية .



الفصل الثـــالث

المقومات الشخصية لشعراء الخوارج الفرسان

تمهيـــد

لا يمكن أن نصور حياة فرسان الخوارج على حقيقتها بما فيها من فروسية وشجاعة وصلابة فى العقيدة والمبدأ ، كذلك لا يمكن أن نصور مشاعر فرسان الخوارج كما يصورها الخوارج أنفسهم ؛ لأنهم أصحاب هذه الحيـــاة ، وقد عاشوها وانفعلوا بما فيها ، وتأثروا بكل ماتنطوى عليه من أحداث وخطوب .

ولا شك أن حياة الخوارج بكل يوم من أيامها سلسلة متصلة من المواقف العصيبة والمخاطر الشديدة ، فليس فى حياتهم ساعة تخلو من خطورة ، أو من رهبة وخوف ، أو من قلق وفزع ، فهم يتربصون بكل من حولهم ، وكل من حولهم وما حولهم عدو متربص بهم .

ولا شك كذلك أن هذه الحيـاة الخطيرة الرهيبة التى عاشها الخوارج ليست سهلة ولا ميسورة ، وليست مستطابة لكل راغب فيها . . ولئن كان بعض الناس يفخرون بمخاطرة أقدموا عليهـا أو بموقف رهيب اجتازوه ، فإن حياة الخوارج فوق ذلك بكثير ، فحيـاة أمثالهم تحتاج إلى مقومات أساسية تعد لازمة لكل من يخوض غمار تلك الحياة ، حتى يستطيع أن يبرز على الرغم مما فى الحيـاة من قسوة ومخاطر .

وقد كانت الفروسية فى عصر الخوارج صفة يتحلى بها معظم أفرادهم ، بحيث يرى من يتصفح تاريخهم أنهم جميعا فرسان أمجاد فى شجاعتهم وجهرهم بالحق ووفائهم بعهودهم ، وتقديرهم لما عليه أعداؤهم من شجاعة وإقدام . . وغير ذلك من الفضائل التى كان يتحلى بها الفرسان العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام .

وهذه المقومات هى أهم مايلزم للفرسان ، وهى المعيار الحقيقى للتفاوت بينهم ، ولإظهار مدى نجاح كل فارس فى ميدان الفروسية وفى تحقيق أغراضه منها ، وبدون هذه المقومات لا يمكن أن يصلح شخص ما لحياة الفروسية الحقيقية مهما أتيح له من غيرها .

ولئن كانت هذه المقومات مجرد صفات شخصية للشعراء الفرسان على وجه العموم ، فإنها تمثل عند شعراء الخوارج - بجانب كونها مقومات شخصية - وسيلة من وسائل الفروسية كالأسلحة وغيرها ، وقد اعتمدوا عليها اعتمادا أساسيا فى صراعهم مع الخطوب والمحن التى واجهتهم ، وقد استغلوا كل صفة منها بأقصى ما يمكن الاستغلال حتى ظهرت سلاحا واضحا فى حياتهم .

ومما هو جدير بالذكر أن جميع هذه المقومات ليست متوافرة فى كل فارس ، وإلا كان جميع الشعراء الفرسان فى درجة واحدة . وفرسان الخوارج - كما يبدو من أخبارهم ، وكما ينطق به شعرهم وما تصوره ظروف حياتهم - لا بد لكل منهم أن يتصف بقدر وافٍ من هذه المقومات . . وإذا فقد واحد منهم جانبا من هذه المقومات فضرورى أن يكون عنده من المقومات الأخرى

مايسد هذا النقص ، وإلا كان فى مستوى أدنى من غيره فى الفروسية .

وفيما يلى نتحدث عن هذه المقومات التى اتسم بها فرسان الخوارج والتى تعد من أهم الوسائل التى تمكنهم من مواجهة المحن والخطوب التى كثيرا ما تعرضوا لها فى حياتهم الصعبة القاسية :

١ - استعذاب الموت واستطابته

من أهم مايميز فرسان الخوارج أنهم كانوا يستعذبون الموت ويرحبون به ، فهم غير حريصين على الحياة كما يحرص سائر الناس ، ولكنهم باعوها وجاهدوها كما جاهدوا طلابها ، ووطنوا أنفسهم على طلب الشهادة فى ميدان الجهاد والذود عن عقيدتهم . . وهم قوم لا وجه أمامهم فى معاركهم التى خاضوها إلا الموت ، لقد رخص كل شىء لديهم من حطام الدنيا ، ولم يكن من حطامها بين أيديهم سوى القليل .

وغاية الموت هى التى تكيف حياتهم ، وهى التى توجه الشعر والأدب بصفة عامة ، وهذه الغاية هى التى تلتقى عندها أحلام كل واحد منهم وآماله إذ لم يعد الموت عندهم إلا دخول الجنة ، أو لقاء الإخوان الأبرار الذى استشهدوا فى ميدان الجهاد . ولذلك كان من بينهم الذى طعن فأنفذه الرمح فجعل يسعى فيه إلى قاتله وهو يقول : « وعجلت إليك ربى لترضى » (١) .

والموت عندهم أطيب من الفرار فى الحرب ومن التخلى عن العقيدة والمبدأ

(١) الكامل للمبرد : ٣ / ٢٢٠ .

.. فإذا ضاقت على أحد منهم السبل ولم يجد من الموت بدا رأى من العار أن يفر ويولى ظهره للمحن والشدائد ، بل عليه أن يقتحم غمراتها ، وأن يعمد إلى شجاعته ، فلعل فى ذلك نجاته ، لأنه لا يدرى إذا هرب كم بقى له من العمر . فهم يؤمنون بأن الأجل محدود لا يغنى فيه حذر من قدر ، ولا ينفعهم تقاعسهم فى ميدان القتال شيئا ، يضاف إلى ذلك أنهم يفضلون الموت على العيش الذليل ، فبيع النفس رخيصة فى ميدان القتال دفاعا عن المبدأ والعقيدة أو ذودا عن الحرمات هو أقصى ما تصل إليه النفس الإنسانية فى شجاعتها ، وهو أكبر دليل على إيمان ثابت بمصير النفس الإنسانية وتكريمها .

وهذه الصفة يمكن أن تقال فى كل خارجى صادق العقيدة . ولذلك تشابهوا فى شعرهم ، ونسب شعر بعضهم إلى البعض الآخر وأصبح هذا الشعر لا يميز إلا باختلاف الأسماء لا فرق بين « عمران » و « أبى بلال » و « البهلول » .. فكل واحد فيهم يمكن أن يقول ما يقوله الآخرون .

وتدور أشعار كثيرة للخوارج حول فكرة استعذاب الموت واستصغار شأن الحياة واستطالتها والتهوين من أمرها والحرص على التخلص منها . فهذا هو « البهلول بن بشر الشيبانى » (١) الفارس الشجاع ، والذى كان منقطع النظير فى استهتاره بالموت ، فهو مستعد له يتغنى دائما بحبه ، ويتحدى أسبابه فى جرأة وقوة :

---

(١) أنظر ترجمة له فى : شعر الخوارج : ٢٠١ .

من كان يكره أن يلقى منيته • فالموت أشهى إلى قلبي من العسل
فلا التقدم فى الهيجاء يعجلنى • ولا الحذار ينجيني من الأجل (١)

ويتغنى عمران بن حطان (٢) بحب الموت فيقول فى رثائه لأبى بلال مرداس :

لقد زاد الحياة إلى بغضا • وحبا للخروج أبو بلال
أحاذر أن أموت على فراشي • وأرجو الموت تحت ذرى العوالى
ولو أنى علمت بأن حتفى • كحتف أبى بلال لم أبال
فمن يك همه الدنيا فإنى • لها والله رب البيت قالى (٣)

وفيه أيضا يقول :

ياعين بكى لمرداس ومصرعه • يارب مرداس اجعلنى كمرداس
تركتنى هائما أبكى لمرزئتى • فى منزل موحش من بعد إيناس
أنكرت بعدك من قد كنت أعرفه • ما الناس بعدك يامرادس بالناس
إما شربت بكأس دار أولها • على القرون فذاقوا جرعة الكاس
فكل من لم يذقها شارب عجلا • منها بأنفاس ورد بعد أنفاس (٤)

ويبلغ شعراء الخوارج أقصى الاستهانة والاستخفاف بالموت لما لديهم من تأثر بالقرآن الكريم ، فهم يوقنون بفناء هذه الدنيا ، ولذلك يؤثرون

---

(١) شعر الخوارج : ٢٠١ .   (٢) أنظر ترجمة له فى شعر الخوارج : ١٤٠ .
(٣) شعر الخوارج : ١٤٢ ، ١٤٣ .
(٤) شعر الخوارج : ١٤١ ، ١٤٢ . والكامل للمبرد : ٣/ ١٦٨ .

بيع ما يفنى بما يبقى .

يقول الرهين بن سهم المرادى (١) :

إنى لبائع ما يفنى لباقيــة • إن لم يعقنى رجاء العيش تربيصا
أخشى لجاءة قوم أن تعاجلنى • ولم أر بطوال العمر تنقيصا
وأسأل الله بيع النفس محتسبا • حتى ألاقى فى الفردوس حرقوصا (٢)

ويقول رجل من الخوارج قدمه الحجاج إلى القتل (٣) :

من لم يمت غبطة يمت هرما • الموت كأس والمرء ذائقها
ما رغبة النفس فى الحياة وإن • عاشت قليلا فالموت لاحقها
وأيقنت أنها تعــود كما • كان يراها بالأمس خالقهـا
يوشك من فر من منيته • فى بعض غــراته يوافقها

ويقول أبو بلال مرداس بن أدية (٤) :

إنى وزنت الذى يبقى بعاجلة • تفنى وشيكا فلا والله ما اتزنا
تقوى الإله وخوف النار أخرجنى • وبيع نفسى بما ليست له ثمنا

ويقول أحدهم (٥) :

---

(١) أنظر ترجمة له فى شعر الخوارج : ٦٢ .

(٢) شعر الخوارج : ٦٢ والتربيض : الترقب والانتظار . وحرقوص: من زعماء الخوارج فى النهروان .

(٣) شعر الخوارج : ١٧٠ ، ١٧١ . (٤) المصدر نفسه : ٥١ .

(٥) المصدر نفسه : ٥٩ .

يارب هب لى التقى والصدق فى ثبت * واكف المهم فأنت الرازق الكافى
حتى أبيع الذى يفنى بآخـــرة * تبقى على دين مرداس وطواف(١)

والخوارج يتخذون من الموت سبيلا للحيـــاة ، ولهذا كانوا يتعجلونه ويعدونه انتصارا لا يعدله انتصار آخر ، وهذا يملأ قلوبهم شجاعة واستهتارا بالمخاطر ، وهم فى هـــذا يختلفون عن نظرة شعراء الصعاليك للموت ، فالصعاليك يستهينون بالموت لذاته ولو بغير مقارنة بينه وبين موقف آخر ، وكأن شعور الاستهانة بالموت صفة أصيلة دائمة فيهم لا يثيرها موقف معين، ولا يتوقف ظهورها على ظرف من الظروف (٢) .

ومن الواضح أن نظرة الخوارج للموت قد انعكست بشكل مباشر على رثائهم ، حتى أخرجته عن الإطار التقليدى الذى يتسم بالتفجع والبكاء ، فهم فى رثائهم يغبطون شهداءهم ويتمنون اللحاق بهم ، وفيه أيضا يؤكدون الالتزام بخطى أسلافهم ، فيكون ذلك باعثا لمزيد من التضحية والفداء .

يقول حيان بن ظبيان (٣) فى رثائه لقتلى الخوارج :

خليلى مابى من عزاء ولا صبر * ولا إربة بعد المصابين بالنهر

(١) طواف : هو طواف بن علاق . (أنظر ترجمته فى شعر الخوارج : ٥٩) .
(٢) شعر الصعاليك د . عبد الحليم حفنى : ٢٦٨ . الهيئـــة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ م .
(٣) هو حيـــان بن ظبيان السلمى ، كان ممن ارتث يوم النهر وعفا على عنه (أنظر ترجمة له فى شعر الخوارج ٤٤) .

سوى نهضات فى كتائب جمة * إلى الله ماتدعو وفى الله ماتفرى (١)

ومن أجل ثورتهم على الحياة وتمنيهم الخلاص منها بالموت نجد لديهم تبرما بها واستبطاء لزوالها . وهذا واضح فى قول زياد الأعسم (٢) :

أقيم على الدنيا كأنى لا أرى * زوالا لها وأحسب العيش باقيا (٣)

وهذا الصراع واضح فى رثاء الحويرث الراسبى لصالح بن مسرح التميمى (٤) . يقول (٥) :

أقول لنفسى فى الخلاء ألومها * هبلت دعينى قد مللت من العمر

ومن عيشة لاخير فيها دنيئة * مذممة عند الكرام ذوى الصبر

سأركب حوباء الأمور لعلنى * ألاقى الذى لاقى المحرق فى القصر

وما كان خيرا صالح غير أنه * رمته صروف الدهر من حيث لا يدرى

(١) شعر الخوارج : ٤٤ .

(٢) كان يرى رأى الخوارج الأزارقة (أنظر ترجمة له فى شعر الخوارج ١٨٩).

(٣) شعر الخوارج : ١٨٩ .

(٤) صالح بن مسرح أبو مالك أحد مخابيت الخوارج ، كان ناسكا مصفر الوجه لا يرفع رأسه خشوعا ، وكان صاحب قصص يدعو فيه إلى الزهد ويدعو إلى الخروج ، وقد خرج هو نفسه عام ٧٦ هـ بعد اتفاق بينه وبين شبيب ، وكان خروجه بجوخى ، ثم أتى النهروان فصلى فى مصارع أصحابه وقال : اللهم ألحقنا بهم فإنهم مضوا على طاعتك ، ثم صار إلى نصيبين ، وقتل عام خروجه ، (شعر الخوارج ١٧٧).

(٥) شعر الخوارج : ١٧٧ ، ١٧٨ .

وليس معنى استهانة الخوارج بالموت أن حياتهم كانت تخلو من الحيطة والحذر ، وتقوم على التهور والطيش ، كلا فهم بجانب شجاعتهم التى ذكرنا طرفا منها يأخذون باليقظة والحذر . . واتخاذهم للحيطة والحذر لم يكن ليتعارض مع ما وصفناهم به من بسالة وشجاعة واستهانة بالموت .

وواضح من أخبارهم أن حياتهم كانت تلزمهم أن يجعلوا من صلب شجاعتهم الأخذ باليقظة والحذر الشديدين ، ولا شك أن من الصفات الأساسية لكل مقاتل يستهين بالموت ويستعذ به أن يتخذ لنفسه كل حيطة وحذر ، وأن يجعل هذه الحيطة جزءا أساسيا من كل ما يوصف به من شجاعة وإقدام ، ولا شك أن يقظة الخوارج قد ساعدتهم على الخلاص من مآزق كان مصيرهم فيها شرا لولا هذه اليقظة ، وأخبارهم تحدثنا عن كثير من هذه المواقف ، فقد امتحنت شجاعتهم فى كل صقع وأمام كل حزب من الأحزاب ، فأثبتوا أنهم أشد بأسا وأقوى عـــزيمة ويقظة وأعظم إيمانا وأنهم أبطال من نال شهرة منهم ومن لم ينل .

واستعذاب الموت واستطابته صفة يمكن أن تقال فى كل خارجى ، فهى تتمثل فى كل فرد على حدة كما تتمثل فى الجماعة ، وهى تصبغ الأدب الخارجى بصفة عامة والشعر منـه بصفة خاصة .

وهذه الصفة كانت سببا فى ظهور اتجاه آخر مضاد ، أخذ صورة الرد على هذا الاتجاه ، وجعل يصور جمال الحياة مرة ، ويدعو إلى القعود عن القتال مرة أخرى ، وأصحاب هذا الاتجاه قد خرجوا على مبادىء الخوارج وانتابهم

مايتتاب الآخرين من الناس من الحرص على الحياة والتمسك بها .

قد يظن بعض الدارسين ذلك ، ولكننا نلفت النظر إلى أن الطبيعة البشرية لاتدوم على حالة واحدة ، فمهما كان الفارس مخلصا فى جهاده قد تنتابه لحظات ضعف يلجأ فيها إلى التعبير بما لا يدل على مشربه ، إذ ان حرارته قد تنخفض وقتا غير طويل ، لأنه إنسان تتجاذبه عوامل الصعود والهبوط ، وفى هذا الوقت القليل نجد أمثال هذه الأبيات التى تدعو إلى القعود عن القتال .

ومن صور التمسك بالحياة والتعلق بها قول عمران بن حطان (١) :

إذا ما تذكرت الحيـاة وطيبها * إلى جرى دمع من العين غاسق

ومن صور التقاعد والخذلان ما قاله أحد الخوارج حين مل كثرة الخروج :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة * بعيدا من اسم الله والبركات (٢)

والإيمان عند الأزارقة من الخوارج لا يستقيم دون الجهاد ، ولذلك نرى شعراءهم يحضون القاعدين من الخوارج على الخروج ، وقد يلومونهم على خذلانهم إياهم ، ولا ريب فى أن أكبر صور الخذلان إنما تكون فى مجالسة الأمراء الذين يعدهم الخوارج أعداء لهم .

وقد كتب قطرى بن الفجـاءة قصيدة وبعث بها إلى « سميرة بن الجعد » أحد أصحابه حين استباح لنفسه أن يجالس الحجاج ، وعد هذا منه ضربا من

---

(١) شعر الخوارج : ١٤٦ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٠٢ . وكان أصحاب الشاعر كلما نووا الرحيل يقولون له : ارحلوا على اسم الله وبركاته .

الخذلان (١)

ولقطرى أبيات أخرى لام فيها من رأوا القعود وأبوا حمل السلاح .
فهذان بيتان كتب بهما إلى أبى خالد القنانى أحد القعدة ، يقول فيهما :

أبا خالد يا انفر فلست بخالد * وما جعل الرحمن عذرا لقاعد
أتزعم أن الخارجى على الهدى * وأنت مقيم بين لص وجاحد (٢)

وقد كتب إليه أبو خالد يقول (٣) :

لقد زاد الحياة إلى حبا * بناتى إنهن من الضعاف
أحاذر أن يرين الفقر بعدى * وأن يشربن رنقا بعد صاف
وأن يعرين إن كسى الجوارى * فتنبو العين عن كرم عجاف
ولولا ذاك قد سومت مهرى * وفى الرحمن للضعفاء كاف
أبانا من لنا إن غبت عنا * وصار الحى بعدك فى اختلاف

كذلك ذكر البهلول بن بشر الشيبانى المتخاذلين بأن الشجاعة فى الحرب لا تقدم ساعة للقضاء ، لأن الحذر لا يغنى أبدا من القدر .
يقــول (٤) :

---

(١) أنظر شعر الخوارج : ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٢٠ .
(٢) شعر الخوارج : ١٠٥ ، ١٠٦ .
(٣) الكامل للمبرد : ٣ / ١٦٧ . الرنق : الكدر . وعجاف : جمع عجفاء وهى الهزيلة التى ذهب سمنها .
(٤) شعر الخوارج : ٢٠١ .

فلا التقدم فى الهيجـاء يعجلنى . ولا الحذار ينجينى من الأجـل

فالشاعر يحبب القتال إلى الناس وينفرهم من الإحجـــام ، وهو يدير الكلام حول نفسه على سبيل الفخر بالفروسية والشجاعة .

٢ - قوة الإرادة والحـــزم

كان الخوارج قوما أولى بأس شديد ، ولا عجب فهم فى الغالب أعراب وقد تمكنت من قلوبهم عقيدة راسخة ، وسموا الشراة لأنهم باعوا أنفسهم فى سبيل المبدأ والعقيدة ؛ وصلابتهم تكاد تكون الفارق الوحيد بينهم وبين من عداهم من الفرق الأخرى ، وشعرهم وإن قصر عن تسجيل الأحـــداث التاريخية تسجيلا دقيقا ، إلا أنه لم يقصر فى تصوير إيمانهم بعقيدتهم ومبادئهم.

وحين نستعرض شعرهم نراه ينبع من أشخـاص يعتزون بكيانهم وبقوة شخصيتهم وعدم خضوعها إلا لمـا تمليه إرادتهم هم ، فخير لكل واحد منهم أن يموت شجاعا من أن يعيش ذليلا جبانا .

وهذه الصفات من الأمور التى تحمل كل فرد على تقدير الخوارج ، ولو أن الظروف قد هيأت لهؤلاء بسط إرادتهم لكان يرجىء منهم خير كثير ولكن أحداث العصر وتطوراته حولت هذه الفضائل إلى أسلحـــة يواجه الخوارج بها خصومهم ومناويئهم .

وينبغى أن نشير أن صفة الصلابة فى المحافظة على المبدأ لا يستدل عليهـا بالنسبة للخوارج بمثل هذه المعانى التى جادت بها أشعارهم فحسب ، لأن كل

موضوع يتحدثون عنه نلمس من خلاله أننا أمام عزائم صلبة وإرادة قوية متميزة ، وأن وراء هذه المعاني التي استظهرها الشعر شخصية ذات كيان وذات إرادة محسوسة .

وقد اهتم عبيد الله بن زياد بتفتيت وحدة الخوارج فأرسل عام ٦٠ من الهجرة جيشا إليهم بقيادة ابن حصن التميمي ، ودارت معركة بينه وبين أربعين رجلا من الخوارج في يوم «آسك» ، وقد قاتل الخوارج قتالا مجيدا على الرغم من قلة عددهم ، وحملوا — وعلى رأسهم أبو بلال مرداس الخارجي الشجاع — على جيش عبيد الله حملة رجل واحد حتى هزموه شر هزيمة .

وفي ذلك يقول عيسى بن فاتك (١) :

أألفا مؤمن فيما زعمتم * ويهزمهم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم * ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شك * على الفئة الكثيرة ينصرونا

فالشاعر يرجع انتصار الخوارج إلى قوة إيمانهم وإرادتهم الصلبة .. ولا شك فهم فرسان أقوياء العزيمة والإرادة ، وليس هناك من شيء يستطيع أن يثنيهم عن همتهم أو يخيفهم أو يملى عليهم شيئا ما ، وكيف يكون ذلك وهم حزب ثورى يعتصم بالتقوى ويقيم مبادئه على أسس إسلامية بحتة مستمدة من القرآن الكريم ومن السنة النبوية الشريفة .

---

(٤) شعر الخوارج : ٥٤ ، ٥٥ .

وقد سجل الشعر ماعند الخوارج من قوة الإرادة حتى وهم فى غياهب السجن . فقد سجن المغيرة بن شعبة بعضا من الخوارج الذين قاموا بحركات تمرد تستهدف الثأر لقتلى « النهروان » ، وكان من بين المسجونين « معاذ بن جوين » (١) وقد تسربت من داخل السجن أبيات له وجهها إلى إخوانه من الخوارج ، يحثهم فيها على القتال ، ويتمنى أن لو كان حرا حتى يتمكن من المشاركة فى هذا القتال .

يقـــول (٢) :

ألا أيها الشارون قد حان لامرىء • شرى نفسه لله أن يترحلا
أقمتم بدار الخاطئين جهالة • وكل امرىء منكم يصاد ليقتلا
فشدوا على القوم العداة فإنما • إقامتـــكم للذبح رأيا مضللا

---

(١) معاذ بن جوين الطائى ، هو ممن ارتث يوم النهر ، ثم ندم على خذلانه لعبد الله بن وهب الراسبى ، وخاض معركة النخيلة وسلم ، وعاش فى الكوفة أثناء ولاية المغيرة ، واتفق على الخروج مع حيان والمستورد وغيرهما ، ثم حبس ، ولما أخرجه المغيرة من الحبس أقنعه حيان بن ظبيان بالخروج فخرج فى ثلاثمائة ببانقيا ، وهى فى حـــد الكوفة ، فأرسل إليه المغيرة جيشا قتله وأصحابه (شعر الخوارج : ٤٥) .

(٢) شعر الخوارج : ٤٥ ، ٤٦ . القصيرى : أسفل الأضلاع . المحل : الذى يستحل قتاله أو الذى لاعهد له ولا حرمة . المشيح : الحذر أو الجاد فى الأمر . القسطل : الغبار الساطع .

ألا فاقصدوا ياقوم للغاية التى * إذا ذكرت كانت أبر وأعدلا
فياليتنى فيكم على ظهر سابح * شديد القصيرى دارعا غير أعزلا
ويا ليتنى فيكم أعادى عـــدوكم * فيسقينى كأس المنيـــة أولا
يعز على أن تخافوا وتطردوا * ولما أجرد فى المحلين منصلا
ولما يفرق جمعهم كل ماجد * إذا قلت قد ولى وأقبل أدبرا
مشيحا بنصل السيف فى حمس الوغى * يرى الصبر فى بعض المواطن أمثلا
وعز على أن تضاموا وتنقصوا * وأصبح ذا بث أسيرا مكبلا
ولو أننى فيكم وقد قصدوا لكم * أثرت إذن بين الفريقين قسطلا
فيارب جمع قد فللت وغارة * شهدت وقرن قد تركت مجدلا

ومن الصفات التى تعد أثرا من قوة الإرادة والحزم الجرأة والشجاعة ، فالإنسان الشجاع أقدر النـاس على ضبط نفسه فى المواقف العصيبة ، وهو دائما يتحكم فى إرادته ، ويكون ضابطا لجرأته وموجها لها .

وقد ارتبطت جرأة الخوارج بما أوتوا من قوة إرادة ، وأصبح نصيبهم فى جملتهم من الجرأة والشجاعة موفورا . ومن يستعرض أخبـــار حياتهم وتصوير شعرهم لها يرى أن هذه الحياة كانت تقوم على شجاعة لا يقوى عليهـا غيرهم ، ولا تطيقها نفوس غير نفوسهم .

وكون الخوارج شجعانا أمر لا يحتاج إلى توضيح وإثبات ، وإنمـا الذى يحتاج إلى توضيح إنما هو مظهر شجاعتهم ، أو طريقتهم فى استخدام هـــذه الشجاعة . وتتمثل شجاعتهم فى أنهم غير هيابين للموت لأنهم غير حريصين على

الحياة ، ولا يبالون قط بنتائج اللقاء ولو كان من بينها الموت ، وليس مبالغا أن نقول إنهم يسعون إلى الموت أكثر مما يسعى هو إليهم .

وهم على درجة بالغة من الشجاعة والاستبسال فى القتال والحرص على الموت ، ومع هذا كله فجماعتهم عصبة مثالية تمثل الحق ، وكان فرسانهم على شمائل فى الحرب تنم عن إنسانية متأصلة وتقاليد إيجابية تدل عـــلى أريحية ورجاحة بصيرة .

ولا غرابة فى شىء من هذا ، فالخوارج جماعة أقاموا مبادئهم عـلى أسس إسلامية صرفة مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، ومن أنماط السلوك الخلقى فى عهد الخلافة الإسلامية الأولى . يضاف إلى ذلك أنهم قوم نصبوا أنفسهم حـــماة للضعفاء والمضطهدين ، وحربا على المستبدين الظالمين ، وهم وإن تميزت طريقتهم فى تنفيذ هذه المهام بالعنف أحيانا ، فإنما ذلك انعكاس للاضطهاد الفظيع الذى لا قوه على أيدى السلطة الحاكمة .

وقد حرص فرسان الخوارج على الأخلاقية الكريمة أشد الحرص ، وقد تركت هذه الخاصية طابعا من الصدق العميق فى الشعر الخارجى عمـل عـلى خلق التشابه والتكرار فيه ، فكلهم بلا استثناء مثال للفارس الشجاع المؤمن بواجبه ، غير باخل بشجاعته فى سبيل ما آمن به .

وهناك عامل آخر زاد فى ثبات الخوارج وهو حب التضحية والرغبـة فى الاستشهاد وعدم الفرار من الميدان ، لأن عقوبته صارمة عند الله . ولذلك

كانت جيوشهم لا تقاوم مهما كان عدد أعدائهم وحماستهم ورغبتهم فى القتال والنصر ، لأن رغبة الخوارج فى النصر كانت أقوى من رغبة مناوئيهم ، ولأنهم كانوا يخافون من الفرار لما له من نتائج لا يرضون عنها ، ولذلك تميز من بين صفوفهم فتيان معلمون لم يخذلوا فى أى معركة ، وكانوا ينتدبون لكل كريهة ويتقدمون الصفوف يبيعون أنفسهم رخيصة فى سبيل الله .

والخوارج يحرصون على عدم الفرار مهما كانت النتائج ، وهم يعدون ذلك من دلائل الشجاعة والإباء .

من ذلك ما قاله قطرى بن الفجاءة لرفاقه (١) :

لا يركنن أحد إلى الإحجام * يوم الوغى متخوفا لحمام

ومن طريف ما قيل فى ذلك ما بعث به قطرى بن الفجاءة نفسه إلى أبى خالد القنانى أحد القعدة ، وإلى سميرة بن الجعد حين هما بالقعود وركنا لحياة الدعة والاستقرار ، وقد هال قطرى أن يند من أصحابه رجل ، وأن يقعد عن مشاركتهم فى حرب الحجاج وأصحابه ، فأرسل لهما شعرا يعاتبهما فيه ، وذمهما فيه على فعلهما ، كما عيرهما على بعدهما عن الميدان لأن ذلك دليل الجبن والخوف ، كما وصف فى هذا الشعر مجاهدته للفرسان وصبره وقوة إرادته وحزمه فى الحرب (٢) .

---

(١) شعر الخوارج : ١١٢ .

(٢) أنظر شعر الخوارج : ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٢٠ .

على أن هـذا العتاب قد أثر تأثيرا بالغا فى سميرة بن الجعد ، فلما بلغه كتاب قطرى وقرأه ركب فرسه وهجر الحجاج ، والتحق بالخوارج الأزارقة ، وقاتل معهم قتال الفرسان الذين يستهينون بالموت (١) .

ومن هـذا اللون ماقيل من أن بعضهم قد أنحى باللائمة على قطرى بن الفجاءة (٢) نفسه لكثرة تنقلاته أمام جيش المهلب بن أبى صفرة ، ولما سببه بذلك من خذلان فى صفوف الخوارج (٣) :

أيا قطرى بن الفجاءة أمالنا * من النصف شيء غير فعل الجبابر
أما تستحى يا ابن الفجاءة م التى * لبست بها عارا وأنت مهاجر
أفى كل يوم للمهلب أسلمت * له شفتاك الفم والقلب طائر
فحتى متى هذا الفرار حذاره * وأنت ولى والمهلب كافر

ومن هـذا القبيل ما قاله حبيب بن خدرة الهلالى (٤) متأثرا وغاضبا

---

(١) أنظر ما كتبه للحجاج من شعر فى هذا الشأن : شعر الخوارج : ١٢٢، ١٢٣.
(٢) اشتد الحصار مرة عـلى قطرى بن الفجاءة وبلغ أصحابه أنه يريد الهرب فقال له عامر بن عمرو السعدى : إن قاتلت قاتلت معك ، وإن هربت فأنا أبرأ إلى الله منك ، فأمر به فضربت عنقه ، فغضب ابن عمه حصين بن حفصة السعدى فقال أبياتا منها هـذه الأبيات المذكورة (شعر الخوارج : ١٠٣) .
(٣) شعر الخوارج : ١٠٣ ، ١٠٤.
(٤) من خطباء الخوارج وشعرائهم وعلمائهم (شعر الخوارج : ٢١٠) وانظر البيان والتبيين للجاحظ : ٣/ ٢٩٤ . نشر مكتبة الخانجى ط ٤.

لخذلانه لأنصاره .

يقول فى رثائه لملحان بن معروف وعبد الملك بن علقمة (١) :

إخوان صدق أرجيهم وأخذلهم * أشكو إلى الله خذلانى لأنصارى
فصرت صاحب دنيا لست أملكها * وصار صاحب جنات وأنهار

٣ - الافتخار بالشجاعة والفروسية

عاش الخوارج فى العصر الأموى وهم فى جهاد مستمر وكفاح طويل محافظة منهم على وجودهم وعلى مبادئهم . وقد اقتضى ذلك منهم صبرا عظيما وجلدا شديدا واحتمالا لما لا يطاق .

ولم يكن قتال الخوارج هينا ، فقد كانت عندهم عصبية شديدة لمذهبهم ، وكان فيهم زهد وعزوف عن الدنيا ، وقد ظهر من بينهم أبطال شجعان ضربوا المثل الأعلى فى التضحية والإيثار ، وتمثلت فيهم كل معانى البطولة والاستبسال .

وطبيعى أن يفخر شعراء الخوارج بأنفسهم ، ومع ذلك فهم لم يجعلوا من الفخر غرضا مقصودا لذاته . ولم يكن فخرهم فخرا ينطوى فيه الزهو ، وإنما يأتى فى كثير من الأحيان استنتاجا ، فشعرهم فى قوة الإرادة والحزم قد يبدو فى ظاهره فخرا ، ولكننا حين نتأمله نجده لا يحمل إلا شعورا بصراعهم فى الحياة .

---

(١) شعر الخوارج : ٢١١ .

ونخرهم لايخلو من كونه فى محيط الفروسية ، فهم يشيدون بالصفات التى يعتمدون عليها كقوة الإرادة والحزم ، والجرأة ، وبعض المعانى التى تخرج عن نطاق الفروسية نجدهم يقرنونها بصفات الفروسية .. ولا يخفى أن روح التنافس الذى ساد العصر قد خلق بينهم فى كل لحظة من لحظات اليوم أخلاق الفروسية ، وأذكى فيهم الشغف بالمبارزات .

ونخر الخوارج يختلف بصورة بينة عن غيره من أشعار الفخر ، فبينما نجد أشعار الفخر عند غيرهم تفيض مباهاة وزهوا وتهويلا فى فضائل النفس والاعتداد بها ، إذا بنا نجد نخر الخوارج يبعد عن التهويل والمبالغة ، ويكسى فى أكثر الأحيان بصبغة الصراع ، كأن يتحدث أحدهم عن القوة والاستبسال فيبدو وكأنه يفخر وإذا به يحول أنظارنا إلى أنه لا يريد نخرا وزهوا ، وإنما يريد أن يقول إنى قادر على تحدى الخصوم وغير مبال بالنتائج مهما تكن ، حتى ولو كان الموت من بين هذه النتائج .

ويمكن تعليل عدم نزوع الخوارج إلى التهويل والمبالغة بأن هذا تكملة لصفة قوة الإرادة والحزم ، تلك الصفة التى بدت فى تحملهم للصراع العنيف الذى يقاسونه فى حياتهم دون ضجر أو تذمر ، كذلك فإن عوامل الفخر لم تستطع أن تبعدهم عن الخط الذى رسموه لأنفسهم ، فهم أقوى من أن تقودهم عوامل الفخر إلى التهويل والمبالغة . كما أن الخارجى لا يفكر فى نفسه كثيرا قدر ما يفكر فى مذهبه ، فالفخر فى هذه الحالة يأتى عرضا دون أن يكون أصيلا فى نفس الشاعر .

وهذا متمثل عند الشاعر قطرى بن الفجاءة ، فارس الأزارقة وأميرها لمدة عشرين عاما ، وكانت شجاعته مضرب الأمثال ، ولا شك فهو رجل حرب يصبر على النوائب ، ولا ينهار أمام النوازل الكثيرة التى أحاطت به . وقد قيل : « ما استحيا شجاع أن يفر من عبد الله بن حازم السلمى وقطرى بن الفجاءة » (١) .

وإذا أنشد قطرى شعرا فإننا نجد ذاته هى محور شعره ، وهذا هو شأنه فى كل أشعاره . يقول فى يوم دولاب مخاطبا أم حكيم (٢) :

ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت * طعان فتى فى الحرب غير ذميم

ولا يلبث حتى يفخر بجماعة الخوارج فيقول :

فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا * تبيح من الكفار كل حريم

رأيت فتية باعوا الإله نفوسهم * بجنات عدن عنده ونعيم

وقطرى هذا مثال للفارس الشجاع المؤمن بواجبه ، غير باخل بنفسه فى سبيل ما آمن به ، وكان شعره لهيبا من البطولة ، تموج فيه المروءة والنخوة والإقدام . وكثيرا مابعث بقصائد له يقرع فيها أتباعه الذين تخلفوا عن الجهاد ، ويحثهم فيها على النفير الذى يراه واجبا مقدسا .

وفى مقطوعة أخرى نراه يحض رفاقه على الاقدام وطرح التردد والجبن

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة : ١ / ١٧٥ . دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٥ - ١٩٣٠ م .
(٢) شعر الخوارج : ١٠٦ ، ١٠٧ .

ويفخر بثباته حتى لكأنه دريئة للرماح التى تصوب إليه من كل ناحية ، ولا يبالى بالدماء التى تنحدر منه فتخضب سرجه وعنان فرسه . يقول (١) :

لا يركنن أحد إلى الإحجام * يوم الوغى متخوفا لحمام
فلقد أرانى للرماح دريئة * من عن يمينى مرة وأمامى
حتى خضبت بما تحدر من دمى * أكناف سرجى أو عنان لجامى
ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب * جذع البصيرة قارح الإقدام
متعرضا للموت أضرب معلما * بهم الحروب مشهر الأعلام
أدعو الكماة إلى النزول ولا أرى * نحر الكريم على القنا بحرام

ونراه فى حرب بينه وبين نفسه التى ملت الخروج وتزجية الصفوف وحضور المعارك والملاحم ، فيقف معها يقنعها بدليل من الإيمان وحساب الأعمار ، ويحاورها بالشعر ليدفعها إلى الثبات والصبر كى لا تقع فريسة سهلة للتخاذل والقعود .

يقول (٢) :

ومن لا يعتبط يسأم ويهرم * وتسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خير فى حياة * إذا ما عد من سقط المتاع

ويستحيل الفخر تحديا وتعاليا فى بيتيه (٣) :

---

(١) شعر الخوارج : ١١٢ . الإحجام : النكوص .
(٢) شعر الخوارج : ١٠٩ . يعتبط : يموت من غير علة . يسأم : يمل من الهرم .
(٣) شعر الخوارج : ١١٣ . اللعاف : سم ساعة .

ألا أيها الباغى البراز تقربن ❊ أساقك بالموت الذعاف المقشبا
فما فى تساقى الموت فى الحرب سبة ❊ على شاربيه فاسقنى منه واشربا

ومن طريف الافتخار بالشجاعة والفروسية ما قاله الطرماح بن حكيم فى وصف الشراة ، متمنيا أن يجاهد فى زمرتهم ، ويصبح لحمه غذاء للنسور وتذرو الرياح العاصفة أعظمه كالهشيم (١) :

أذا العرش إن حانت وفاتى فلا تكن ❊ على شرجع يعلى بخضر المطارف
ولكن أحن يومى سعيدا بعصبة ❊ يصابون فى فج من الأرض خائف
عصائب من شتى يؤلف بينهم ❊ هدى الله نزالون عند المواقف
فوارس من شيبان ألف بينهم ❊ تقى الله نزالون عند المواقف
فأقتل قعصا ثم يرمى بأعظمى ❊ كضغث الخلا بين الرياح العواصف
ويصبح لحمى بين طير مقيله ❊ دوين السماء فى نسور عوائف

وربما كان أجمل وصف لشجاعة الخوارج وثباتهم فى ميادين القتال ، ماقاله شاعرهم مرداس بن أدية فيهم (٢) :

---

(١) شعر الخوارج : ٢٣٨ . الشرجع : لسرير يحمل عليه الميت ، والمطارف : جمع مطرف وهو ثوب من الخز . عصائب : جماعات ، المواقف : معارك الحرب . قعصا : موتا سريعا ، الخلا : الرطب من الحشيش . والضغث : القبضة منه . والعوائف : الطير التى تحوم على الجثث وتريد الوقوع .

(٢) شعر الخوارج : ٥١ ، ٥٢ . طامية البحر : أى حين يرتفع موجه . الأثر : فرند السيف ورونقه .

فلسنا إذا جمت جموع عدونا * وجاءوا إلينا مثل طامية البحر
نكف إذا جاشت إلينا بحورهم * ولا بهـابيب نحيد عن البتر
ولـكننا نلق القنـا بنحورنا * وبالهام نلقى كل أبيض ذى أثر
إذا جشأت نفس الجبان وهللت * صبرنا ولو كان القيام على الجمر

والشجاعة تقتضى أن يكون الفارس ذا حيلة ، إذا جد الجد رأيته يعتمد على قوة ساعده ونفاذ بصيرته وحسن تأتيه للأمور. ولهذا فنحن نجد الخوارج لا يعيرون أصـالة الفارس أو حسبه أو تـكوينه الخلقى اهتماما ما ، ولـكنهم يهتمون كل الاهتمام بشجاعته وخوضـــه لغمرات الوغى وسط الأعادى ، واستمراره فى التقدم فى ساحة القتال متمنيا الشهادة مستميتا فى طلبها .

وقد تباهى عبيدة بن هلال اليشكرى بهذا المصير الذى آل إليه أحـــد فرسان الخوارج ، فقال (١) :

ومسوم للموت يركب ردعه * بين القواضب والقنا الخطار
يدنو وترفعـه الرماح كأنه * شلو تنشب فى مخالب ضـار
فثوى صريعا والرياح تنوشه * إن الشراة قصيرة الأعمار

ومن طريف وصف الخوارج بالشجاعة قول أحد شعرائهم (٢) :

وهم الأسود لدى العرين بسالة * ومن الخشوع كأنهم أحبـــار

(١) شعر الخوارج : ٩٢ ، ٩٣ . يركب ردعه : يسيل دمه فيقع عليـــه ويقال ركب ردعه إذا ردع فلم يرتدع . (٢) شعر الخوارج : ٢٣٣ . الجفون : الأغماد ، وهم يكسرونها كأنهم يطلبون الموت .

يمضون قد كسروا الجفون إلى الوغى * متبسمين وفيهم استبشار
فكأنما أعـــداؤهم أحبابهم * فرحا إذا خطر القنا الخطار
يردون حـــومات الحمام وإنها * تالله عنــد نفوسهم لصغار

هذا وقد أنصف الخوارج أعداءهم ، واعترفوا بقوتهم وجلدهم وصبرهم وإثخانهم فيهم ، وكانوا يمتدحون شجاعة قادة خصومهم العسكريين ، فلم يتصدوا إلى تكذيب شجاعتهم ورميهم بالجبن والعار كما هو الحال عند كثير من النـاس .

وكان من أمانة شعرائهم الفرسان أن يعترفوا لخصومهم بالسطو والبأس والنجـــدة والمروءة ، وأن ينصفوهم وهم يمدحون أنفسهم ، فلا يذموهم ولا يسلبوهم صفات الفروسية التي يعترفون لهم بها .. وهم يصدرون في هذا عما كمن في قلوبهم من جـــرأة وتحد وعما استخلصوه من تجاربهم من أن الحرب سجـال .

ولا يعد تمجيد شجاعة الأعداء لونا من الضعف يمكن أن نصف به الخوارج فلعل هذا المسلك منهم نوع من إذكاء الحماسة في قلوب الخوارج ، وسبيل لزرع الثقة في نفوس جنودهم ، فيلجأ الواحد منهم إلى الخطاب بلسان القائد الأمين الواعي لمسئولياته ، فيصف أخلاق الأعداء ويمدح أعمالهم ، ويضعهم مثلا أعلى يحتذى ، فيرسم بذلك لأصحابه طريق المستقبل الذي لا يتحقق النصر فيه بالآمال العريضة ، بل بالجهاد والصبر وتمني الاستشهاد .

ومن الأسماء التي تألقت في سماء التاريخ الإسلامي « المهلب بن أبي صفرة » فهو من القواد المحنكين والشجعان الأفذاذ . وقد نعته قطري بن الفجاءة بقوله : « فهو الليث المبر والثعلب الرواغ والبلاء المقيم » (١) .

وقد اشتهر المهلب بحروبه مع الخوارج ، بل إنه لم يكن أحد من قواد العرب المسلمين يستطيع الثبات للخوارج وإلحاق الأذى بهم وتذليلهم إلا المهلب ، فقد تتبعهم والتقى بهم في معركة تلو المعركة ، وأوقع بهم مرة بعد أخرى ، وهم يتربصون به الدوائر وهو لا ينفك يطلبهم ، حتى منيت الخوارج بانهزامات كثيرة على يده ، وألحقت جيوشه هزائم عديدة بصفوف قطري بن الفجاءة ، حتى أصبحت صورته لديهم مخيفة . وبلغ من دهشة الخوارج منه أنهم كانوا يسمونه « الساحر ، لأنهم كانوا يدبرون الأمر فيجدونه قد سبق إلى نقض تدبيرهم » (٢) .

وفي ثباته للخوارج وتأديبه إياهم يقول ابن عراوة (٣) :

وليس لها إلا المهلب إنه * ملىء بأخبار الحرب شيخ له شان
إذا قيل من يحمي العراقين أومأت * إليه معد بالأكف وقحطان
فذاك امرؤ إن يلقهم يطف نارهم * وليس لها إلا المهلب إنسان

---

(١) الخوارج في العصر الأموي د . نايف محمود معروف : ٢٩٩ . دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧ م .

(٢) الكامل للمبرد : ٣ / ٣٥١ .

(٣) الأخبار الطوال ، الدينوري : ٢٨٠ ، ٢٨١ . طبعة ليدن .

وقد هجم الخوارج مرة على المهلب وهو يخطب فى الناس خطبة العيد وكان على رأس الخوارج فى ذلك اليوم أحد فرسانهم وهو « عمرو القنا » فنزل المهلب من على المنبر وخف لقتالهم ، وظل الفريقان يتقاتلان اقتتالا شديدا ، وقد تتبع المهلب الخوارج فى كل مكان نزلوا به . وفى كل حصن يتحصنون به ، إلى أن كان يوم صمموا فيه على الاستشهاد بعد ما حمل عليهم المهلب .

وفى ذلك يقول قطرى بن الفجاءة (١) :

حتى متى تخطئنى الشهاده
والموت فى أعناقنا قلاده
ليس الفرار فى الوغى بعاده
يارب زدنى فى التقى عباده
وفى الحياة بعدها زهاده

فقطرى بن الفجاءة لم يجهل ما عليه المهلب ، مع أنه كان خصما لدودا له بل أثنى على شجاعته فى النزال ، وقد صرح بخوفه منه فقال يذكر ضعف خالد ابن عبد الله بن أسيد فى لقاء الأزارقة ويشير إلى تغير الحال حين تولى المهلب القيادة (٢) :

ألم يأتها أنى لعبت بخالد * وجاوزت حد اللعب لولا المهلب
وأنا أخذنا ماله وسلاحه * وسقنا له نيرانها تتلهب

(١) شعر الخوارج : ١١٥ ، ١١٦ .
(٢) المصدر نفسه : ١١٣ .

فلم يبق منـــه غير مهجة نفسه * وقد كان منه للموت شبرا وأقرب
ولكن منينـــا بالمهلب إنه * شجى قاتل فى داخل الحلق مشب

ولما تولى بشر بن مروان أمر العراق عزل المهلب عن حرب الخوارج مخالفا بذلك ما كان أمره به عبد الملك ، فاستخف قطرى بن الفجاءة بهذا القرار وكتب إلى بشر بن مروان يقول (١) :

ألا قل لبشر إن بشرا مصبح * بخيل كأمثال السراحين شزب
يقحمها عمرو القنا وعبيــدة * مفدى خلال النقع بالأم والأب
هنا لك لا تبكى عجوز على ابنها * فأبشر بجدع للأنوف موعب
ألم ترنا والله بالـــغ أمره * ومن غالب الأقدار بالشر يغلب
رجعنا إلى الأهواز والخيل عكف * على الخير ، ما لم ترمنا بالمهلب

وقال يرتجز (٢) :

إن شجانا فى الوغى المهلب
ذاك الذى سنانه مخضب

وليس معنى ذلك أن ابن الفجاءة كقائد كان يصبر على الإهانة ، ويقبل الضيم والمذلة ، والحقيقة أنه ثائر ، وكثيرا ما تكون ثورته إذا تعرض للاهانة ، فكيف يقبل الضيم وهو على درجة من الشجاعة تجعله لا يهاب المنايا ولا شك أن مثل هذا البطل الشجاع يقدر الرجال حـــق قدرها ، ولا يرى

(١) شعر الخوارج : ١١٤ . (٢) المصدر نفسه : ١١٤ .

حرجا إن أظهر ماعند المهلب بن أبى صفرة من صواب رأى وقدرة قتالية كذلك لا يرى حرجا من الاعتراف بهزيمته أمام هذا القائد الفذ الذى قهرهم ونفاهم عن مواقعهم بالأهواز .

هذا هو الرأى الصواب ، ويؤيد هذا الرأى أنه قد ورد فى تولية قطرى أن الخوارج أداروا أمرهم بينهم فأرادوا تولية عبيدة بن هلال اليشكرى فقال : « أدلكم على من هو خير منى ! من يطاعن فى قبل ويحمى فى دبر ، عليكم قطرى بن الفجاءة المازنى فبايعوه » (١) .

ومما يتصل بالشجاعة الوفاء بالوعد ، فهو فضيلة من فضائل الفرسان ، وهو شرط لامناص لهم منه ، لأنه نتيجة من نتائج القوة ومظهر من مظاهر الشجاعة لأن المرء إذا كان قويا أصبح لا يخاف ، وإذا كان شجاعا باسلا أصبح يتحمل مسئولية آرائه ويتولى الدفاع عنها . وكثيرا ما يحمل المرء الوفاء بعهده إلى معارضة مصالحه الخاصة ، لأن الفارس إذا أعطى وعدا فليس له أن يرجع فيه أو يحيد عنه ، بل إن قانون الفروسية يلزمه أن يمضى فى إنجازه حتى ولو عاد عليه بالضر ، وكان الفارس إذا وعد وعدا لعدوه المهزوم وفى له به ولا تغلبه من ثم شهوة النصر للتنكيل بالضعيف الأعزل ، لأن عدم الوفاء بالوعد كان يعد زراية بشجاعة الواحد منهم .

ومن الأمثلة الرائعة لوفاء فرسان الخوارج بالوعد ماقيل من أن عبيد الله بن زياد كلما أمر رجلا من الشرط بقتل رجل من الخوارج فتكوا – أى الخوارج –

(١) الكامل للمبرد : ٣ / ٣٤٧ .

بقاتله فقال : لأقتلن من في حبسي منهم ، وكان أبو بلال مرداس من بين المسجونين ، وكان السجان قد أخرجه إلى منزله كما كان يفعل (١) . وأتى مرداس الخبر - أي خبر يمين ابن زياد - فلما كان السحر تهيأ للرجوع ، فقال له أهله : اتق الله في نفسك : فإنك إن رجعت قتلت فقال : إني ما كنت لألقى الله غادرا فرجع إلى السجان فقال إني قد علمت ماعزم عليه صاحبك فقال : أعلمت ورجعت ! (٢) .

• • • •

هكذا كان الخوارج ... وكل ما يمكن ذكره من مثالب لهم في هذا الميدان أنهم - وقد جمعوا فضائل الشجاعة والورع والفضائل الدينية المطلقة ، والتفاني في الدفاع عن الإسلام ، وكانوا يبتغون في الدين المثل الأعلى والغاية السامية - لم يتسام بعضهم عن الإسفاف وسفك الدماء بغير حق ، فلقد سجل لهم التاريخ أنهم كانوا في مراحل تمردهم يعترضون عابر السبيل وقد يقتلونه شر قتلة ، كما سجل لهم فيما سجل أعمالا فظيعة تقشعر لها الأبدان ، وكانوا أبدا هائمين على وجه مذهبهم وغائية دينهم ، واتخذوا السيوف سبيلا إلى نشر فكرتهم وإهلاك أعدائهم حتى اتسم مذهبهم بالعنف .

يروي الأصفهاني فيقول (٣) : « إن نافع بن الأزرق لما تفرقت آراء الخوارج ومذاهبهم في أصول مقالتهم أقام بسوق الأهواز وأعمالها لا يعترض

---

(١) الكامل للمبرد : ٣ / ٣٤٨ . (٢) المصدر نفسه : ٣ / ٣٤٩ .

(٣) الأغاني : ٦ / ٢٢٢٢ . طبعة دار الشعب .

الناس ، وقد كان متشككا فى ذلك . فقالت له امرأته : إن كنت قد كفرت بعد إيمانك وشككت فيه ، فدع نحلتك ودعوتك ، وإن كنت قد خرجت من الكفر إلى الإيمان فاقتل الكفار حيث لقيتهم وأثخن فى النساء والصبيان كما قال نوح (لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) . فقبل قولها واستعرض النساء وبسط سيفه فقتل الرجال والنساء والولدان ، وجعل يقول : إن هؤلاء إذا كبروا كانوا مثل آبائهم ، وإذا وطىء بلدا فعل مثل هذا به إلى أن يجيبه أهله جميعا ويدخلوا ملته » .

وأرجح أن الخوارج جميعهم لم يكونوا على هذا المذهب من حيث اتخاذ السيوف سبيلا إلى نشر عقيدتهم ، ولكن بعضهم لا محالة قد تورط فى كثير من هذه المثالب ، وبعضهم الآخر رفض أن يجارى هؤلاء فيما يفعلون .. والمسألة نسبية على كل حال .

٤ - النزعة العصبية

يمكن القول أن النزعة العصبية (١) كانت عاملا من عوامل عديدة تضافرت وأنجبت حركة الخوارج ، وساعدت على استمرار وجودهم لسنوات طويلة بعد ظهورهم لكى يلعبوا دورا خطيرا فى حياة المسلمين طوال العصر الأموى .

والنزعة العصبية وإن كانت من أكثر الأغراض شيوعا فى العصر الجاهلى نتيجة للوضع الاجتماعى السائد ، إلا أن ترابط أفراد الخوارج وطغيان

(١) أنظر الخوارج فى العصر الأموى د . نايف معروف : ٢٠ وما بعدها .

شخصية الحزب على شخصية الأفراد فى جملتهم جعل شعر الخوارج لا تظهر فيه مثل هذه النزعة ، فلقد شاركوا حزبهم فى كل ظروفه وصراعاته مع الأحزاب الأخـــرى ، وكانت هـذه المشاركة هى المصدر الأساسى للفخر بالعصبية والاعتزاز بهـا .

ومن الإنصاف أن نقول إن هذا المقوم وتلك الظاهرة لم تنطبق عـــلى فرسان الخوارج جميعهم ، لأن قوة العقيدة التى تميز الخوارج لم تسمح لأى نزعة قبلية أو جنسية بالظهور إلا عند فئـــة قليلة منهم لم تستطع العقيدة أن تقضى على التعصب القبلى الذى كان فى نفوسهم . وهى فئة كانت كثرتها من الأعراب الذين لم يتغاضوا عن انتماءاتهم العصبية ، وقد مثل هذه الطائفة الشاعر الطرماح بن حكيم بالذات .

والطرماح وحده لا يكفى لأن يمثل الروح الخارجية تمثيلا صادقا ، لأن مثل هذا السلوك منه يبدو مخالفا لروح الخـــوارج ، فالعصبية القبلية أو الجنسية قد فنيت فناء تاما فى عقيدة الخوارج المذهبية ، فمذهبهم السياسى وحد بينهم وطبعهم بطابعه ، والمشهور عندهم أن الدين يسوى بين جميع المسلمين دون اعتداد بأية عصبية غير العصبية المذهبية . وليس أدل على ذلك من أن الشاعر الإباضى عمرو بن الحصين الفارسى الجنسية قد نسى فى سبيل مبدئه وعقيدته أصله الفارسى ، وخلا شعره تماما من كل روح فارسية .

وقد عاش الطرماح فترة كبيرة من حياته فى العراق وخراسان ، وشهد الخصومات القبلية التى استعرت بين تميم والأزد والتى جرت قيسا إلى الانضمام

لتميم ، وكانت الأحداث القبلية التى وقعت فى خراسان مادة للطرماح وكانت لها الصدارة فى نفسه ، فقد كان يستشعر عصبية شديدة لقبيلته بل لكل أخواتها من القبائل القحطانية وبخاصة الأزد قبيلة المهلب .

هذا وقد وجد الطرماح فى هذا الميدان مجالا رائعا لفخره إلى حد أن يمن على الأمويين لوصولهم إلى الخلافة على أكتاف بنى قومه .. وقد يتجاوز ذلك فيفخر بالقحطانيين من أهل يثرب لما قاموا به من نصرة للاسلام ولنبيه صلى الله عليه وسلم .

كما دفعته العصبية إلى أن يقذع تميما اقذاعا شديدا ، وأن يحقرها وأحلافها تحقيرا بالغا . ويصفها بالجبن والضعة والخيانة ، وقد جره هذا إلى صدام شديد مع الفرزدق شاعر تميم وعدوة الأزد القحطانية .

يضاف إلى ماسبق أن الطرماح لديه اعظام شديد لنفسه ، لدرجـــة أنه لا يرى نفسا جديرة بالمدح غير نفسه . مما أبان عن تمكن الشعور القبلى من نفسه ، حتى ليكاد يكون شاعرا جاهليا فى عصبيته .

ومن صور اعتداده بقومه من طيء وقحطان وما لهم من دور فى دعم الإسلام وتثبيت أركانه تلك الأبيات التى قالها بمناسبة بعض الأحداث القبلية كمقتل قتيبة بن مسلم الباهلى الذى كانت الأزد سببا فى مقتله .

يقـــول (١) :

(١) تاريخ الطبرى : ٦/٥٢٠ ، ٥٢١ . تحقيق أبو الفضل . دار المعارف ط ٢ .

لولا فوارس مذحج ابنة مذحج * والأزد زعزع واستبيح العسكر
وتقطعت بهم البلاد ولم يؤب * منهم إلى أهل العراق مخبر
واستضلعت عقد الجماعة وازدرى * أمر الخليفة واستحل المنكر
قوم هم قتلوا قتيبة عنوة * والخيل جانحة عليها العثير
فبعزنا نصر النبي محمد * وبنا تثبت فى دمشق المنبر

وإذا تجاوزنا الطرماح بن حكيم الذى كان مفرطا فى عصبيته وجدنا الخوارج بصفة عامة لم يتخلوا عن عصبيتهم المضادة لقريش ، فليس فيهم أحد من قريش ، بل كانوا عربا خلصا من بدو الصحراء ومواليهم من قبائل ربيعة مثل تميم وبكر ومن القبائل اليمنية مثل الأزد وهمدان ، ولعل السبب فى قيام مذهب الخوارج على سيوف ربيعة والقبائل اليمنية أن عليا بن أبى طالب ومعاوية مضريان (١) .

ولعل أصدق برهان على تعصب الخوارج ضد قريش أنهم ظلوا لفترة طويلة من تاريخ وجودهم يحملون لواء التمرد على قريش وقيادتها وقد ظهر هذا بوضوح حين تمكن أبو حمزة الخارجى من هزيمة أهل المدينة فى موقعة « قديد » عام ١٣٠ هـ فقد وجدناه يخلى سبيل الأنصار من الأسرى ، أما من كان من قريش منهم فإنه يقوم بقتله (٢) .

(١) أدب السياسة فى العصر الأموى د . أحمد الحوفى : ٨٧ .
(٢) الخوارج فى العصر الأموى د. نايف معروف : ٢٨ .

وفى مرحلة متقدمة من العصر الأموى نلمح وجها آخر للعصبية عند زعيم الأزارقة قطرى بن الفجاءة .

يقول فى يوم دولاب (١) :

ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت * طعان فتى فى الحرب غير ذميم
غداة طفت على الماء بكر بن وائل * وألافها من حمـــير وسليم
ومال الحجـــازيون نحو بلادهم * وعجنا صدور الخيل نحو تميم
وكان لعبد القيس أول جدهـــا * وولت شيوخ الأزد فهى تعوم

كما نلمح وجها آخـــــر لهذه العصبية فى ذلك الاعظام الشديد الذى أظهره الشـــاعر شبيل بن عزرة (٢) عـلى قريش حين يذكر أن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى العراق وسليمان بن هشام بن عبد الملك قد صليـــا خلف الضحاك بن قيس مما يسجل نصرا لبكر على قريش .

يقـــول (٣) :

ألم تر أن الله أزل نصره * وصلت قريش خلف بكر بن وائل

كذلك نجد شاعرا آخر وهو عتبان بن أصيلة الشيبانى (٤) يكشف عن نزعته العصبية ، ويظهر عداوة الخوارج المستمرة لقريش .

يقول مخاطبا عبد الملك بن مروان ويتهدده (٥) :

---

(١) شعر الخوارج : ١٠٦ ، ١٠٧ . (٢) أنظر ترجمته فى شعر الخوارج : ٢٠٨ .
(٣) شعر الخوارج : ٢٠٨ . (٤) أنظر ترجمته فى شعر الخوارج : ١٨٢ .
(٥) المصدر نفسه : ١٨٢ .

فإنك إلا ترضى ابكر بن وائل * يكن لك يوم بالعراق عصيب
فلا ضير إن كانت قريش عدا لنا * يصيبون منا مرة ونصيب

وهكذا كما كان للعصبية أثر فى كثير مما وقع من أحداث فى العصرين الجاهلى وصدر الإسلام ، كان لها كذلك أثر مماثل فى استمرار وجود الخوارج لسنوات طويلة بعد ظهورهم . ولا شك أن طبيعة العصر كانت توجج هذه العصبية ، لأن خلفاء بنى أمية قد أثاروها بين اليمنية والقيسية وبين الشعراء وقبائلهم ، فانتقلت العدوى إلى الخوارج ، وهى عدوى طارئة لم تكن ذات جذور بعيدة ، لأن الإسلام فى صميمه ينكرها كل الإنكار .

٥ – العناية بالجواد

ليس للخارجى من هم سوى الدفاع عن عقيدته والجهاد فى سبيلها ، وإذا كان له من حاجة فى دنياه فليس إلا لآلة الحرب التى يمكنه أن يؤدى بها واجبه ويصل بواسطتها إلى غايته .

وللخيل دور كبير فى إحراز النصر وتحقيق الظفر ، وسرعة الوصول إلى أرض القتال أو القفول منها . ولخطورة هذا الدور الذى تلعبه الخيل فى حياة الخوارج الحربية جعلها تحظى بنصيب وافر من اهتمام فرسانهم وأولاها شعراؤهم جل عنايتهم ، وتحدثوا عن قوتها ونشاطها ، وذكروا احتمالها للحروب والمشاق ، وإن لم يبلغوا فى ذلك ما بلغه غيرهم .

ومن مظاهر عناية الخوارج بالخيل واهتمامهم بها ، أن أحد شعرائهم

وهو عطية بن سمرة الليثى (١) أكد أنه لاغنى له عن فرسه ، فهو وأدوات حربه عموماً ومنها فرسه شيئان متلازمان لا ينفصلان .

يقـول (٢) :

وحسبى من الدنيا دلاص حصينة * ومغفرها يوما وصدر قناة
وأجرد محبوك السراة مقلص * شديد أعاليـه وعشر شراة
فأبلغ منه حاجتى وبصيرتى * وأشفى نفسى من ولاة طغاة

ومثله قول عمرو القنا (٣) :

لاخير فى الدنيا لمن لم يكن له * من الله فى دار القرار نصيب
فحسبى من الدنيا دلاص حصينة * وأجرد خوار العنـان نجيب
أجاهد أعـدائى إذا ما تتابعوا * وأدعى بإسمى للهدى فأجيب
معى كل أواه برى الصوم جسمه * ففى الجسم منـه نهكة وشحوب

وقد بالغوا فى إكرامها والاعتزاز بها . وليس أدل عـلى ذلك من الذى دار بين الأعرج المعنى وزوجته من عتاب بسبب عنايته بجواده ، واهتمامه به اهتماما جعله يفضله فى أوقات الشدة على زوجته .

---

(١) من أصحاب نجدة الخارجى .

(٢) شعر الخوارج : ٦٧ . الدلاص: الدرع اللينة البراقة الملساء ، والمغفر: زرد ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة . محبوك : مدمج الخلق السراة : الظهر .

(٣) شعر الخوارج : ٨٨ ، ٨٩ .

يقـــول (١) :

أرى أم سهل ما تزال تفجع * تلوم وما أدرى علام توجع

تلوم على أن أمنح الورد لقحة * وما تستوى والورد ساعة نفزع

إذا هى قامت حاسرا مشمعلة * نخيب الفؤاد رأسها مايقنع

وقمت إليه باللجـــام ميسرا * هنا لك يجزينى بما كنت أصنع

(١) شعر الخوارج : ٢٤٣ .

الفصـــل الرابع

بواعث الفروسية عند الخوارج

تمهيد عن بواعث الفروسية فى الجاهلية وصدر الإسلام

- ١ -

نشأت الفروسية عند العرب نشأة طبيعية ، فظروف البيئة فرضت عليهم تقاليد خاصة ، وصارت لهم على مر السنين طبيعة وجبلة لا يستطيعون عنها حولا .

(٢)

وقد لعب الصراع القبلى دورا بارزا فى حياة الناس قبل الإسلام ، فقد كان لكل قبيلة أو مجموعة من القبائل كيان خاص بها فى إطاره يعيشون وعن حماه يذودون . وقد عرف العربى فى الجاهلية باعتزازه بقبيلته وتطرفه فى الدفاع عن عشيرته ، وكثيرا ما كانت رحى الحرب الطويلة تدور وتنشب بين القبائل بسبب من هذه العصبية ، ولعل « حرب البسوس » التى دارت بين بكر وتغلب وحرب « داحس والغبراء » التى دارت بين عبس وذبيان أصدق مثال على ذلك .

وقد أكسبتهم حياة الجاهلية روح التعصب حتى طبعوا على هذه الروح وطغت روح العصبية هذه حتى شملت الجزيرة كلها ، واستوعبت كل الأجيال التى وصلنا تاريخها من الجاهلية .

والذى لاشك فيه أن هذه الروح وما تستتبعه من صراع ومن غزو أو إغارة كانت لها أهدافها غير المباشرة ، وهذه الأهداف والنتائج أهم وأعمق من الأهداف المباشرة سواء أكانت هذه الأهداف انتقاما وقصاصا أم كانت طمعا ورغبة أم كانت إرهابا وتهديدا .

وهذه العصبية التى تبدو فى نظرنا انحرافا فى السلوك الاجتماعى لم تكن فى نظر العربى كذلك ، وإنما كانت مظهرا من مظاهر القوة والمنعة ، كما كانت ميدانا خصبا للتنافس ، ولذلك كثيرا ما كان الناشئة الصغار يشهدون أيام العرب المشهورة لا ليكونوا قوة بجانب قبائلهم فحسب ، ولكن ليتمرسوا بالحياة وليتدربوا على القتال وفنونه ، وليكتسبوا القوة والمنعة اللتين هما غاية كل قبيلة فى أبنائها ، فتعلو من ثم همتهم ، ويخطون فى سبيل الشرف والسيادة خطوات بعيدة .

(ب)

ولم يدع النضال من أجل الحيـــاة مكانا كما ساد بلاد العرب ، حتى صار النضال صناعة العربى الوحيدة ، وقد عاش البدوى فى الصحراء وهو فى جهاد مستمر وكفاح مرير محافظة منه على حياته ، وقد دفعه هذا النضال إلى إعداد العدة حتى أصبح لا يرى له من حارس إلا سيفه ورمحه ، وليس له من حمى إلا ظهر خيله وشجاعة قلبه وعظمة نفسه ، كذلك دفعه هذا النضال إلى أن يكون أهلا لما يقتنى من أسلحة ، وأخذ يحس بقوته ويشتد إحساسه بها .

وقد اكتسب العربى من هذه الحياة صفات كثيرة ، وكان على رأسها

الصبر والجلد والكفاح ، حتى صار كما يقول تأبط شرا (١) .

قليـــل التشكى للهم يصيبه * كثير الهوى شتى النوى والمسالك
يظل بموماة ويمسى بغيرها * جحيشا ويعرورى ظهور المهالك
ويجعل عينيه ربيئـــة قلبه * إلى سلة من حد أخلق باتك

كذلك انعكست ظروف هذه البيئة القاسية الخشنة على نفس العربى قوة وصرامة وجلدا ، ولذلك عظمت قوى الكفاح فى نفسه كما عظمت مؤهلات هذه القوى ، حتى صار من أصح الناس ، ومن أوفرهم قوة وأكثرهم احتمالا لما لا يطاق من الشدائد والمشقات ، وصار يفرح بالخطوب والشدائد لما فيها من امتحان لشجاعته ومن بلاء لمقدرته .

وظروف الصحراء تجعل النزاع بسبب الماء والمرعى على أشده ، فكان حرص العربى على الماء يدفعه هو وقومه إلى الغارة على جيرانهم الذين أوتوا فضلا من خير أو مرعى . . ولذلك شهدت بلاد العرب حـــروبا متواصلة وكانت هذه الحروب مع كثرتها تنشب لأتفه الأسباب وأقل البواعث :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم * طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم * فى النائبات على ماقال برهانا (٢)

بل إن العرب كانوا لا يبالون إن كانوا على حـــق أو على باطل . وكل

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى : ١ / ٩٤ - ٩٧ .
(٢) العقد الفريد : ٣ / ١٦ . الطبعة الثالثة ١٣٩١ هـ ١٩٧١ م .

ما كانوا يحسبون حسابه هو القوة والبأس ، فالقوى عندهم هو الذى يحذرون جانبه ، لأن كل شيء فى حياتهم كان معرضا لأن يروح ضحية هجوم خاطف .

يقول زهير بن أبى سلمى (١) :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه * يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

وكان لهذه الحياة - بحروبها الكثيرة المتواصلة - أثر كبير فى إبراز دور البطولة والأبطال ، وفى إظهار دور الفروسية والفرسان . ففى الحروب مران على أعمال الفروسية وإظهار لمزايا الفرسان وحسن بلائهم ، لدرجة أنهم كانوا يفرحون بكثرة الحروب وتعددها لما فيها من امتحان لفروسيتهم وشجاعتهم وبلاء لمقدرتهم على مقارعة الحوادث والخطوب . هذا إذا أضفنا أنهم كانوا يبغون من اقتحام الشدائد المجد والصيت والعيش فى عزة وكرامة .

وكان للحروب المتواصلة بين القبائل أثر كبير فى اعتزاز كل قبيلة بفرسانها الذين يملكون وحدهم رد الاعتداءات الموجهة إليها . وقد فرضت هذه الظروف أن تكون للفارس منزلة عظيمة لما له من شأن ، فهو يعد نسيج وحده فى قبيلته ، وهو حصنها الحصين ، وملجؤها فى الخطوب والملمات ، وكثيرا ما يعمل على نشر ذكرها ورفع شأنها .

يقول عنترة العبسى (٢) :

---

(١) شرح المعلقات السبع للزوزنى : ٩٤ .

(٢) المصدر السابق : ١٥٩ ، ١٦٠ .

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك * إن كنت جاهلة بما لم تعلمى
إذ لا أزال على رحالة سابح * نهد تعاوره الكماة مكلم
يخبرك من شهد الوقيعة أننى * أغشى الوغى وأعف عند المغنم
ومدجج كره الكماة نزاله * لا ممعن هربا ولا مستسلم

ويمكن أن يضاف إلى ذلك تلك العادة القديمة التى انتشرت فى الجاهلية والتى كثيرا ما تتولد بعد الحروب والمعامع - ألا وهى عادة الأخذ بالثأر فكل قبيلة ترى لزاما عليها أن تأخذ بالثأر لكل من قتل من أفرادها ، وكانت هذه العادة بمثابة العقيدة عندهم حتى لا يذلوا أو يهانوا ويتخطفهم الناس من حولهم ، كما أنها تمثل من ناحية أخرى اعتداد القبيلة بقوتها وبلائها وثقتها بالنصر .

(جـ)

ولم تكن البيئة العربية وحدها هى التى أكسبت العرب فى الجاهلية صفات الفروسية ، ولكن هذه الحياة التى ضمتهم ، وتلك الصحراء التى عاشوا تحت سمائها فرضت عليهم جميعا أن يخففوا من الأخطار المحدقة بهم ، فتعاهدوا فيما بينهم على فضائل يتحلون بها كالوفاء بالوعد ، وحماية الضعيف ، وإغاثة اللهفان ، والكرم ، وما إلى ذلك من الصفات التى ترقى بالإنسان إلى أفق سام من آفاق الإنسانية .

وقد جبل العرب على حب الفرسان ، وكان الرأى العام يمتدح الفارس الشجاع الذى يضحى بمصلحته فى سبيل مصلحة الجماعة ، كما كان يمتدح

الشخصيات البارزة التي تغيث الملهوف ، وتنصر المظلوم ، وتفي بالوعد وتتسم بقوة الاحتمال ، وبالأخلاق الحميدة التي تنم عن إنسانية متأصلة وبالمثل كانوا يهزءون بالنذل الجبان الذي فسدت نفسه وتبلد حسه .

ولما كان للرأي العام سلطان قوي يتأثر به الفرد والجماعة ، كان له فعل السحر في دفع العرب لأن يكونوا نماذج خيالية في الفروسية والشجاعة ولعل هذا هو السبب المباشر الذي دفع الأمهات إلى تعهد أبنائهن (١) وتنشئتهن على صفات المجد وطلب السؤدد والشرف واحتذاء الأبطال ، وتسنم ذروة المجد . . ولا شك أن هذه الحياة التي تشربتها نفوس العرب في الحداثة هي التي خلقت منهم شخصيات بارزة عظيمة .

(د)

ويمكن أن يضاف إلى ذلك صفة أخرى وهي حب العربي للخيل ، فقد كان لهذا الحب فضل كبير في تنشئة العربي وأقرانه طلاب مجد ونماذج عالية في الفروسية . ومن يتتبع أخبار العرب يدرك أنه ليس هناك من أمة تعنى بالخيل وتحرص عليها عناية العرب بها . . ولهذا فلم تكن العرب تعد المال في الجاهلية إلا الخيل والإبل ، وكان للخيل عندها مزية على الإبل ، فلم تكن تعدل بها غيرها ، ولا ترى القوة والعز والمنعة بسواها ، (٢) .

---

(١) أنظر الفتوة عند العرب ، عمر الدسوقي : ٣٧ - ٣٩ .

(٢) حلية الفرسان وشعار الشجعان للأندلسي ، تحقيق محمد عبد الغني حسن ص ٤٣ ، دار المعارف بمصر .

ولم تكن أمة أشد عجبا بالخيل من العرب . يقول الجاحظ : « لم تكن أمة قط أشد عجبا بالخيل ولا أعلم بها من العرب ، ولذلك أضيفت إليهم بكل لسان ونسبت إليهم بكل مكان ، فقالوا فرس عربي ولم يقولوا هندي ولا رومي ولا فارسي » (١) .

وقد أدرك العربي مايكتنفه وقبيلته من أخطار تهدده في كل حين ، وهو يدرك قيمة الخيل في هذه المخاطر ، ولهذا اعتز بها وعرف لها منزلتها واتخذها صديقا ، وعدها العرب بمثابة أولادهم ، فعنوا بتربيتها وتهذيبها حتى يحصلوا على أقصى مايمكن من مزاياها . . ولا شك أن الحروب التي نشبت بينهم قد تطلبت منهم أن يعنوا عناية خاصة بأدوات الحرب والقتال ، وكان أول هذه الأدوات بعد الفارس نفسه جواد أصيل يعرف كيف يكون ثابتا وسط الميدان وجلبة الجيوش (٢) .

هكذا اعتزت كل قبيلة بالفرس اعتزازها بالفارس ، ولا عجب فهو وسيلتها الرئيسية في الحروب ، وهو من أطوع الأسلحة ، وبفضله يستطيع العربي أن يذود عن أهله وعن حريته ، وأن ينطلق متعقبا عدوه ، هذا إلى مايؤديه من خدمات جليلة يعجز دون أدائها سواه . فكانوا يطلبون بها الثأر وينالون بها المغانم .

وهذا هو السبب في أن العرب كان يهنيء بعضهم بعضا إذا ولدت فرس

---

(١) محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني : ٢ / ٦٣٦ . بيروت .

(٢) أنظر تقاليد الفروسية عند العرب ، واصف بطرس غالي ترجمة د . أنور لوقا ، تحقيق حسن النجار : ١٧٩ وما بعدها دار المعارف ١٩٦٠ .

ويحتفلون بمقدم المهر المولود احتفالا يدل على عظيم مكانتها فى قلوبهم ، حتى قيل : « كانت العرب لاتهنىء إلا بثلاث : إذا ولد للرجل ذكر قيل له ليهنك الفارس ، وإذا نبغ فى الحى شاعر قيل له ليهنك من يذب عن عرضك ، وإذا نتج مهر قيل له ليهنك ما تطلب عليه الثأر » (١) .

وعلى هذا الأساس من الاشتراك المتكافىء بين الفرس وفارسه قالت الخنساء فى رثاء أخيها صخر (٢) .

يالهف نفسى على صخر إذا ركبت * خيل لخيل كأمثال اليعافير

ومن مظاهر عناية العرب بالخيل أن كل شعرائهم قد أولوها جل عنايتهم وفائق اهتمامهم ، على أن عددا لا بأس به من الشعراء قد تخصصوا فى وصف الخيل ، وقد ذكر الأصمعى أن ثلاثة من العرب لا يقاربهم أحد فى وصف الخيل وهم « أبو دؤاد الإيادى فى الجاهلية والطفيل الغنوى والنابغة الجعدى » (٣) .

. . . .

— ٢ —

وحين جاء الإسلام بدأ على الفور يرفض الفروسية الجاهلية التى كانت

---

(١) شعراء العرب الفرسان فى الجاهلية وصدر الإسلام د. محمود حسن أبو ناجى: ص ٢٨ ، مؤسسة علوم القرآن ، ط أولى ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ .

(٢) أشعار الشعراء الستة الجاهليين ، الأعلم الشنتمرى : ١١٨ ، دار الآفاق ، بيروت .

(٣) الشعر والشعراء : ١/ ٢٤٤ ، الطبعة الثالثة ١٩٧٧م.

تهدف إلى المجد الفردى أو القبلى (١)، وأخذ ينظم هذه القوى المعنوية التى سادت عند العرب ويوجهها إلى وجهات أسمى وأشرف، ويسبغ عليها من هديه، ليكون المجتمع مستندا على دعامة قوية من التشريع، تحمى الحق وتجعل كلمة الله هى العليا. يقول تعالى: «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» (٢).

وقد تطلبت الدعوة إلى الإسلام جهاداً طويلا، وكان الجهاد فى الإسلام يقوم على الحجة تارة وعلى القوة المؤمنة تارة أخـــرى. فاستعمال القوة فى الإسلام لم يكن للعنف ولا للانتقام، بل كان لنشر الدين والدفاع عنه وكف أذى المعاندين الكافرين.

وقد اقتضى الجهاد أن يكون المسلمون المجاهدون على قوة وشجاعة لا تقل شيئا عن قوة وشجاعة الفرسان.. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يكون المسلمون أقوياء يدافعون عن الإسلام بعزيمة المجاهدين الأبرار، وقوة وثبات الفرسان الأوائل من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم.

كذلك استعان الإسلام بالفضائل العربية وبالأصول الأخلاقية، واعتمد عليها فى نشر مبادئه فالتى من ثم التعصب القبلى، وحل محله حماية الدين

---

(١) أنظر الأدب العربى بين البادية والحضر د. ابراهيم عوضين: ١٦٨-١٧٤. مطبعة السعادة، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ ١٩٨١م.

(٢) سورة آل عمران: آية ١٣٩.

والعقيدة ، حتى أصبح ذلك حافزا شريفا لكل جهاد فى الإسلام . ولولا ما كان عليه الإسلام من تنظيم لحال المسلمين لما برز هؤلاء الفرسان العظام الذين بهروا العالم بالأمثلة التى ضربوها على غير مثال سبق .

وعلى الرغم مما أوذى به الرسول فى سبيل دعوته ، وما لاقاه من شدائد ينوء بحملها أشد الناس قوة وبأسا ، فإن ماعنده من صفات أخلاقية كان يضرب بها المثل . وصدق الله العظيم : « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » (١) .

وحين فتح الرسول صلى الله عليه وسلم مكة لم يزد على أن عفا وصفح وقال لأهلها : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

وجملة القول أن أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم اتجهت بخلال الفروسية العربية إلى وجهة أعم وأكثر رحابة فى مجال الإنسانية . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد اهتم الرسول صلى الله عليه وسلم بالرياضة البدنية التى يقوى بها الجسد ويشتد .

وثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد صارع ركانة بن عبد يزيد وصرعه حتى أعلن إسلامه » (٢) . وقد سابق بين الخيل ، كما سابق بين الإبل (٣) ، واهتم برياضة الرمى فحث المسلمين عليها وشجع على إجادتها .

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٥٩ .

(٢) الفروسية لابن القيم : ٦ . دار التراث العربى للطباعة والنشر .

(٣) المصدر نفسه : ٦ ، ٧ .

ففى صحيح مسلم عن عقبة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى » (١) .

هذا فضلا عما كان لدى النبى صلى الله عليه وسلم من شجاعة كانت تجعله يتقدم الصفوف ، وموقفه يوم غزوة أحد وسط قلة ضئيلة من أصحابه وهو يقول : « أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب » . . دليل قوى على شجاعته فلولا هذه الشجاعة التى أظهرها الرسول لما ثبت كثير من الناس ولأصاب الوهن نفوس المسلمين .

كذلك كان صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد أصبحوا قدوة فى الفروسية حتى صار الواحد منهم يعدل جيلا بأكمله فى رجاحة عقله ونفاذ بصيرته وحنكته السياسية .. ثم هم أحرى الناس بالاستبسال فى القتال وطلب الاستشهاد ، لأن ماعندهم من قوة ايمان كان يدفعهم لأن يكونوا فى كل موقع سلما كان أو حربا القبس الذى يهدى والقدوة التى تحتذى .

وهم حفظة القرآن ، وكثيرا ما كانوا يحمسون الجيوش بتلاوتهم لآياته إذا ما اشتد اللقاء وحمى الوطيس . ومما زادهم بأسا وصرامة وحرصا على الموت ماوعدهم به الله تعالى من الثواب العظيم إذا لقوه وهم فى ساحة القتال . قال تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » (٢) .

---

(١) الفروسية لابن القيم : ١٤ .   (٢) سورة آل عمران : آيه ١٦٩ .

وكانوا على درجة عالية من الشجاعة جعلتهم يستميتون فى الدفاع عن النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، حيث كان النبل يقع فى ظهورهم ، وهم يحوطون رسول الله ويحمونه ، ولم تزلزل لأحد منهم قدم ، أو يفر تاركا الرسول .. إنها شجاعة منبعثة عن عقيدة يضحى فيها الصحابة بكل شىء فى سبيل إعزاز الدين والحفاظ على نبيه الكريم .

وعلى رأس هؤلاء الفرسان الذين ذاعت شجاعتهم الخليفة الأول أبو بكر الصديق ، بما له من مواقف رائعة ، فقد تمسك بتسيير جيش أسامة الذى كان قد جهزه الرسول صلى الله عليه وسلم على الرغم من تردد كبار الصحابة فى تسييره ، وخطب فيه خطبته المشهورة وجمع فيها الخلال البر والرحمة (١) .

ومنهم أيضا الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ، فقد كان خبيرا بأمور الفروسية ، ولذلك نراه يفطن إلى الأخطار التى حدقت بالمسلمين بعد مخالطتهم بأمم البلاد المفتوحة ، فينصح الجيش بنصيحته المشهورة على ما رواه على بن الجعد عن أبى عثمان النهدى قال : « أتانا كتاب من عمر بن الخطاب ونحن بأذربيجان أما بعد : فاتزروا ، وارتدوا ، وانتعلوا ، وألقوا الخفاف ، وألقوا السراويلات ، وعليكم بثياب أبيكم اسماعيل ، وإياكم والتنعم وزى العجم وعليكم بالشمس فإنها حمام العرب ، وتمعددوا ، واخشوشنوا ، واخلولقوا واقطعوا الركب ، وانزوا على الخيل نزوا وارتموا الأغراض » (٣) .

---

(١) أنظر تاريخ الطبرى ، تحقيق محمد أبو الفضل : ٢ / ٢٤٩ . دار المعارف الطبعة الثالثة .
(٢) الفروسية لابن القيم : ٦٥ .

فعمر رضى الله عنه يأمرهم بالاتزار والارتداء والانتعال والقاء الخفاف كما ينهاهم عن التنعم حتى لا يدب الفساد إلى أجسادهم ونفوسهم ، ويستكينوا للدعة والترف فيحيق بهم الخذلان والكسل ولا يمكنهم أداء الرسالة التى انتدبوا إليها .

وقد أمرهم أن يتمعددوا أى يلزموا عادة جدهم معد بن عدنان حتى لا تضيع فروسيتهم ، كما أمرهم أن يخلولقوا أى يستعدوا لما يراد منهم . . وغير ذلك من النصائح التى تعد تربية لأخلاق الفروسية . وقد أثمرت هذه النصائح الثمرة المرجوة منها فغدت زادا للجنود ، فازدادت قوتهم وجرأتهم على أعدائهم ، وأخذوا ينشرون دين الله تعالى دون توقف أو خوف .

كذلك كان على بن أبى طالب فى كل موطن وفى كل غزوة من غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان أول من يتقدم الصفوف يبيع نفسه رخيصة فى سبيل الله ، وكان ينتدب لكل كريهة ، كما كان قويا شديدا خبيرا بفنون القتال ، تمتلىء جوانحه شجاعة وإيمانا ، حتى إنه لم يخذل فى أى معركة دخلها .

ومن هؤلاء الفرسان خالد بن الوليد ، فقد كان سيفا مشرعا من سيوف الله ، وقد كتب له النصر أينما سل سيفه فى سبيل الله . وعن شجاعته وفروسيته يروى البخارى عن قيس بن أبى حازم عن خالد بن أبى حازم عن خالد بن الوليد قال : « لقد اندق فى يدى يوم مؤتة

تسعة أسياف فما صبرت معى إلا صحيفة يمانية » (١) .

. . . .

إننا نقول فى غير تعصب إن العرب المسلمين كانوا مثلا أعلى فى فتوحاتهم العظيمة التى حولوا بها وجه التاريخ . ولو رحت أعدد أسماء الأبطال الذين تألقوا فى تاريخ صدر الإسلام والفتوحات الإسلامية وأعمال كل منهم وعظيم بلائه وفروسيته لما استطعت إلى ذلك سبيلا . . وماذا عساى أن أذكر من أسماء هؤلاء الأبطال الفرسان وعددهم يجل عن الحصر .

وكل مايهمنا أن نقوله أن هؤلاء جميعا كانوا يصدرون فى فروسيتهم عن طبيعة موروثة وتقاليد جلسية عرفت عند العرب منذ القدم ، وعن تعاليم شريعتهم وسيرة نبيهم الذى ضرب لهم المثل الأعلى فى التمسك بالسؤدد والشرف .

كذلك اعتز المسلمون بالخيل ، وعرفوا لها منزلتها ، واتخذوا من خيولهم الأصيلة أصدقاء وأخلاء . وأى صديق أعظم من هذا الذى يخوضون به المعارك فلا ينفر أو يلين ، ويصبر معهم على السراء والضراء ، ويرافقهم والموت دان والسيوف تقطر منها المنايا .

وقد بين القرآن الكريم قيمة الفرس فى القتال فقال : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ، للعسقلانى : ١ / ٤١٤ . دار المثنى ١٣٢٨ .

وأنتم لاتظلمون » (١) .

وكفاه ـ أى الفرس ـ أن أقسم الله سبحانه وتعالى به فى سورة من سور القرآن الكريم فقال : « والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا ، فوسطن به جمعا ، إن الإنسان لربه لكنود ، وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد » (٢) .

فالله سبحانه وتعالى يقسم بالخيل إذا خرجت فى سبيله فعدت ، وضبحت والضبح هو الصوت الذى يصدر من أجواف الفرس حين تعدو ، والموريات قدحا يعنى اصطكاك حوافرها للصخر فتقدح فيه النار ، فالمغيرات صبحا يعنى الإغارة وقت الصباح كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يغير صباحا ، فأثرن به نقعا يعنى غبارا فى مكان المعترك تثيره الخيل عند عدوها .

وقد أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم قيمة الفرس فى القتال كرا وفرا وعلم أن الفارس مع فرسه خير معوِّلين على تحقيق النصر فى المعارك ، ولذلك أحاطه بالعناية وخلع عليه القدسية ، وفرض على المؤمنين واجب تربيته وتدريبه وإيثاره بالزاد ، ولذلك تنافس المسلمون فى اقتنائها وازدادوا حرصا عليها رغبة فى الأجر والتماسا للبركة والخير ، حتى أنهم غالوا فى أثمانها لما جعل فيها من أنواع البركات والخيرات .

كما ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يؤثر ـ فى تقسيم الغنائم

---

(١) الأنفال : آيه ٦٠ .   (٢) سورة العاديات .

ـ الفارس على غيره ، واعترف كذلك بنصيب معلوم للفرس ، فإذا كان الفارس يفضل على الراجل بشيء فليس ذلك إلا للفرس . وقد أصبح هذا سنة من سنن الرسول صلى الله عليه وسلم .

وبالإضافة إلى العناية فى صدر الإسلام بشأن الفرس كانت عنايتهم كذلك بالفارس ، فهو يعدل عشرة من غيره . ويدل على ذلك ما قاله على بن أبى طالب رضى الله عنه فى قبيلة بنى فراس بن غنم بن كنانة ، وهى قبيلة من أنجد قبائل العرب . يقول فيهم على بن أبى طالب لأهل الكوفة : « من فاز بكم فقد فاز بالسهم الأخيب . أبدلكم الله بى من هو شر لكم وأبدلنى بكم من هو خير منكم . وددت والله أن لى بجميعكم ـ وأنتم مائة ألف ـ ثلاثمائة من بنى فراس بن غنم » (١) .

وهناك فى أخبار العرب أمثلة للنساء عوضن أنفسهن للزواج من فارس معين يرتضينه ، وحسبنا أن نورد من كتاب الأغانى الملابسات التى أدت بـ « ريطة » إلى أن تعرض يدها على الفارس « ربيعة بن مكدم » (٢) ، ولاشك أن هذه الحادثة قد أثرت فى ابن مكدم وجعلته من أروع فرسان العرب .

وحين نود الحديث عن بواعث الفروسية عند الخوارج فليس من قصدنا

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه : ١ / ١١٦ ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثانية ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م .

(٢) الأغانى : ١٦ / ٥٨٤٢ ـ طبعة دار الشعب .

أن نفصل القول فى نشأتهم وتاريخ عقائدهم فذلك له كتب ومؤلفات خاصة ..
وحسبنا أن نشير إلى بعض الملاحظات العامة حتى يمكننا التعرف على بواعث
الفروسية عندهم .

أولا : الصراع الحزبى

ليس من شك فى أن العصر الأموى شهد عدة ظواهر جديرة بالتسجيل
والدراسة ، ففيه حدثت تطورات سياسية سادت العصر من مبتدئه إلى نهايته
ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن الصراع الحزبى الذى فرضته الحياة السياسية
فى عصر بنى أمية كان أقوى أثرا من الصراع الحزبى فى أواخر صدر الإسلام
أو فى عصر بنى العباس .

ولا أكبر الظن أن شعر الفروسية الذى أثمره الصراع فى العصر الأموى
يعد مرآة لمجتمع شهد صراعا حزبيا أشد عنفا وأطول مدى ، وتمخضت فى
أرضه دعوات وآراء سياسية متعارضة نشأ بسببها حزب ، ونشأ بسببها حزب
حزب آخر .

ولا شك أن الخصومة التى حدثت بين حزب الخوارج وبين حزب
الأمويين الحاكم كانت من أقوى مشاهد العصر ، فقد شملت ثوراتهم ضد
الأمويين رقعة البلاد العربية ، كما شملت الأقاليم الإسلامية المفتوحة .

والناظر فى صراع الخوارج مع مناوئيهم يتبين له أن صراعهم ثورة غالية
العناد جامحة القياد ، وكانت تتخذ السلاح سبيلا إلى نشرها ، وقد امتازت دون

سائر الثورات والفتن بأنها كانت ذات مثل عليا ولم يشبها أمر دينوى كحروب الأمويين والهاشميين والشيعة .. وقد غذت هذه الثورة بطولات جبارة وشجاعة خارقة كان ميدانها الحروب، ولذلك كان شعراء الخوارج فى وصفهم للحروب الخارجية يتحدثون عن الشراة كجماعة قتال وعن الخارجى كبطل نزال، وعن المعركة ونتائجها وما يستعمل فيها من أنواع الأسلحة .

وصور الصراع مع الأعداء فى شعر الخوارج كثيرة مختلفة، والتعبير بالحرب والقتال شائع فى شعرهم، لأنهم يعتمدون فى صراعهم المباشر مع الأعداء على القتال وفنونه المألوفة لديهم .. ولكم عجبت لهؤلاء كيف يحنون إلى الحرب، وكيف يرابطون للعدو حاملين سيوفهم على عواتقهم، فإذا خرجوا لقتاله، واشتبك الطرفان رأيتهم يتكاتفون فى هجومهم صفا واحدا كالبنيان المرصوص .

ويزداد عجبنا إذا رأينا هذه النزعة تنازعهم وهم بين جدران السجون . فهذا هو معاذ بن جوين الطائى، خاض معركة النخيلة، وسجن فى عهد المغيرة، وأرسل إليهم من محبسه حين هم المغيرة بنفى الخوارج من الكوفة يقول (١) :

ألا أيها الشارون قد حان لامرىء * شرى نفسه لله أن يترحلا

أقتم بدار الخاطئين جهالة * وكل امرىء منكم يصاد ليقتلا

فشدوا على القوم العداة فإنما * إقامتكم للذبح رأيا مضللا

---

(١) شعر الخوارج : ٤٥ ، ٤٦ .

ألا فاقصدوا ياقوم للغاية التى * إذا ذكرت كانت أبر وأعدلا
فياليتنى فيكم على ظهر سابح * شديدالقصيرى دارعا غير أعزلا
ويا ليتنى فيكم أعادى عدوكم * فيسقينى كأس المنية أولا
يعز على أن تخافوا وتطردوا * ولما أجرر فى المحلين منصلا
مشيحا بنصل السيف فى حمس الوغى * يرى الصبر فى بعض المواطن أمثلا
ولو أننى فيكم وقد قصدوا لكم * أثرت إذن بين الفريقين قسطلا
فيارب جمع قد فللت وغارة * شهدت وقرن قد تركت مجدلا

والذى يلفت النظر أن شعراء الخوارج لو لم يفنهم القتـــال المتواصل ولو لم تعف الحروب على أشعارهم ، ولو لم يعيشوا تلك الحياة القلقة التى اضطهدوا فيها فى كل صقع .. لولا هذا كله لخرج شعرهم فى الحرب وكأنه مدرسة فى هذا الفن ، ولكان لهم قصب السبق والريادة فى هذا السبيل ، ذلك لأن كثيرين من أصحاب هذا الشعر كانوا من زعماء المذهب الخارجى وكان للصراع الذى كابدوه أثر فى مجىء شعرهم خلاصة تجربة ذاتية حية ، بعيدا عن التكلف والرياء ، يخاطب المشاعر والوجدان بالكلمات المؤثرة والشعارات المثـــيرة .

* * *

ثانياً : الصراع النفسى

مع أن ماسبق من الحديث عن المقومات يبدو صراعا فى حياة فرسان الخوارج ، فإنها فى جملتها تعـــد أسلحة يتذرع بها الفرسان للصراع الحقيق

العنيف الذى واجههم فى حياة الفروسية ، والذى تمخض عنه خوضهم المزاقع والحروب كوسيلة لتحقيق مآربهم السياسية .

ومع أن حياة الخوارج منذ اختار كل منهم الخروج طريقا لعقد صراعا عنيفا ، لأن الناس جميعا أعداؤهم ، وهم بسلوكهم أعلنوا الحـــرب على كل الأحزاب ، ولم يكن هناك أحد يستطيع أن يثنيهم عن عزمهم على النضال عما يعتقدون أنه الحـــق .

.. مع هذا كله فهناك صراع قاس شديد ، كان ثقيل الوطأة على نفوس الخوارج جميعـا ، ذلك هو الصراع النفسى الذى أرق مضاجعهم ، وجعلهم لا يعيشون حياة هادئة مستقرة ، فالمجتمع كله بالنسبة لهم بين طالب ومطلوب وحياتهم سلسلة من الحروب المتواصلة ، وهم من خصومهم تراهم مرة مجتمعين منتصرين ، ومرة مشتتين منهزمين ، وكانت مواقفهم لا تخرج عن أن تكون لقاء أبطال وصراع أقران وعراك بين رجال أشـــداء ، لا يعرفون فى حال الهزيمة صغارا ولا ذلا أو استسلاما .

وما من شـاعر من شعراء الخوارج إلا ونجد فى شعره هذا الشعور إن تصريحـا وإن تضمينا ، وهم وإن تفاوتوا فى مقاومته ، واختلفت قوة كل منهم فى احتماله ومحاولة التغلب عليه ، إلا أن هذا الشعور قد حدا بهم إلى عوامل وظروف خاصة أدت بهم إلى الفروسية ، وخرج فرسانهم يحملون طابعا بارزا يجعلهم يختلفون عمن عداهم من الشعراء الفرسان .

ولا شك أن موقعة « النهروان » قد أثمرت سخطا مؤرثا عند الخوارج فقد كانت بالنسبة لهم مثل « كربلاء » بالنسبة للشيعة (١) .. وتمثل هذا السخط فى عدة ثورات قاموا بها ، وكانوا يفزعون إذا هدأت ثوراتهم إلى ذكريات قتلاهم فيثيرون أحقادهم . وكان قتلى النهروان سبيلا دائما إلى إيقاظهم (٢) فعلى الرغم من أن الموقعة كانت نصرا حاسما للامام على إلا أنها لم تستأصل شأفة الخوارج ، بل أذكت فيهم روح التضحية والفداء ، حتى إن قتل الإمام على نفسه كان ثأرا لقتلى النهروان من الخوارج ، أو على وجه الدقة كان ثأرا بقتلى النهروان من آل (قطام) ابنة علقمة ، وهى فتاة جميلة ترى رأى الخوارج ، أراد ابن ملجم أن يتزوجها فكان قتله لعلى صداقا لزواجه منها .

ويروى أنها قالت لابن ملجم : لا اقتنع منك إلا بصداق أسميه لك وهو ثلاثة آلاف درهم وعبد وأمة وأن تقتل عليا . فقال لها : لك ماسألت وكيف لى به ؟ قالت تروم ذلك غيلة ، فإن سلمت أرحت الناس من شر وأقمت مع أهلك ، وإن أصبت خرجت إلى الجنة ونعيم لايزول ، فأنعم لها ، أى قال لها نعم ، (٣) .

وفى ذلك يقول ابن أبى مياس المرادى (٤) :

---

(١) ١٠ ثورات فى الإسلام . د. على حسنى الخربوطلى : ٥٧ ، دار الآداب بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٨ م .

(٢) أنظر ابن الأثير : ٣ / ٣٣٣ - مطبعة المعارف القاهرة ١٨٦٧ م .

(٣) الكامل للمبرد : ٣ / ١٩٦ ، ١٩٧ - دار نهضة مصر .

(٤) شعر الخوارج : ٣٥ ، ٣٦ .

ولم أر مهرا ساقه ذو سماحة * كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينـــة * وضرب على بالحسام المصمم
فلا مهر أغلى من على وإن غلا * ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

وكرد فعل لما أصاب الخوارج فى موقعة النهروان ظهرت عندهم رغبة قوية فى التكفير عن خذلانهم لإخوانهم شهداء النهروان ، ولذلك قاموا بعدة ثورات محدودة ، وكان من أهمها معركة « النخيلة » (١) . تلك التى قاتلوا فيها أهل الشام ، لـكنهم سرعان ما لحقتهم الهزيمة على أيدى شيعة الـكوفة .

ولئن كانت موقعة النهروان قد فرضت على الخوارج صراعا نفسيا .. إلا أنها من ناحيـة أخرى ولدت فى حياتهم نوعا من الصراع المباشر ، ذلك هو الصراع مع الأعداء الذى أصبح جزءا من حياتهم وكيانهم .

والذى يعنينا من هذا الجانب هو أثره فى حياة الخوارج ، ومدى دلالته على وضعهم بين الأحزاب السياسية فى ذلك العصر ، ودلالته أيضا على صفتهم كمقاتلين فى الحروب كما سنرى ذلك فى شعرهم . ولا شك أن شعرهم كان صورة واضحة مفصلة لا عن كل ما يحيط بالحوادث وتفاصيلها فقط ، وإنما عن صراعهم وحياتهم .

ومن أوضح الأمثلة لذلك قول مرداس بن أدية (٢) :

فلسنا إذا جمت جموع عدونا * وجاءوا إلينا مثل طامية البحر

(١) أنظر الكامل للمبرد : ٣ / ١٩٦ . (٢) شعر الخوارج : ٤٥، ٥٢ .

نكف إذا جاشت إلينا بحورهم * ولا بمهاييب نحيد عن البتر
ولكننا نلق القنا بنحورنا * وبالهام نلق كل أبيض ذى أثر
إذا جشأت نفس الجبان وهللت * صبرنا ولو كان القيام على الجمر

وقول عمرو بن الحصين (١) :

متأوهين كأن فى أجوافهم * نارا تسعرها أكف حواطب
سبر لجائفة الأمور أطبة * للصدع ذى النبأ الجليل مراثب
متسربلى حلق الحديد كأنهم * أسد على لحق البطون سلاهب
حتى وردن حياض مكة قطبا * يحكين واردة اليمام القارب
فى كل معترك لها من هامهم * فلق وأيد علقت بمناكب
سائل بيوم قديد عن وقعاتها * تخبرك عن وقعاتها بعجائب

وقد اتخذ الخوارج من صراعاتهم ذريعة لإعلان الثورة المسلحة ، وظلت هذه الثورة تتردد فى شعرهم ، فكانوا يشحذون بها حماس المقاتلين ، ويلهبون عواطفهم فى كل موقعة وعند كل لقاء ، حتى أصبحت الفروسية تتمة طبيعية لما عرفوا به من شراية وخروج .

والذى يلفت النظر أن صراع الهموم كان يمثل جانبا من الجوانب القاسية فى حياة الخوارج التى عانوا منها وظلوا فى صراع غير يسير معها ، ومن يستعرض شعرهم يرى أن حديث الهموم فيه غير خفى ولا عابر .

---

(١) شعر الخوارج : ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

والواقع أن كون الهموم جانبا بارزا فى حياة فرسان الخوارج لا يمنع أن الخوارج كانوا على قوة بالغة فى مواجهة الصعاب وتخطى العقبات ، بل يمكن اعتبار هذا أو بعضه من الأسباب التى أسفرت عن قوتهم وعن تحملهم لما لا يطاق من الشدائد والمشقات ، فهذه القوة التى وهبوا إياها ، وتلك الشجاعة التى صارت من لوازمهم عامل من عوامل الصراع الذى كابدوه والهموم التى تعرضوا لها .. ومن المعروف أن أقرب النفوس اكتسابا للقوة هى النفوس التى صقلتها الهموم وتعاورتها الصراعات ، ومن المعروف أيضا أن أقرب النفوس إلى الهموم والصراعات هى النفوس القوية ، لأن هذه القوة تفتح أمام هذه النفوس مجالات كثيرة للطموحات والأهداف ، قد لا يطلق غيرهم لنفسه التفكير فيها تفاديا لما تجلبه من صراعات .. ولا شك أن الخوارج كانوا على قوة فى آمالهم العريضة وفى تطلعات أخرى لديهم كثيرة .

ومن الأمور التى يمكن أن تكون سببا مباشرا أو غير مباشر فى هموم الخوارج أنهم - لكثرة حروبهم - كثر فيهم القتل ، وأعمل فيهم السجن .. وكان هذا سبيلا دائما إلى إيقاظهم ، وكثيرا ما يفزعون إلى ذكريات قتلاهم فيثيرون أحقادهم ، ويقومون بحركات محدودة استهدفت الثأر لهم ، كان أهمها معركة النخيلة التى قاتلوا فيها أهل الشام .

كما جعل شعراء الخوارج من الرثاء مناسبة لتأكيد التزامهم بخطى الأسلاف ، ومن يقرأ مرثية عمرو بن الحصين فى أبى حمزة الخارجى وغيره

من الشعر يحوي حديث البطولة والمآثر ، فهو يتخذ من أبي حمزة وصحبه نموذجا مثاليا لبطولة الخوارج وشهامتهم .

يقول (١) :

في فتية صبروا نفوسهم * للمشرفية والقنا السمر

والمصطلي بالحرب يسعرها * بغبارها في فتية سعر

لا شيء يلقاه أسر له * من طعنة في ثغره النحر

والخائض الغمرات يخطر في * وسط الأعادي أيما خطر

ثالثا : الباعث الديني

والخوارج فتية ليس لهم شبه في الصبر على الكفاح ، ولا في النضال والشهامة ، ولا في التقوى والصلاح ، بل إن شجاعتهم لتعزى إلى تقواهم كما نطقت بذلك أبيات عيسى بن فاتك في يوم « آسك » .

يقول (٢) :

فلما أصبحوا صلوا وقاموا * إلى الجرد العتاق مسومينا

فلما استجمعوا حملوا عليهم * فظل ذوو الجعائل يقتلونا

بقية يومهم حتى أتاهم * سواد الليل فيه يراوغونا

يقول بصيرهم لما رآهم * بأن القوم ولوا هاربينا

أألفا مؤمن فيما زعمتم * ويهزمهم بآسك أربعونا

كذبتم ليس ذاك كما زعمتم * ولكن الخوارج مؤمنونا

---

(١) شعر الخوارج : ٢٢٤ - ٢٢٦ . (٢) المصدر نفسه : ٥٤ ، ٥٥ .

هم الفئة القليلة غير شك * على الفئة الكثيرة ينصرونا

فالأبيات تثبت أن الشجاعة ترتبط ارتباطا وثيقا بالتقوى والإيمان

فالخوارج لا يكادون ينتهون من صلاتهم حتى يمتطوا ظهور الجياد العتاق ويحطوا بسيوفهم على ذوى الجمائل الذين استأجرهم بنو أمية للقتال ، والذين دخلوا الحرب لا دفاعا عن عقيدة ولا ذودا عن حرمة ، ولذلك كان انتصار الخوارج مع قلة عددهم على جموعهم التى تفوق الخوارج أضعافا مضاعفة .

وعلى أساس هذه الغاية السامية نجد المديح القديم يتحول فى شعر الخوارج ثناء بالشجاعة والتقوى على الجماعة الخارجية التى تحرص على الاستشهاد بدافع من روح التقوى ، وإذا فتشت فى شعرهم فلن تجد ثناء يعدل الثناء بهاتين الصفتين .

وقد تجلى هذا بوضوح فى بيتين من الأبيات التى كتبها سميرة بن الجعد إلى الحجاج يعلمه بعودته إلى صف الخوارج ، وتخليه عن منادمته والتردد عليه فى قصره .

يقول فيهما (١) :

إلى عصبة أما النهار فإنهم * هم الأسد عند الحرب أسد التهايج

وأما إذا ما الليل جن فإنهم * قيام كأنواح النساء النواشج

كذلك كان الهجاء عندهم ، فقد تحول إلى نقض هاتين الصفتين اللتين كان

---

(١) شعر الخوارج ص ١٢٣ .

الثناء بهما ، وكان لوم الذين مالوا إلى القعود منهم لايخرج بهم عن دائرة الإيمان .. فهم ينقدون فى هؤلاء روح التخاذل والإخلاد إلى الدعة ، ويحضونهم على الاستمساك بمبادئهم والذود عنها ، مع التذكير بفناء الدنيا وزوالها ، والإشادة بما أعده الله للمجاهدين فى نصرة عقيدتهم والاستشهاد دونها من ثواب وأجر .

فعندما خذل سميرة بن الجعد مبدأه ، وصار منادما للحجاج ، لامه قطرى ابن الفجاءة على هذا الخذلان ، وأرسل إليه أبياتا وازن فيها بين سبيل الخوارج والسبيل التى التوت بسميرة عن مبدئه ، فبينا الخوارج يجاهدون فى صبر وجلد ، ويؤمنون بأن الموت حق ، إذا بسميرة يفتن بالدنيا ومتاعها الزائل عند الحجاج مباعدا بين نفسه وبين ماعليه إخوانه الشراة (١) .

وفخر الخوارج لايخرج غالبا عن دائرة الإيمان والشجاعة ، وقد تحول الفخر التقليدى عندهم إلى الفخر بالشجاعة والتقوى ، وكل شعر الخوارج يشيد بالذات الخارجية ، بإيمانها وتقواها . وببسالتها وإيثارها وتضحياتها من أجل المبدأ . وهذا هو السبب فى عدم تمايز شخصياتهم الشعرية أو تباينها ، فليس بينهم فرق كبير لا فى المعانى ولا فى الصياغة ، الأمر الذى أشكل نسبة كثير من شعرهم إلى أصحابه الحقيقيين .

رابعاً : المصارحة فى الجهاد ورفض التقية

وجدير بالذكر أن الخوارج عاشوا حياتهم كلها يحاربون الجيوش الأموية

---

(١) أنظر هذه الأبيات فى « شعر الخوارج » : ١٢٠ .

وكأنهم عاشوا للقتال فحسب ، فهم لم يستكينوا فى ظل العهد الجديد ، بل حملوا سيوفهم على عواتقهم ، وأعلنوا السخط والتمرد على نظام معاوية ، ولم تخفف المصالحة التى حدثت بين معاوية وبين الحسن والحسين من نيران ثورتهم التى كانت تتأجج فى صدورهم ، وإنما وجدوا فيها تحطيما لطموحهم ، وربما شعروا أن هذه المعاهدة تشكل خطرا على كيانهم ووجودهم ، ولذلك فقبل أن يستمتع معاوية بنشوة الظفر بعد تنازل الحسن أخذ الخوارج يرفعون رءوسهم ، ويعلنون التمرد على معاوية ، ويحرضون على القتال ضده .

فقد خرج فروة بن نوفل الأشجعى من شهرزور (١) فى خمسمائة من أصحابه وهاجم بهم الكوفة ودخلها ، وكان الحسن إذ ذاك فى طريقه إلى المدينة بعد استقالته ، فوجه إليه معاوية يسأله أن يكون المتولى لمحاربتهم ، ولكن الحسن رد عليه قائلا : « والله لقد كففت عنك لحقن دماء المسلمين ، ولا أحسب ذلك يسعنى ، أفأقاتل عنك قوما أنت والله أولى بالقتال منهم » (٢) .

وبالإضافة إلى ذلك فالخوارج لا يأخذون بالتقية كما أخذت بها الأحزاب الأخرى ، فهم فى مجموعهم ثوار ترافقهم السيوف فى حلهم وترحالهم ، وهم فى كل خطوة يخطونها يستعذبون الموت ولا يأبهون بالحياة ، والاستشهاد غاية كل خارجى ، ولكى ينال هذه الغاية فلا بد من الحرص عليها والتأهب لها .

---

(١) شهرزور : كورة واسعة بين اربل وهمدان من أرض فارس (ياقوت : معجم البلدان) .

(٢) الكامل للمبرد : ٣ / ٢٤٠ .

ومن ذلك قول يزيد بن حبناء وقد طلبت منه زوجه هدايا (١) :

فليس بمهد من يكون نهاره * جلادا ويمسى ليله غير نائم
يريد ثواب الله يوما بطعنة * غموس كشدق العنبرى بن سالم
أبيت وسربالى دلاص حصينة * ومغفرها والسيف فوق الحيازم

وكيف يأخذ بالتقية قوم كان لهم منذ ظهورهم رأى واحد معروف عنهم ، وكانت صراحتهم فى الجهاد مضرب المثل فى كل وقت وحين ، فلقد نفروا نفرتهم الكبرى بعد أن دعاهم زعيمهم الأول « عبد الله بن وهب الراسبى » وهم فى كل مراحلهم لا يعلنون غير ما يضمرون ، وكانت صراحتهم فى الجهاد عاملا قويا فى جعلهم شوكة دائمة فى جنب الدولة الأموية من ظهورها حتى غروب شمسها .

وهذا واحد منهم وهو « معاذ بن جوين » يحن إلى الحرب ، ولا يخشى من سلطان السجان ، ويقدم على إرسال شعر له وهو فى السجن (٢) . وتكاد هذه الأبيات تفصح عن صراع فى دخيلة الشاعر بين بقائه فى السجن وبين رغبته فى الخروج منه والخلاص مما هو فيه ، حتى لا يضن بروحه عن البذل فى ميدان القتال ، ونيل الاستشهاد الذى هو غاية قصوى لجهاده وصحبه فى سبيل عقيدته . . وهذا الصراع يدل على صدق الشاعر فى موقفه من نفسه وتمنيه ما يتمنى دون ستر أو إخفاء أو تقية .

(١) شعر الخوارج : ٨٥ .
(٢) أنظر هذه الأبيات فى المصدر السابق : ٤٥ ، ٤٦ .

وفكرة عدم الأخــذ بالتقية عند الخوارج ليست إلا انعكاسا لروح الثورة التى أعلنوها على الواقع السيء الذى كان يحيط بهم ، فإذا بصراحتهم فى الجهاد تبرق لهم من مكمنها علـى أنها المخلص الوحيد ، وأنجح الوسائل فى مقاومة الحياة السيئة والعيش الزائف ، وإلا فلا سبيل للانتصار على هــذا الواقع إلا بالموت .

ولعل رفض الخوارج للتقية وإعلانهم لمبادئهم ، والدفاع عنها بحد السيف كان سببا فى خلو شعرهم من المديح النمطى سواء أكان فى الخوارج أم فى غيرهم من الخلفاء والولاة وغيرهم من الناس ، فهم لا يتكلفون مدح إنسان بما ليس فيه ، ولا يرون أحدا خليقا بالتفضل والرجاء والسؤال غير الله تعالى .

فهذا عمران بن حطان يقف يوما على الفرزدق وهو ينشد مادحا والناس حوله فيقول له (١) :

أيها المادح العبـاد ليعطى * إن لله ما بأيدى العبـاد
فاســأل الله ماطلبت إليهم * وارج فضل المقســم العواد
لاتقل فى الجواد ماليس فيه * وتسمى البخيل باسم الجواد

وثمة أمر آخر جعل الخوارج يرفضون التقية ، وهو أن شعراءهم كانوا من كبار دعاتهم المناضلين الذين باشروا الجهاد وتمرسوا به ، وهذا أمر يجعل شعرهم يتفق وسلوكهم الجاد فى ميادين القتال ، ومن ثم خرج هـذا الشعر

---

(١) شعر الخوارج : ١٥٨ .

صورة لهم ، لأنه يدور حول عقيدة هم أنفسهم قادة نضالها وزعماؤها .

وكان لهذا السلوك دور كبير في توفر طبائعهم النقية والاحتفاظ بها دون أن تفسدها الحضارة أو الترف ، فظلوا على فطرتهم الجادة ، لا تعوزهم الصرامة ولا الصراحة النقية ، وأخذوا أنفسهم أخذا شديدا فى الخضوع لعقيدة لاتعرف الدنية ولا تصطنع التقية لتستر بها الجبن ، أو تتقنع بها رهبة أو رغبة . ولهذا كان لشعرهم نغم خاص به ، له قوته وأثره فى النفوس بجبروت الصدق والمصارحة ، بخلاف شعر غيرهم من الفرق الأخرى ، ولهذا السبب يمكن القول إن شعر الخوارج يتسم بسمات واضحة تميزه عن غيره من الشعر ، وأهم هذه الميزات أنه أصدق صورة أدبية لمذهب سياسى لايشاركه فى ذلك شعر آخر .

خامساً : بواعث أخرى

ـ والمعروف أن للخوارج مذهبا سياسيا أعلنوه واستمسكوا به ودافعوا عنه وجاهدوا فى سبيل تحقيقه بكل مايملكون .

ولئن حدث وحاد أحد منهم عن مذهبه فإنه لايلبث أن يرجع إليه لما يعتقده فى نصرة مذهبه من سلامة ونعيم ، وفى التخلى عنه من شقاء وهلاك . وقد حدث أن اتخذ الحجاج سميرة بن الجعد سميرا له ، وكان سميرة على رأى الخوارج ، فلما علم قطرى بن الفجاءة بذلك كتب إليه أبياتا يقول فيها (١) :

(١) شعر الخوارج : ١٢٠ ، ١٢١ .

لشتان مابين ابن جعد وبيننا * إذا نحن رحنا فى الحديد المظاهر
لخالد فرسان المهلب ، كلنا * صبور على وقع السيوف البواتر
وراح ابن جعد الخير نحو أميره * أميرٍ بتقوى ربه غير آمر
أبا الجعد أين العلم والحلم والنهى * وميراث آباء كرام العناصر
ألم تر أن الموت لاشك نازل * ولا بعث إلا للألى فى المقابر
حفاة عراة والثواب لربهم * فمن بين ذى ربح وآخر خاسر
فإن الذى قد نلت يفنى وإنما * حياتك فى الدنيا كوقعة طائر
فراجع أبا الجعد ولاتك مغضيا * على ظلمة أعشت جميع النواظر
وتب توبة تهدى إليك شهادة * فإنك ذو ذنب ولست بكافر
وسر نحونا تلق الجهاد غنيمة * تفدك ابتياعا رابحا غير خاسر
هى الغاية القصوى الرغيب ثوابها * إذا نال فى الدنيا الغنى كل تاجر

فلما قرأ سميرة كتاب قطرى أخذ سلاحه وركب فرسه ولحق بالأزارقة وكتب إلى الحجاج يقول (١) :

فمن مبلغ الحجاج أن سميرة * قلى كل دين غير دين الخوارج
رأى الناس إلا من رأى مثل رأيه * ملاعين تراكين قصد المناهج
فأى امرىء أى امرىء يا ابن يوسف * ظفرت به لم يأت غير الولائج
إذن رأيت الحق منه مخالفا * لديتك أن كنت امرءا غير فالج
فأقبلت نحو الله بالله واثقا * وما كربتى غير الإله بفارج

---

(١) شعر الخوارج : ١٢٢ ، ١٢٣ .

على ظهر محبوك القرا متمطرا * إلى فتية بيض الوجوه مباهج
إلى قطرى في الشراة معالجا * ولست إلى غير الشراة بعائج
إلى عصبة أما النهار فإنهم * هم الأسد عند الحرب أسد التهايج
وأما إذا ما الليل جن فإنهم * قيام كأنواح النساء النواشج

ـ والخوارج يفدون عقيدتهم بالدماء والأرواح ، وهم يتهافتون على القتال في غير مبالاة ، ويرون الاستشهاد حلو المذاق ، ولذلك اشتهروا بالبأس والصبر على حر القتال ، وقاموا بعدة ثورات أضعفت أركان الدولة الأموية فترة كبيرة من الزمن قاربت النصف قرن ، وكلفوا أنفسهم فى هذا كله عشرات الآلاف من الضحايا .

وطالما انتصر عدد قليل منهم على جيش يفوقهم فى العدد والعدة ، حتى صارت بطولتهم مضرب الأمثال . وفى أقوال خصومهم مايشهد لهم بالبطولة والتضحية . قال البراء بن قبيصة للمهلب بن أبى صفرة : ما رأيت قط أصبر ولا أبأس من القوم الذين يقاتلونك . وقال للحجاج لما عاد إليه : رأيت قوما لا يعين عليهم إلا الله » (١) .

ـ وكانوا مضرب المثل فى التمسك بالمبدأ وعدم الحيدان عنه ، كل ذلك فى رأى وفهم وشجاعة . ومن طريف مايروى لهم فى ذلك أن عبد الملك بن مروان أتى برجل منهم فبحثه فرأى منه ماشاء فهما ، ثم بحثه فرأى ماشاء إربا ودهيا ، فرغب فيه فاستدعاه إلى الرجوع عن مذهبه فرآه مستبصرا محققا

---

(١) أدب السياسة فى العصر الأموى د . أحمد الحوفى : ١٠٩ .

فزاده فى الاستدعاء فقال له : لتغنك الأولى عن الثانية ، وقد قلت فسممت فاسمع أقل ، قال له : قل ، فجعل يبسط له من قول الخوارج ويزين له مذهبهم بلسان طلق وألفاظ بينة ومعان قريبة ، فقال عبد الملك بعد ذلك على معرفته : لقد كان يوقع فى خاطرى أن الجنة خلقت لهم وأنه أولى بالجهاد منهم . ثم رجعت إلى ماثبت لله على من الحجة وقرر فى قلبى من الحق ، فقلت له : لله الآخرة والدنيا ، وقد سلطنا الله فى الدنيا ومكن لنا فيها ، وأراك لست تجيب بالقبول ، والله لأقتلنك إن لم تطع » (١) .

ويدل على حلاوة منطقهم وتمسكهم برأيهم ماروى من أن صاحب السجن الذى كان فيه « أبو بلال مرداس » رأى من شدة اجتهاد أبى بلال وحلاوة منطقه ما رأى فقال له : إنى أرى لك مذهبا حسنا ، وإنى لأحب أن أوليك معروفا ، إن تركتك تنصرف ليلا إلى بيتك أتدلج إلى قال نعم فكان يفعل به ذلك » (٢) .

وكلم عبيد الله بن زياد فى حبس بعض الخوارج وقتلهم فلج وأبى ، وقال: أقمع النفاق قبل أن ينجم ، لكلام هؤلاء أسرع إلى القلوب من النار إلى اليراع (٣) .

ونساء الخوارج يماثلن فى أكثرهن الرجال فى الشجاعة والصلابة ، إذ أن الأخبار والأشعار تشير إلى أنهن شاركن الرجال فى الزحف ، وكان

---

(١) الكامل للمبرد : ٣ / ٢٣١ ، ٢٣٢ . (٢،٣) المصدر السابق : ٣ / ٢٤٨ .

اشتراكهن باعثا قويا لحماسة الرجال وشجاعتهم .. وهذه هي البلجاء (١) من أتقى نساء الخوارج ، ومن أشدهن بأسا ، وقد زان علمها بسالة نادرة . وقد مضى إليها أبو بلال وقال لها : إن الله قد وسع على المؤمنين في التقية فاستترى فإن هذا المسرف على نفسه الجبار العنيد قد ذكرك قالت : إن يأخذنى فهو أشقى بى ، فأما أنا فما أحب أن يعنت إنسان بسببى .

وكان أن وجه إليها عبيد الله بن زياد فأتى بها فقطع يديها ورجليها ورمى بها في السوق فمر أبو بلال والناس مجتمعون فقال ما هذا ؟ قالوا : البلجاء فعرج إليها فنظر ، ثم عض على لحيته وقال لنفسه : لهذه أطيب نفسا عن بقية الدنيا منك يامرداس » (٢) .

وذكرت الرواة أن الحجاج أتى بامرأة من الخوارج وبحضرته يزيد بن أبي مسلم مولاه ، وكان يستسر برأى الخوارج فكلم الحجاج المرأة فأعرضت عنه ، فقال لها يزيد بن أبي مسلم : الأمير ويلك يكلمك ! فقالت : بل الويل والله لك يافاسق الردى » (٣) .

وتاريخ الخوارج المأثور يثبت أنهم عرفوا الفروسية فسوق ماعرفها

---

(١) البلجاء : امرأة من بنى حرام بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة ابن تميم من رهط سجاح (الكامل للمبرد : ٣ / ٢٤٧) .

(٢) الكامل للمبرد : ٣ / ٢٤٨ . (٣) المصدر نفسه : ٣ / ٢٣١ . والردى عند الخوارج هو الذى يعلم الحق من قولهم ويكتمه .

الجاهليون ، لأنهم تطبعوا بطابع العصر ، ولم يختلفوا فى تقاليدهم العربية الشريفة أو فى صلاتهم مع من سواهم من الناس عن آبائهم الأول .. فلقد أخذوا عنهم كل تقاليد الفروسية الخلقية من شجاعة وكرم ووفاء بالعهود وعفو عند المقدرة وحماية للضعفاء ، ووصلوا فى هذا إلى ما وصل إليه أجدادهم العرب ، بل تفوقوا عليهم حين صارت هذه الصفات طبيعة لديهم متأصلة فى نفوسهم . وقد تضافرت عوامل عديدة عملت على تمكينها فى نفوسهم ، وكان على رأس هذه العوامل دينهم الذى كان يحثهم على كل فضيلة وينهاهم عن كل رذيلة . وليس ببعيد عنا ما فعله أبو بلال مرداس حين سجنه عبيد الله ابن زياد (١) .

وبهذا يمكن القول إن الخوارج قد أدوا إلى الفروسية أكثر مما أدى إليها غيرهم ، فمنهم من ضحى بنفسه فى سبيل الحق والمبدأ ، ومنهم من يستحيون من أنفسهم قبل أن يستحيوا من غيرهم ، ومنهم الذين يأنفون أن يعابوا بنقيصة أو يؤخذوا باعوجاج فى سيرتهم .

ثم إن الخوارج لم يصنعوا فروسيتهم طمعا فى أن يميزوا بين عصرهم وإنما صنعوها إيثارا للحق وللمبدأ ، وإرسالا لأنفسهم على سجيتها ، فهم جميعا بلا استثناء شديدو الحب لفرقتهم ، ولم يتردد أحد منهم فى تعريض نفسه للأخطار فى سبيل فرقته مهما تكن الظروف ومهما تكن النتائج .

وهم فوق ذلك كله أزهد الناس فى الشهرة ، وأشدهم انصرافا عن بعد

(١) أنظر الكامل للمبرد : ٣/٢٤٨ ، ٢٤٩ .

الصيت ، يفعل كل منهم ما يفعل صادرا عن طبعه وفطرته ، ويود كل منهم لو يجهل عارفوه من جهاده كل شيء .

ولن يستطيع أحد أن يعبر بالوصف عما كان يربط الخوارج بعقيدتهم من ولاء وعاطفة . . وكل ما يمكن قوله إن شعورهم تجاه عقيدتهم كان أعمق من الوطنية ، وهو شعور يحفزهم دائما إلى المخاطر والحروب والبطولات . فالخارجي من أجل عقيدته على أهبة الاستعداد لكل تضحية ، لا يفكر ولا يتردد ، بل إنه ليعرض حياته فى كل لحظة للهلاك من أجل معتقده ، ويقدم نفسه فداء للمعامع والحروب متى كان للخوارج فيها منفعة وسعادة ومجد وشـرف .

ولذلك كان كثير من معاصريهم يتقى بأسهم ويتجنب غضبهم . ومن طريف ما يروى فى ذلك ، أن غيلان بن خرشة الضبى سمر ليلة عند زياد ومعه جماعة ، فذكر أمر الخوارج ، فأنحى عليهم غيلان . ثم انصرف بعد ليل إلى منزله ، فلقيه أبو بلال مرداس بن أدية ، فقال له : ياغيلان ، قد بلغنى ما كان منك الليلة عند هذا الفاسق ، من ذكر هؤلاء القوم الذين شروا أنفسهم وابتاعوا آخرتهم بدنياهم ! ما يؤمنك أن يلقاك رجل منهم ، أحرص والله على الموت منك على الحياة ، فينفذ حضنيك (الحضنان ناحيتا الإنسان) برمحه ؟ فقال غيلان : لن يبلغك أنى ذكرتهم بعد الليلة ، (١) .

ـ والخوارج يمتازون بالشجاعة . . وفى سبيل ذلك حرصوا على مناهضة

(١) الكامل للمبرد : ٣ / ٢١٤ .

الأمويين دون أن يكترثوا بالصعاب التي تواجهم والأهوال التي تكتنفهم .
يصف « نيكلسون » الخوارج بأنهم المثل الأعلى في التضحية في سبيل العقيدة والاستماتة في القتال حتى يحققوا مبادئهم ، كما أنهم لم يجاهدوا لتحقيق مطامع شخصية كما كانت سائر الأحزاب الأخرى سواء أكانت شيعية أم أموية أم زبيرية (١) .

وما أكثر أعداء الخوارج ، ولا نبالغ إذا قلنا إن جميع الأحزاب المعاصرة للخوارج كانت أعداء لهم ، وبالتالي فكل حزب من هذه الأحزاب معرض لهجمات الخوارج ، لأنهم بسلوكهم أعلنوا الحرب والتمرد على كل هذه الأحزاب ، ونصبوا أنفسهم باختيارهم غرضا للرماة ، فنضحهم المسلمون من كل جانب ، فأعمل فيهم القتل الإمام علي بن أبي طالب وشيعته ، ثم تلقاهم من بعده المغيرة والزبير ، ثم المهلب والحجاج ، وآل بهم الأمر إلى أن يكونوا هدفا في أكثر الحروب الداخلية التي نشبت في عهد بني أمية . ومن يقرأ أشعار شعرائهم في « النهروان » و « النخيلة » و « حروراء » و « يوم دولاب » و « يوم سولاف » يدرك مدى ما تعرض له الخوارج من ويلات ، ومدى ما تعرضوا له من مخاطر وحروب .

ويمكن أن يضاف إلى ذلك أن كثيرا من شعراء الخوارج الفرسان كان قد درج على التحدث عن محبوبته في شعره الحربي ، وكان كل منهم يؤثر

(١) ١٠ ثورات في الإسلام د . على حسني الخربوطلي : ٦٥ .

أن تشهده محبوبته وهو يصارع الأبطال ويشهد العراك والطعان (١) ، لأن حبيبته خارجية مثله ، فيسرها أن ترى من يهواها فى ميدانها الحبيب فتتلاقى من ثم الميول والأهواء .

ويتمثل هذا عند الشاعر قطرى بن الفجاءة ، فهو يتغزل فى سياق فخره بالإنتصار فى يوم دولاب ، فيقول مخاطبا حليلته أم حكيم (٢) :

لعمرك إنى فى الحياة لزاهد * وفى العيش ما لم ألق أم حكيم

فهو يستهل الأبيات بإعلان حبه لزوجته ، وبأن حبه لها هو الشيء الوحيد الذى يشده إلى الحياة ويجعله متعلقا بالعيش فيها .

ثم يعود فيمزج غزله بفروسيته ، ويصور حبه لأم حكيم بفارس يهدى إلى محبوبته ما واجه به خصومه وأعاديه .

يقول فى يوم دولاب أيضا (٣) :

---

(١) وهذا فى الغالب هو حال كل الفرسان العرب ، فكل واحد منهم له امرأة يدين بحبها ، وكانت قصائده التى تتغنى بالبطولة تبدأ بتحية يرسلها إلى حسنائه .. ولا شك أن المرأة تثير الحماسة وتلهب الحمية وتلهم الشاعر بالشعر ، وفى سبيل إرضائها والفوز بإعجابها وحبها يصبح المرء فارسا كاملا ومقاتلا لا يعتريه خوف ، ولسنا فى حاجة إلى القول بأن المرأة العربية استطاعت أن تلم بمواقف الأبطال ، وهى باسلة شجاعة ، وكثيرا ما كانت تشترك مع الرجل فى المعركة وفى النصر اشتراكا إيجابيا .

(٢) شعر الخوارج : ١٠٦ . (٣) المصدر نفسه : ١٠٦ ، ١٠٧ .

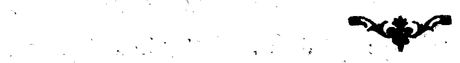
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت * طعان فتى في الحرب غير ذميم
غداة طفت على الماء بكر بن وائل * وألافها من حمير وسليم
ومال الحجازيون نحو بلادهم * وعجنا صدور الخيل نحو تميم
وكان لعبد قيس أول جدها * وولت شيوخ الأزد فهي تعوم
فلم أر يوما كان أكثر مقعصا * يمج دما من فائظ وكليم
وضاربة خدا كريما على فتى * أغر نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولاب ولم تك موطنا * له أرض دولاب ودير حميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا * تبيح من الكفار كل حريم
رأيت فتية باعوا الإله نفوسهم * بجنات عدن عنده ونعيم

وقائل هذه القصيدة هو أحكم الخوارج ، وأقواهم شجاعة وأشدهم بأسا وهو ـ على قلة ماقال من شعر في الحرب ـ يحكم هذه القصيدة ، ويمسك بعنانها حتى جعلها في القمة من الشعر الحربي ، وصارت في عداد الجياد مما قال شعراء العرب من شعر رفيع الصوغ محكم البيان والمعاني .

وقد جمع فيها بين كلمات الغزل اللينة وفجيعة الحزن وصلابة الحماسة . . وفوق ذلك فهو يطلعنا من خلال هذا الوصف على خلة من خلل الفرسان وسجية من سجاياهم ، وهي احترام المرأة والحرص على معاملتها معاملة رقيقة طيبة . وتلك فيما أظن أصل من أصول الفروسية ، لأنها ترق بالإنسان إلى أفق سام من آفاق الإنسانية ، ولا يصدر فيها المرء إلا عن أكرم الحوافز وعن روح البذل والتضحية والفداء .

وبصرف النظر عن بطولات الخوارج ، فالمرأة بلا شك مخلوق ضعيف ، ومن أولى برعاية الضعفاء وحمايتهم من الفارس ؟ بلى إن التطوع بذلك من أهم مايميز الفارس الحق ، فواجب الفارس أن يكون صاحب مروءة ، وأن يعين الضعفاء وذوي الضائقة ، والمغلوبين على أمرهم .

والحق أن هذه صفة مميزة لعظماء الناس وفرسانهم ، وهي دليل مؤكد على أن الفارس قد بلغ في مدارج الإنسانية مرتبة عالية ، لأنه علا في غزله ، وقهر نفسه ، وتحكم في عواطفه ، وأظهر عفة وشجاعة في وقت ينتظر من غيره فيه الجموح والانتقام ، كما أن هذا دليل آخر على العزيمة الصلبة ، والإرادة القوية وعلى كبح جماح النفس . . وهذه في حد ذاتها فروسية لايصل إليها إلا ذوو النفوس العالية التي تتطلع إلى السؤدد ، وتنأى بمنزلتها عن دنيا الدهماء التي لايضبطها عقل والتي تنزل بالإنسانية إلى مرتبة دنيا كمرتبة الحيوان .



الفصـــل الخامس

شعر الحـــرب عند الخوارج

ليس شعر الخوارج مقصورا على الحربيات والحماسة والفروسية ، ففيه غير ذلك المراثى والوصف والهجاء والتشبيب . . وكل ما يمكن ملاحظته على شعرهم أن موضوعات الحماسة والحرب قد غلبت عليه ، لأن شجاعتهم ومآثرهم الحماسية ألمع سجاياهم وأعرق ما فيهم من الصفات ، فكل شعرهم يدور حول حمل النفس على المكروه ، وفى التحريض على القتال ، وذم التقهقر والفرار وفى ركوب الموت خشية المذمة والعار .

والحقيقة أن الحروب لم تنقطع بين الخوارج وبين الأحزاب الأخرى المناوئة ، وكان جيش الخوارج بصفة عامة أقل عددا من الجيوش المناوئة له ، إلا أن جنوده كانوا أكثر حماسة وأقوى عقيدة ، وأقدر على تحمل المشاق والصبر فى ميدان القتال ، فكانوا يحاربون بشجاعة وبسالة ، ومواقعهم وإن كانت فى معظمها سجالا ، إلا أن انتصاراتهم كانت أكثر من انتصارات أعاديهم ، وما لحق بهم من هزائم كان نتيجة لخيانة دبرت ضدهم ، أو نتيجة لتخاذل بعض من أخذوا بالقعود منهم .

وأشعار الخوارج التى قيلت خالصة لوصف الوقائع الحربية قليلة . هذا على الرغم من أن حروبهم مع مناوئيهم على كثرتهم كانت شغلهم الأكبر ، وقد التحم الخوارج فى عهدهم بحروب عديدة شغلت شعراءهم جميعا ، وكانت هذه

الحروب رافدا لهم تتسع فيه الموضوعات وتتعدد الأغراض .

وكان ينبغى على الخوارج أن يحتفظوا بشعرهم الذى قيل فى الحروب التى خاضوها والحوادث والفتن التى تعرضوا لها ، لأن شعر الحرب هو من أهم الأغراض التى يمكن أن نلمس منها المقومات الشخصية لشعراء الخوارج كفرسان ، وفوق ذلك فمثل هذه الحروب وتلك الحوادث والفتن تثير شعرا حماسيا ذا أثر فنى ، ولم يكن شىء فى شعر الخوارج أعذب نغما ولا أبعد أثرا من شعر الحـــرب الذى نسجه الشعراء بنسيج الحوادث والفتن ومزجوه بجمحات الخيل وصليل السلاح وضجيج الفرسان وعجاج الغبار . ولا شك أن الفروسية كانت الصدى الأدبى الأول لحروب الخوارج .

وشعر الفروسية عند الخوارج يظل ممزوجا مع غيره من الشعر فى القصيدة الواحدة ، وغالبا مايتوزعه شعر الفخر والمديح والرثاء . فالشاعر المفتخـــر كثيرا مايفتخر بأيام الخـــوارج وبانتصاراتهم ، وغالبا مايتعرض لذكر معاركه إن كانت له مأثرة فى الحرب . وهذا الضرب من الشعر كثير عند الخوارج .

ومن الصعب أن ترى فى شعر الفخر عند الخوارج تلك الظواهر البارزة فى الفخر عند شعراء العصرين الجاهلى والإسلامى ، فأنت لا ترى فى شعرهم فخرا فرديا ، وحين يفتخر أحد منهم بالعصبة والجماعة فإنه يربط ذلك بالفكرة التى يعمل الخوارج من أجلهـــا ، وبعقيدة الشراية والخروج التى شغلتهم طيلة حياتهم .

فشاعر الخوارج عيسى بن فاتك يفتخر بانتسابه إلى الإسلام فيقول (١) :

أبى الإسلام لا أب لى سواه * إذا فخروا ببكر أو تميم
كلا الحيين ينصــــر مدعيه * ليلحقه بذى الحسب الصميم
وما حسب ولو كرمت عروق * ولكن التقى هو الكريم

وما يبدو للبعض أنه فخر تقليدى نلمح من خلاله أنه يسير فى إطار العقيدة الخارجية . ففارس الأزارقة وقائدهم قطرى بن الفجاءة لا يفتخر فى قصيدة يوم دولاب بنفسه فحسب ولا يحتكر النصر لنفسه وحدها ، وإنما يتحدث بلسان الخوارج كجماعة ، فيشير إلى بطولاتهم وإقدامهم عند نزال الأبطال .

أما أشعارهم فى المديح ففيها شعر حماسى كثير ، وهى فياضة بالفروسية حتى لكأنها أنشودة البطولة فى الحرب . وفيها يذكر الشاعر سجايا الممدوح من تقوى وعفو ومروءة وكرم وأصالة وشهامة ، ثم يذكر شجاعته ، ويعرض من ثم إلى ذكر حربياته ، فيشيد بانتصاراته إن كان قد ظفـــر ، ويشفع له بالعذر إن كان قد جانبه التوفيق .

يصف أحد الخوارج أصحابه وهم فى طريقهم إلى الحرب فيقول (٢) :

وهم الأســـود لدى العرين بسالة * ومن الخشوع كأنهم أحبار
يمضون قد كسروا الجفون إلى الوغى * متبسمين وفيهم استبشـــار
فكأنما أعــــداؤهم أحبابهم * فرحا إذا خطر القنا الخطار

(١) شعر الخوارج : ٥٨ .   (٢) المصدر نفسه : ٢٣٣ .

يردون حومات الحمام وإنما * تالله عند نفوسهم لصغار

ومعظم شعر الرثاء جاء فى قتلى الخوارج الذين سقطوا فى ميادين الجهاد دفاعا عن العقيدة الخارجية، ومضمون هذه القصائد يخرج عن الإطار التقليدى لشعر الرثاء من تفجع وبكاء وحزن . فنظرتهم إلى الحياة والموت وما بعدهما انعكست بشكل مباشر على رثائهم ، فصاروا يغبطون قتلاهم على فوزهم بالشهادة ، وأظهروا من ثم تمنيهم اللحاق بهؤلاء الشهداء .

كما جعل شعراء الخوارج من الرثاء مناسبة لتجديد العزم وتحفيز الهمم الخارجية إلى مزيد من التضحية والفداء ، والتأكيد على الالتزام بخطى الأسلاف الذين فازوا بالشهادة . كما فى رثاء حيان بن ظبيان لقتلى الخوارج (١) :

حليلى ما بى من عزاء ولا صبر * ولا إربة بعد المصابين بالنهر
سوى نهضات فى كتائب جمة * إلى الله ماتدعو وفى الله ماتفرى
إذا جاوزت قسطانة الرى بغلق * فلست بسار نحوها آخر الدهر
ولكننى سار وإن قل ناصرى * قريبا ، فلا أخزيكما ، مع من يسرى

وعلى هذا الأساس ازدحمت فنون الشعر عند الخوارج بذكريات الحروب، وما حققه الخوارج من نصر على مناوئيهم ، وما أصابهم على أيدى هؤلاء المناوئين . . والشاعر حيال كل هذا يذكر مفاخر الخوارج فى حروبهم ، كما يذكر القواد المشهودين منهم ، الذين يجرون الكتائب الظافرة المنتصرة .

---

(١) شعر الخوارج : ٤٤ .

والآن وبعد هذا العرض الموجز لاتجاهات شعر الخوارج أورد أهم المواقع الحربية التي كان الخوارج فيها فوارس الميدان وأسياد الوغى عند احتدام المعارك، وقد وجدت بعد بحث ودراسة أن معظم شعراء الخوارج قد اشتركوا فيما لا يحصى من معارك الخوارج ضد أعدائهم ومناوئيهم.

وهذه هي أهم الأيام والوقائع وما قيل فيها من الشعر:

١ - يوم النهروان

كان علي بن أبي طالب على أهبة الاستعداد للتوجه إلى الشام، وفي نفس الوقت بلغـــه أن الخوارج قتلوا ابن الخباب (عبد الله بن الخباب الصحابي الجليل)، فلم يجد حينذاك بدا من السير إليهم ليفرغ منهم قبل التوجه إلى الشام، حتى لا يستفحل خطرهم ويستطير شرهم.

وبعد المحاورة والمناظرة لم يستطع الإمام علي إقناعهم وإرجاعهم عن رأيهم، وطلب منهم تسليمه قتلة ابن الخباب وغيره من المسلمين ليقتلهم بمن قتلوهم، ولكن الخوارج لم يستجيبوا له وقالوا: كلنا قتله وشرك في دمه وكلنا مستحل لدمائكم ودمائهم. (١)

وبعد هذا التقى الجمعان، ونشب القتال، وقاتل الخوارج ببسالة نادرة، ولكنهم في النهاية لاقوا مصيرهم المحتوم، وانتصر عليهم الإمام علي انتصارا حاسما، وقتل من زعمائهم، عبد الله بن وهب الراسبي، وزيد بن حصن الطائي،

(١) الخوارج في العصر الأموي، د. نايف معروف: ٩٣.

و « مالك بن الوضاح ».

يقول عبد الله بن وهب مرتجزاً يوم النهروان (١) :

أنا ابن وهب الراسبي الشـــارى
أضرب فى القوم لأخـذ الثـار
حـتى تزول دولة الأشـــرار
ويرجـع الحـــق إلى الأخيار

وقال أبو بلال مرداس بن أدية فى الخروج بعد مقتل الراسبي (٢) :

أبعد ابن وهب ذى النزاهة والتقى * ومن خاض فى تلك الحروب المهالكا
أحب بقاء أو أرجى سلامة * وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا
فيارب سـلم نيتى وبصيرتى * وهب لى التقى حتى ألاقى أولئكا

وكان ممن قتل يوم النهروان « العيزار بن الأخنس الطائى » أحد الخوارج ومن أشد فرسانهم ، وممن شهد يوم صفين وقاتل فيـــه . وكان قد خرج يوم النهروان بين الصفين وأنشأ يقول (٣) :

ألا ليتنى فى يوم صفين لم أؤب * وغودرت فى القتلى بصفين ثاويا
وقطعت آرابا وألقيت جثة * وأصبحت ميتا لا أجيب المناديا
ولم أر قتـــلى سنبس ولقتلهم * أشاب غداة البين منى النواصيا

---

(١) شعر الخوارج : ٣١ ، ٣٢ . (٢) المصدر نفسه : ٤٨ ، ٤٩ .
(٣) المصدر نفسه : ٣٢ ، ٣٣ .

ثمانون من حي جديلة قتلوا * على النهر كانوا يخضبون العواليا
ينادون لا لا حكم إلا لربنا * حنانيك فاغفر حوبنا والمساويا
هم فارقوا في الله من جار حكمه * وكل عن الرحمن أصبح راضيا
فلا وإله الناس ماهاب معشر * على النهر في الله الحتوف القواضيا
شهدت لهم عند الإله بفلجهم * إذا صالح الأقوام خافوا المخازيا
وآلوا إلى التقوى ولم يتبعوا الهوى * فلا يبعدن الله من كان شاريا

وكان «كعب بن عميرة» قد تمنى الخروج في يوم النهروان فحبسه أخوه، فقال يرثى من قتل من أصحابه، ويتمنى مثل مصيرهم (١) :

لقد فاز إخواني فنالوا التي بها * نجوا من عذاب دائم لا يفتر
أبى الله إلا أن أعيش خلافهم * وفي الله لي عز وحرز ومنصر
ويارب هب لي ضربة بمهند * حسام إذا لاقى الضريبة يبهر
فقد طال عيشي في الضلال وأهله * أخاف التي يخشى التقي وأحذر
أخاف صروف الدهر إني رأيتها * تروح على هذا الأنام وتبكر

ب ـ قتال النخيلة

لما قتل على بن أبي طالب أهل النهروان من الخوارج كان بالكوفة منهم زهاء ألفين ممن لم يخرجوا مع «الراسبي»، وقد تجمع هؤلاء وأمروا عليهم رجلا من طيء، وتواصوا فيما بينهم وتعاضدوا، وتأسفوا على خذلانهم أصحابهم.

(١) شعر الخوارج : ٦٠ .

وقد وجه إليهم علي بن أبي طالب عبد الله بن العباس داعية (١) وهم بالنخيلة فدعاهم ووفق بهم ولكنهم رفضوا ، فعاودهم فأبوا ، فخرج بنفسه إليهم وأخذ في قتالهم حتى قتلوا جميعا ، ولم يفلت منهم إلا خمسة منهم « المستورد » و « ابن جوين الطائي » و « فروة بن شريك الأشجعي » (٢) .

وفيهم يقول الأصم الضبي (٣) :

إني أدين بما دان الشراة به ٭ يوم النخيلة عند الجوسق الخرب

النافرين على منهاج أولهم ٭ من الخوارج قبل الشك والريب

قوما إذا ذكروا بالله أو ذكروا ٭ خروا من الخوف للأذقان والركب

ساروا إلى الله حتى أنزلوا غرفا ٭ من الأرائك في بيت من الذهب

ما كان إلا قليلا ريث وقعتهم ٭ من كل أبيض صافي اللون ذي شطب

حتى فنوا ورأى الرائي دروسهم ٭ تقصدو بها قلص مهرية نجب

فأصبحت عنهم الدنيا قد انقطعت ٭ وبلغوا الغرض الأقصى من الطلب

وفيهم يقول داود بن عقبة العبدي (٤) :

---

(١) أنظر مناظرة أهل النخيلة لابن العباس : الكامل للمبرد : ٣ / ٢٣٨ .

(٢) أنظر الكامل للمبرد : ٣ / ١٩٦ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٣) شعر الخوارج : ١٢٥ . والبيت الأول في الكامل للمبرد (٣ / ٢٣٧) منسوب لابن حطان . وانظر ترجمة الأصم في شعر الخوارج ١٢٥ .

(٤) شعر الخوارج : ١٩٢ ، ١٩٣ . وداود بن عقبة العبدي من عباد الخوارج المجتهدين (انظر ترجمته في شعر الخوارج : ١٩٢) .

إلى الله أشكو فقد فتيان غارة * شهدتهم يوم النخيلة والنهر
شهدتهم أسدا إذا الحرب شمرت * مساميح بهم بالمهندة البتر
أولئك إخواني منيت بهلكهم * فلهفي عليهم أن يروا آخر الدهر
مضوا سلفا قبلي وأخرت بعدهم * وحيدا لأقوام تنابلة خزر

ج ـ معركة يوم « آسك »

وكان الخوارج قد أمروا عليهم أبا بلال مرداس بن أدية ، ومضى أبو بلال بهم يريد خراسان وهم آنذاك لا يزيدون عن أربعين رجلا حتى نزل بآسك (١) عام ٦٠ هـ ، فجهز عبيد الله بن زياد جيشا من ألفين من رجاله لمواجهة أبي بلال بقيادة « أسلم بن زرعة » ، ولكن الخوارج حملوا عليهم حملة رجل واحد حتى انهزموا جميعا ، كما صور ذلك عيسى بن فاتك في أبياته (٢).

ثم جهز ابن زياد جيشا آخر للخوارج قوامه ثلاثة آلاف بقيادة عباد بن أخضر ، والتقى عباد بالخوارج يوم جمعة ، وظل القوم يقتتلون في عنف وضراوة حتى دخل وقت صلاة عصر الجمعة ، فتهادنوا جميعا كي تقام الصلاة ، لكن عباد شد هو وأصحابه على الخوارج وهم ما بين راكع وساجد فقتلوهم جميعا وأتى برأس أبي بلال (٣).

وقال عيسى بن فاتك يرثي أبا بلال ومن قتل معه في يوم آسك (٤) :

---

(١) مابين رامهرمز وأرجان . (٢) أنظر هذا الكتاب ص ١٣٩ ، ١٤٠ .
(٣) أنظر الكامل للمبرد : ٣ / ٢٥٣ وما بعدها . والكامل في التاريخ لابن الأثير : ٤ / ٩٤ ، ٩٥ . (٤) شعر الخوارج : ٥٦ ، ٥٧ .

ألا فى الله لا فى الناس شالت * بداود وإخـــوته الجذوع
مضوا قتلا وتمزيقا وصلبا * تحـوم حولهم طـير وقوع
إذا ما الليـــل أظلم كابدوه * فيسفر عنهم وهم ركوع
أطار الخـوف نومهم فقاموا * وأهل الأمن فى الدنيا هجوع
لهم تحت الظلام وهم سجود * أنين منـــه تنفرج الضلوع
وخرس بالنهار لطول صمت * عليهم من سكينتهم خشـوع
يعـالون النحيب إليه شـوقا * وإن خفضوا فربهم سميع

وفيهم يقول عمران بن حطان (١) :

أصبحت عن وجل منى وإيجـلس * أشكو كلوم جراح مالها آسى
ياعين بـكى لمرداس ومصرعـه * يارب مرداس الحقنى بمرداس
تركتنى هائمـا أبـكى لمرزئة * فى منزل موحش من بعد إيناس
أنـكرت بعد من كـنت أعرفه * ما الناس بعدك يامرداس بالناس
إما شربت بكأس دار أولهـا * على القرون فذاقوا جرعة الكاس
فـكل من لم يذقها شارب عجلا * منها بأنفـاس ورد بعد أنفاس
قد كنت أبـكيك حينا ثم قد يئست * نفسى فما رد عنى عـبرتى ياسى

ولمـا قتل الخوارج عبـاد بن أخضر قائد جيش عبيد الله بن زياد وقاتل أبى بلال مرداس ، تصدى أخوه علقمة لقتالهم فقتل من لقيه منهم ، ولم ينج

---

(١) شعر الخوارج : ١٤١ ، ١٤٢ .

إلا عبيدة بن هلال اليشكري ، فلقيه شرطي اسمه يحيى وتهدده فقال عبيدة (١):

قولوا ليحيى يستعد كتيبة * تجالد عن حوبائه حين يحضر
فما قليل سيف يلقى حمامه * كمثل الذي لاقاه عباد فاحذروا

د ـ معركة يوم دولاب (٢)

كان نافع بن الأزرق أمير الخوارج قد فرض على نفسه أن يمنع الحرم من جيش مسلم بن عقبة لما أراد مسلم أن يتوجه إلى المدينة (٣) .

وقد نتج عن غلو نافع بن الأزرق أن انقسمت الخوارج إلى أربع فرق . ويروى أن أبا الجلد اليشكري قال لنافع يوما : يا نافع . إن لجهنم سبعة أبواب وإن أشدها حرا للباب الذي أعد للخوارج . فإن قدرت ألا تكون منهم فافعل ، فأجمع القوم على الخروج فمضى بهم نافع إلى الأهواز في عام أربع وستين فأقاموا بها لا يهيجون أحدا ويناظرهم الناس » (٤) .

ولم يعد نافع إلى البصرة وظل يقيم بموضعه في الأهواز يعترض الناس ويقتل الأطفال ، ولما عظم أمره واشتدت شوكته أحدث ذلك ذعرا عند أهل البصرة مما جعلهم يشكون ذلك إلى الأحنف بن قيس ، فقال لهم الأحنف محرضا : إن سيرتهم في مصركم إن ظفروا به مثل سيرتهم في سوادكم فخذوا في

---

(١) شعر الخوارج : ٩١ ، ٩٢ . (٢) قرية من عمل الأهواز بينها وبين الأهواز نحو من أربعة فراسخ (الأغاني : ٦ / ٢٢٢٢ ، ط الشعب) .

(٣) أنظر الكامل للمبرد : ٣/٢٧٦ وما بعدها . (٤) المصدر نفسه : ٣/٢٨٣ .

جهاد عدوكم »(١) .

وانتهى الأمر بأن أرسل الأحنف جيشا من عشرة آلاف بقيادة « مسلم ابن عبيس » ، ولما نفذ ابن عبيس من جسر البصرة أقبل على الناس فقال : « إني ما خرجت لامتياز ذهب ولا فضة ، وإني لأحارب قوما إن ظفرت بهم فما وراءهم إلا سيوفهم ورماحهم . فمن كان من شأنه الجهاد فلينهض ومن أحب الحياة فليرجع »(٢) .

وفى جمادى الآخرة عام ٦٥ هـ تقابل الفريقان فى مكان على نهر الدجيل يقال له «دولاب» ، واقتتلوا فى عنف وشدة ، فكثر الجرحى والقتلى ، وقتل مسلم بن عبيس ونافع بن الأزرق .

وقد أجمع أهل البصرة بعد ذلك على الحجاج بن باب الحميرى ، وظل الحجاج يقاتل الخوارج بدولاب زهاء شهر . وقد التقى الحجاج بعمران بن الحارث الراسبي فاختلفا ضربتين قتل كل منهما فيها صاحبه ، وضعف القوم جميعا وهرب عامتهم .

تقول أم عمران ترثيه (٣) :

الله أيد عمرانا وطهره * وكان عمران يدعو الله فى السحر

يدعوه سرا وإعلانا ليرزقه * شهادة بيدى ملحادة غدر

ولى صحابته عن حر ملحمة * وشد عمران كالضرغامة الهصر

(١ ، ٢) الأغانى ٦ / ٢٢٢٣ ط الشعب . (٣) شعر الخوارج : ٧٣ .

أعنى ابن عمرة إذ لاقى منيته * يوم ابن باب يحامى عورة الدبر

ويرثى أحد الخوارج ابن الأزرق فيقول (١) :

شمت المهلب والحوادث جمة * والشامتون بنافع بن الأزرق

أن مات غير مداهن فى دينه * ومتى يمر بذكر نار يصعق

والموت أمر لا محالة واقع * من لا يصبحه نهارا يطرق

ورمى المهلب جمعنا بجموعه * لما أصبنا بالصبور المتقى

فلئن أمير المؤمنين أصابه * ريب المنون فمن يصبه يغلق

ولئن منينا بالمهلب إنه * لأخو الحروب وليث أهل المشرق

ولعله يشجى بنا ولعلنا * نشجى به فى كل ماقد نلتقى

بالسمر تختطف النساء ذوابلا * وبكل أبيض صارم ذى رونق

فيذيقنا فى حربنا ونذيقه * كل مقالته لصاحبه : ذق

وبما قيل من الشعر فى يوم دولاب ماقاله قطرى بن الفجاءة (٢) متوجها به إلى أم حكيم . وأبيات قطرى هذه تنطق بأن الخوارج قد رموا خصومهم بالكفر ، وهذا - أى الكفر - هو ماجعل الخوارج يستبيحون دماء خصومهم ويستعذبون الجهاد فيهم .

وبعد ذلك ولى أهل البصرة أمرهم لحارثة بن بدر الغدانى ، فحمل عليه وعلى أصحابه جماعة من الشراة وفر حارثة أمامهم وهو يقول (٣) :

---

(١) شعر الخوارج : ٧٢ . (٢) المصدر نفسه : ١٠٦ ، ١٠٧ ، وانظر هذا الكتاب : ١١١ ، ٦٧ . (٣) الأغانى : ٩ / ٢٤٢٦ ط دار الشعب .

كرنبوا ودولبوا * وحيث شئتم فاذهبوا (١)

وتتابع الناس على أثره منهزمين ، وتبعتهم الخوارج فألقوا أنفسهم في دجيل وغرق منهم خلق كثير وسلمت بقيتهم ، ولكن سرعان ما تجمع القوم وتمكنوا من كشف الخوارج وطردهم إلى الأهواز .

يقول شاعر الأزارقة في غرق الكثيرين من الأزد (٢) :

يرى من جاء ينظر من دجيل * شيوخ الأزد طافيــة لحاها

هـ - يوم سولاف (٣)

وظل حال الخوارج الأزارقة يتردد بين الهزيمة والنصر إلى أن فزع أهل البصرة من تقدم الخوارج نحوها ، فاجتمعوا وتقدموا إلى الأحنف بن قيس يطلبون مساعدته ، فكتب ابن الزبير إلى المهلب يأمره بالقدوم إلى البصرة للدفاع عنها ، ونهض من ثم المهلب لقتال الأزارقة .

وخرج المهلب لملاقاة الخوارج ومعه زهاء عشرين ألفا من جنوده ، فقام فيهم خطيبا وقال : « يا أيها الناس إنكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج ،

---

(١) كرنبوا : انزلوا كرنبى وهى موضع بالأهواز . ودولبوا : انزلوا بدولاب . (٢) الأغانى : ٦ / ٢٢٢٧ . ط الشعب . دجيل : نهـر بالأهواز حفره أردشير بن بابك أحد ملوك الفرس ، ومنبعه من أرض أصبهان ومصبه فى بحر فارس ، وكانت عند دجيل هذا وقائع للخوارج (الأغانى : ٦ / ٢٢٢٧ . ط دار الشعب) .

(٣) سولاف قرية غربى دجيل . (الكامل للمبرد : ٣ / ٣١٦) .

وأنهم إن قدروا عليكم فتنوكم في دينكم وسفكوا دماءكم، فقاتلوهم على ما قاتل عليه أولهم علي بن أبي طالب» (١).

وقد وجه المهلب ابنه المغيرة لمقاتلة الخوارج، ونزل الجميع بسولاف، وكان القتال فيها سجالا، وكثر القتلى الفريقين بها، وانكشف جيش المهلب، وكان هذا اليوم عقوبة ونكالا للمهلب (٢).

يقول أحد الخوارج يذكر يوم سولاف (٣):

كم من قتيل تنقر الطير عينه ✽ بسولاف غرته المنى والجعائل

ويقول آخر (٤):

وكائن تركنا يوم سولاف منهم ✽ أسارى وقتلى في الجحيم مصيرها

و ... يوم سلى وسلبرى (٥)

وبعد سولاف استصوب الأزارقة الانسحاب عبر النهر فتبعهم المهلب، والتقى الفريقان في سلى وسلبرى شرقي نهر دجيل في شوال عام ٦٦ هـ، وأمر المهلب جنده أن يرموا الخوارج بالحجارة لأنها تنفر الخيل وتصرف وجوهها وتحير الرجالة وتعقرهم (٦)، وكان الخوارج أحسن سلاحا من جنده، وقتل

---

(١) الكامل للمبرد: ٣ / ٣١٥. (٢) انظر المصدر السابق: ٣ / ٣١٦.

(٣) شعر الخوارج: ٧٨. (٤) المصدر نفسه: ٧٨.

(٥) موضعان بالأهواز شرقي نهر دجيل (الكامل للمبرد: ٣ / ٣٢٢).

(٦) يقول رجل من موالي المهلب: لقد صرعت يومئذ بحجر واحد ثلاثة. رميت به رجلا فأصبت به أصل أذنه فصرعته، ثم أخذت الحجر فضربت به آخر على هامته فصرعته، ثم صرعت به ثالثا (الكامل للمبرد: ٣ / ٣٢٦).

فى هذا اليوم عبيد الله بن بشير بن الماحوز ، ولكن المهلب انتصر فيه انتصارا حاسما بعد أن ظل الموقف يترجح طويلا بين الفريقين على نحو خطير .

وفى يوم سلى وسلبرى يقول أحد الخوارج (١) :

أتانا بأحجار ليقتلنا بها * وهل تقتل الأقران ويحك بالحجر

وقال آخر (٢) :

فإن تك قتلى يوم سلى تتابعت * فكم غادرت أسيافنا من قماقم

غداة نكر المشرفية فيهم * بسولاف يوم المأزق المتلاحم

ويروى أن رجلا من الخوارج حمل فى اليوم نفسه على رجل من أصحاب المهلب فطعنه ، فلما خالطه الرمح صاح : يا أمتاه ! فصاح به المهلب : لا كثر الله بمثلك المسلمين ! فضحك الخارجى وقال (٣) :

أمك خير لك منى صاحبا

تسقيك محضا وتعلى رائبا

وفى اليوم نفسه قال رجل من أصحاب المهلب بعد أن قتل عبيد الله بن بشير ابن الماحوز (٤) :

ويوم سلى وسلبرى أحاط بهم * منا صواعق ما تبقى ولا تذر

---

(١) شعر الخوارج : ٧٩ . والبيتان لعبيدة بن هلال . الكامل للمبرد : ٣ / ٣٢٧ .

(٢) الكامل للمبرد : ٣ / ٣٢٨ .

(٣) شعر الخوارج : ٧٩ . وانظر الكامل للمبرد : ٣ / ٣٢٧ .

(٤) الكامل للمبرد : ٣ / ٣٢٧ .

حتى تركنا عبيد الله منجدلا * كما تجدل جذع مال منقعر

وكتب أهل البصرة يهنئون المهلب على قتل «ابن الماحوز» أمير الخوارج وصار هذا اليوم بمثابة العقوبة والنكال للخوارج، ومضى فلول المهلب في هذا اليوم إلى البصرة، وشيع أنه قد أصيب، وظل الحال هكذا إلى أن ورد كتاب المهلب بظفره ونصره.

واجتمع الخوارج (بأرجان) وبايعوا الزبير بن على، وأخذ ينهض بمحاربة المهلب، ولما يئس من النيل منه ضرب إلى ناحية أصبهان ثم كر راجعا إلى أرجان.

ولم يزل المهلب يقاتل الخوارج حتى تولى مصعب بن الزبير أمر البصرة، فولى مصعب عمر بن عبيد الله على فارس فشخص عمر إلى الخوارج وهم بأرجان فقاتلهم وأخرجهم عنها وألحقهم بأصبهان.

وأخذ الخوارج يعدون له العدة وأتوا (سابور) فخرج إليهم عمر بن عبيد الله وحاربهم حربا شديدة قتل فيها ابنه عبيد الله بن عمر. وحين علم عمر بمقتل ابنه حمل على الخوارج هو وأصحابه وقتلوا منهم تسعين رجلا، وأصيب في وجه قطرى بن الفجاءة، وانهزمت الخوارج وولوا هاربين من فارس.

وفي هذه الموقعة يقول عمرو القنا مرتجزا (١):

اليوم عمرو وغدا عبيده

كلاهما شوكته شديده

---

(١) شعر الخوارج : ٨٨.

كلاهما غايتـــه بعيـــده
كلاهما طعنتـــه عنيـــده
كلاهما صعدته جـــريده
كلاهما وقعتـــه مبيـــده
كلاهما فـــراره مكيده

وسرعان ماتجمع الخوارج ورجعوا إلى ناحية أرجان فسار إليهم عمر حتى أخرجهم إلى أصبهان ، فأقاموا بها برهة ثم رجعوا إلى الأهواز .

ولما عزل مصعب بن الزبير وتولى مكانه حمزة بن عبد الله بن الزبير بادر بإرسال المهلب لمحاربة الخوارج ، وتمكن المهلب من إجلائهم عن الأهواز ، فخرجوا إلى الكوفة ، لكنهم سرعان ما انصرفوا عنها إلى أصبهان ، فالتقى بهم عتاب بن ورقاء الرياحى وظلوا يتقاتلون حتى طال على الخوارج المقام ولم يظفروا بكبير من عتاب .

يقول يزيد بن حبناء فى هذا اللقاء (١) :

صبحنا براز الروز منا بغارة * كورد القطا فيها الوشيج المقوم
وملنا على جانبى المدينة كردم * فأفلتنا فوت الأسنة كردم
ونجى ابن ورقاء الرياحى سابح * شديد مناط القصريين عشمثم
ونحن شفينا من يزيد صدورنا * ومن خيله، وصاحب الحرب مغشم

وظل الخوارج يهددون الأمن حتى عزم مصعب على توجيه المهلب إليهم

---

(١) شعر الخوارج : ٨٤ ، ٨٥ . وانظر ترجمة يزيد فى المصدر نفسه : ٨٤ .

ولكن الزبير بن على هم بالخروج إلى (الرى) وانتصر على يزيد بن الحارث ابن رويم ، ثم توجه الزبير إلى أصبهان وحاصر بها عتاب بن ورقاء ، ولما طال الحصار بعتاب خرج فى ألفين وسبعمائة فارس وقاتلوا الخوارج على غفلة وقتلوا الزبير بن على وانهزمت من ثم الخوارج .

وبايع الخوارج قطرى بن الفجاءة ، ورغب قطرى فى المسير إلى الأهواز ، فإن خرج مصعب بن الزبير من البصرة دخلها هو ، ولكن مصعبا قد أرسل إلى المهلب وأشار عليه بالخروج إليهم ، فخرج وحاربهم ونفاهم إلى (رامهرمز) (١) .

ولما تولى خالد بن عبد الله بن أسيد أمر البصرة عزم على عزل المهلب ، وأشير عليه ألا يفعل ذلك ، لأنه إن فعله فلا يأمن على البصرة الأزارقة . ولكنه أبى إلا عزله ، وقدم المهلب البصرة ، وخرج خالد إلى الأهواز فقاتل جيش قطرى بن الفجاءة مدة ثلاثين يوما ، ثم أقام قطرى بإزائه وخندق على نفسه فقال المهلب إن قطريا ليس بأحق بالخندق منه فعبر دجيلا إلى شق نهر « تيرى » (٢) واتبعه قطرى فسار إلى مدينة نهر تيرى فبنى سورها وخندق عليها ، وأقام قطرى يغاديهم القتال ويراوحهم أربعين يوما .

---

(١) رامهرمز : مدينة مشهورة بنواحى خوزستان (الأغانى : ٦ / ٢٢٢٩ ط دار الشعب) . (٢) تيرى : بلد من نواحى الأهواز ، ونهر تيرى حفره أردشير الأصغر بن بابك (الأغانى : ٦ / ٢٢٢٧ ط دار الشعب) .

وظل حال الخوارج يتردد بين النصر مرة والهزيمة مرة أخرى إلى أن انكشفوا عن الفرات وتبعهم المهلب إلى سوق الأهواز فنفاهم عنها ، ثم أتبعهم إلى رام هرمز ، وأبلى يزيد ابنه ضدهم بلاء حسنا .

يقول قطرى بن الفجاءة على إثر هزيمة المهلب للخوارج ونفيه لهم بعيدا عن الأهواز (١) :

لعمرى لئن كنا أصبنا بنافع * وأمسى ابن ماحوز قتيلا ملحبا
لقد عظمت تلك المصيبة فيهما * وأعظم من هاتين خوفى المهلبا
رمينا بشيخ يفلق الصخر رأيه * يراه رجال حول رايته أبا
نفاكم عن الجسر المهلب عنوة * وعن مصحح الأهواز نفيا مشذبا
وأنحى عليكم يوم اربل نابة * وكان من الأيام يوما عصبصبا
فلن تهزموه بالمنى فاصبروا له * وقولوا لأمر الله أهلا ومرحبا
فما الدين كالدنيا ولا الطعن كالمنى * ولا الضر كالسرا ولا الليث ثعلبا

ز - الحجاج والخوارج

وتولى الحجاج بن يوسف الثقفى أمر العراق فدخل الكوفة قبل البصرة ثم كتب إلى المهلب يطلب منه الجد فى قتال الخوارج . وحين علم قطرى بن الفجاءة بكثرة جنود المهلب قال لجنوده انهضوا بنا نريد السردن (٢)

(١) شعر الخوارج : ١١٦ .
(٢) السردن : موضع ببلاد فارس بإزاء كانعون .

فتحصن بها ، وخرج المهلب فى أعقابهم وعسكر بكازرون ، ودار القتـــال وانكشف أمر الخوارج وكثر فيهم القتلى ، كما كثرت الجراح ، وصار الأمر للمهلب عليهم .

ووجه الحجاج البراء بن قبيصة إلى المهلب يستحثه فى قتال الخوارج ، فخرج فرسان من أصحابه إليهم وظلوا يقاتلونهم ، وأمطرت السماء مطرا شديدا وهم بسابور ، فلما كان يوم النحر والمهلب على المنبر يخطب إذا بالخوارج يتألبون عليه ، فخرج لهم المغيرة بن المهلب وتبعه جماعة من فرسان المهلب .

يقول عمرو القنا فى ذلك اليوم (١) :

نحن صبحناكم غداة النحر

بالخيل أمثال الوشيج تسرى

يقدمها عمرو القنا فى الفجر

إلى أناس لهجوا بالكفر

اليوم أقضى فى العدو نذرى

ومدرك ما أرتجى بوترى

وكتب الحجاج إلى عتاب بن ورقاء الرياحى يأمره بالمسير إلى المهلب ، وقدم عتاب على المهلب وهو بسابور وكان بأيدى الخوارج كرمان وهم بإزاء المهلب فى فارس يحاربونه من جميع النواحى .

ثم خرج قطرى ورجاله إلى (اصطخر) وتحصنوا بها ، وأقاموا بها شهرا

(١) شعر الخوارج : ٩٠ ، ٩١ .

يحاصرهم فيه المهلب .

وقد ارتجز حطان الأيادى (١) شعرا فى مهاجمة جيوش المهلب للخوارج عند إصطخر ، يقول فيه (٢) :

أدعو بعباس وأدعو سعدا
وابن أبى الزناق أدعو عمدا
والعتكى اليحمدى جلدا
ما إن أرى من النزال بدا

ولما كان بعد شهر خرج الخوارج إلى المهلب وعزموا على المناجزة ، وخرج عمرو القنا على تل مشرف على أصحاب المهلب فنادي : يا أيها المحلون هل لكم فى الطراد فقد طال العهد به ثم قال (٣) :

ألم تر أنا مذ ثلاثين ليلة * جديب وأعداء الكتاب على خفض
وما هكذا (كنا) نكون وهذه * أضاقت على عمرو القنا سعة الأرض
وأحسبهم أمسوا على حذو نعلنا * فذاك بذاك القوم بعض على بعض

وعندئذ نشب القتال واشتد ، وأبلى المغيرة بن المهلب بلاء حسنا ، ووصل به المسار إلى وسط الأزارقة ، حتى حمل عليه عبيدة بن هلال اليشكرى فصرعه وهو يقول (٤) :

---

(١) من فرسان الأزارقة وشجعانهم ، وكان ذا بطش شديد ، لا يراه أحد إلا هابه وكره نزاله ، وقد برز له عباس الكندى فقتله (شعر الخوارج ٢٠٣)

(٢) شعر الخوارج : ١٠٣ . (٣) المصدر نفسه : ٩٠ .

(٤) شعر الخوارج : ٩٧ .

أنا ابن خير قومه هلال
شيخ على دين أبي بلال
وذاك ديني آخر الليالي

ولما تبين للحجاج أن المهلب قد تمكن من إضعاف قوة الخوارج ولى المهلب على خراسان ، ثم أرسل جيشا بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبي ليتعقب قطرى بن الفجاءة وأصحابه حيث كانوا ، واستطاع سفيان التغلب على قطرى والقضاء على خطورته ، كما تمكن من حصار عبيدة بن هلال اليشكرى فى أحد حصون الرى .

يقول أبو عبيدة (١) :

ذكرت الصغير وأشياعه * فيالك هما إلينا سرى
فياليتنى قبل هذا الحصار * ثويت بجيرفت فى من ثوى
وتحتى من الخيل ذوميعة * أجش هزيم إذا ماجرى

ح - معركة قديد (٢)

جرت هذه الموقعة عام ١٣٠ من الهجرة بين أبى حمزة الخارجى وأهل المدينة . وقد استطاع أبو حمزة أن يتغلب فى هذه الموقعة وأن يدخل المدينة ، وقد هرب أمامه الأمير الأموى عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك إلى الشام

---

(١) شعر الخوارج : ٩٩ . (٢) قديد : اسم موضع قرب مكة جرت فيه الموقعة بين أبى حمزة الخارجى وأهل المدينة عام ١٣٠ هـ (الطبرى : ٧ / ٣٩٣ ، دار المعارف ط ٤) .

وقتل من أهل المدينة سبعمائة ، كما قتل أميرهم عبد العزيز بن عبد الله ، وقد اتهمت قريش خزاعة أن يكونوا قد داهنوا الخوارج (١) .

ولما دخل أبو حمزة المدينة صعد على منبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وخطب في الناس خطبته المشهورة التي تشيد بتقوى رجاله وشجاعتهم وبعقيدتهم التي تمكنت من قلوبهم تمكنا راسخا (٢) .

ولعمرو بن الحصين قصيدة طويلة في وقعة قديد وأمر مكة (٣) . وقد استهلها بالخشية من الموت قبل إحراز النصر فقال :

ما بال همك ليس عنا بعازب * يمرى سوابق دمعك المتساكب

وتبيت تكتلىء النجوم بمقلة * عبرى تسر بكل نجم دائب

حذر المنية أن تجيء بداهة * لم أقض من تبع الشراة مآربي

فأقود فيهم للعدا شنج النسا * عبل الشوى أشران ضمر الحالب

متحدرا كالسيد أخلص لونه * ماء الحسيك مع الجلال اللاتب

أرمى به من جمع قومي معشرا * بورا أولى جبرية ومعايب

في فتية صبر ألفهم به * لف القداح يد المفيض الضارب

فندور نحن وهم وفيما بيننا * كأس المنون تقول هل من شارب

لنظل نسقيهم ونشرب من قنا * سمر ومرهفة النصول قواضب

---

(١) الطبرى : ٧ / ٣٩٣ وما بعدها . دار المعارف ط ٢ .

(٢) أنظر الطبرى : ٧ / ٣٩٥ - ٣٩٧ دار المعارف ط ٢ . والبيان والتبيين للجاحظ : ٢ / ١٢٥ .

(٣) شعر الخوارج : ٢٢٨ - ٢٣٠ .

ثم يصور ما حدث فى هذا اليوم فيقول :

بينا كذلك نحن جالت طعنة * نجلاء بين رهائب وترائب
جوفاء منهرة ترى تامورها * ظبتاه سنان كالشهاب الثاقب
أهوى لها بشق الشمال كأننى * خفض لتى تحت العجاج العاصب
يارب أوجبها ولا تتعلقن * نفسى المنون لدى أكف قرائب
كم من أولى مقة صحبتهم شروا * فخذلتهم ولبئس فعل الصاحب

وبعد أن يصف تقوى الخوارج وخشوعهم ، نراه يعود فيذكر بلاءهم وهم يدخلون مكة على إثر الانتصار ، فيقول :

قيدت من أعلى حضرموت فلم تزل * تنفى عداها جانبا عن جانب
تحمى أعنتها وتحوى نهبها * لله أكرم فتية وأشايب
حتى وردن حياض مكة قطبا * يحملن واردة اليمام القارب
ما إن أتين على أخى جبرية * إلا تركنهم كأمس الذاهب
فى كل معترك لها من هامهم * فلق وأيد علقت بمناكب
سائل بيوم قديد عن وقعاتها * تخبرك عن وقعاتها بعجائب

وشد رجل من الخوارج فى قديد فجعل يقاتل وهو يقول (١) :

وخارج أخرجه حب الطمع
فر من الموت وفى الموت وقع
من كان ينوى أهله فلا رجع

---

(١) شعر الخوارج : ٢٢١ .

وقالت امرأة المختار بن عوف ترتجز فى قديد (١) :

أنا ابنة الشيخ الكريم الأعلم
من سأل عن إسمى فإسمى مريم
بعت سوارى بسيف مخذم

ولم يلبث أبو حمزة الخارجى أن تقهقر أمام جيش عبد الملك بن محمد الذى قدم إلى المدينة فى العام نفسه ، وظل الفريقان يقتتلان اقتتالا شديدا فى مكة وقتل فيه أبو حمزة .

وفى قصيدة لعمرو بن الحصين(٢) تعد من مختار شعر العرب ، نراه يرثى فيها أبا حمزة ، ويتحسر على إخوانه الشهداء ثم يذكر بطولاتهم وشجاعتهم فيقول :

فى مخبتين ولم أسمهم * كانوا يدى وهم أولو نصرى
وهم مساعر فى الوغى رجح * وخيار من يمشى على العفر
حتى وفوا لله حيث لقوا * بعهود لا كذب ولا غدر
فتخالسوا مهجات أنفسهم * وعداتهم بقواضب بتر
وأسنة أثبتن فى لدن * خطية بأكفهم زهر
تحت العجاج وفوقهم خرق * يخفقن من سود ومن حمر
فتوقدت نيران حربهم * مابين أعلى البيت والحجر
وتفرجت عنهم كأنهم * لم يغمضوا عينا على وتر
صرعى نخاوية بيوتهم * وخوامع لحمانهم تفرى

(١) شعر الخوارج : ٢٢١ ، ٢٢٢ . (٢) المصدر السابق : ٢٢٣ - ٢٢٧ .

الفصـــل السادس

خصائص شعر الفروسية عند الخوارج

ونعني بالخصائص السمات العامة التي يتسم بها شعر الفروسية عند الخوارج في جملته والتي يتميز بها عن غيره من الشعر . وقد يتفق شعراء الخوارج في هذه السمات أو بعضها مع غيرهم من الشعراء الفرسان .

ومن أهم ما يلفت النظر أن شعر الفروسية بصفة عامة يتسم بطابع متميز عن غيره من الشعر ، لأن الشعراء الفرسان روحا خاصة في مقوماتها الذاتية ، ولهم أيضا شعور خاص تجاه أنفسهم وتجاه الناس والحياة . كذلك كانت لهم حياتهم وأساليبهم التي خاضوا بها تلك الحيـــاة والتي أثرت في نفوسهم ومشاعرهم . ومما يوضح هذا التميز أن شعر الفروسية في جملته لا يعدو تصوير حياة الفرسان ونفسياتهم ومشاعرهم .. ولا شك أن حيـاة الفرسان تتميز كل التميز عن حياة من عداهم من الناس .

ولا بد أن نتكلم أولا عن الطابع العـام الذي يتسم به شعر الخـوارج ، والذي يمكن اعتباره لدى الناقد الدقيق الحس من أهم العوامل التي تمـــيز شعرهم بصفة عامة عن شعر من عداهم ممن سبقوهم أو عاصروهم .

أولا : الخصائص الموضوعية

— ١ —

تختلف القصيدة الخارجية بصفة عامة في أغراضها عن غيرها من قصائد

العصرين الجاهلي والأموي ، فحين كانت القصيدة الجاهلية ـ ومثلها الأموية بشكل عام ـ تتعدد فنونها وأغراضها فإن شعر الخوارج كله يكاد يذهب في عدة موضوعات محددة تلتقي جميعها في الجهاد في سبيل المبدأ والعقيدة ، فشعرهم في مجموعه يسجل أحداثهم التاريخية ، ويصور حروبهم ، ويمجد بطولاتهم ، ويشيد بشجاعتهم وتفانيهم في الاستشهاد وطلب الثواب .

ولم يذهب شعرهم هذا المذهب إلا لأنهم عاشوا حياتهم كلهـــا يحاربون خصومهم ، فكان لزاما أن تطبع هذه الحياة شعرهم بطابع متميز ، فهو شعر ثوار يستعذبون الموت ، غير آبهين بالحياة الدنيا ، وهو شعر حماسي من جميع نواحيه ، يتحمس للعقيدة والمبدأ .

وعلى هذا فمن يراجع شعر الخوارج يتبين له أن فنون الشعر عند شعرائهم تكاد تخلو من الموضوعات التقليدية ، فلم يتحدث شاعر منهم عن الخمر ، ولم يتخذها موضوعا ولا غرضا ، وتخلى شعر المديح عندهم عن وظيفته التقليدية ، واستحال المدح عندهم إلى ثناء عـــلى الشراة أنفسهم ، والإشادة بزعمائهم وتمجيد مآثرهم ، فهم الأسود شجاعة وهم الأحبار خشوعا .

كذلك كان الهجاء ، فقد أصبح فيما بينهم نقدا لروح التخاذل والإخلاد إلى الدعة ، وكان هجاؤهم لغيرهم يسير وفق العقيدة التي يعملون من أجلها وفي إطار الأهداف السياسية التي يسعون لتحقيقها ، فهجوا من ثم من يخالفهم في الرأي والاجتهاد ، ورموهم بعصيان الله وغضبه ، ولم يبق هنا لك إلا أثارة يسيرة من هجاء فردي .

كما خلا شعرهم من الغزل التقليدى ، بحيث لا نجد الهيام بالمرأة غرضا فى أشعارهم ، وإن ورد فى شعرهم غزل فإنما يكون عابرا . وخلا كذلك من الفخر التقليدى الذى يفيض مباهاة وتهويلا ومبالغة ، واقتصر شعر الرثاء عندهم على أولئك الذين ضحوا بأنفسهم خدمة لعقيدتهم .

. . وهذا اتجاه فى الشعر لم نألفه عند معاصريهم من شعراء الفرق الإسلامية الأخرى ، كما لم نألفه عند الشعراء السابقين ، فالشاعر الخارجى يدور فى أكثر شعره حول غرض واحد ومعنى واحد وغاية واحدة .

وغايتهم الشهادة فى سبيل العقيدة والمبدأ الذى ملك عليهم قلوبهم ونفوسهم ، هكذا نجدهم فى مديحهم وفى فخرهم وفى رثائهم وفى هجائهم . وما جاء به شاعرهم قطرى بن الفجاءة من نسيب فى قصيدة يوم دولاب إنما كان وسيلة لغاية واحدة . وهى تصوير شجاعة الخوارج وتفانيهم فى سبيل عقيدتهم .

وليس فى خلو شعر الخوارج من هذه الموضوعات التقليدية غرابة ، وأعتقد أن هذا لا يعود لشىء بقدر ما يعود إلى طبيعة جماعة الخوارج ذاتها ، فحياتهم حياة صعبة لم يتوفر لها الترف ، فضلا عن أنهم لم يكونوا يملكون ما يترفون به ، فهم قوم ليسوا من أصحاب الثراء والجاه والسلطة .

- ٢ -

وهناك من الفرسان من تمثلت فروسيتهم فى الخروج إلى الصيد وإجادة الرمى والافتتان فيه ، والاتصاف بصفات خاصة وتقاليد وأزياء معينة .

وإذا كان البعض يعتمد على الصيد للهواية والتسلية ، أو كمورد لكسب الرزق وتحصيل القوت ، فلعل الباعث عليه عند آخرين هو أنه مجال يتحدثون فيه عن أنفسهم ويذكرون فيه مفاخرهم ، ويتخذون من مزاولته مجالا لإظهار فروسيتهم وحسن بلائهم وشدة عدوهم على فرس يلتقونه من خير الجياد وينعتونه بكريم الصفات . ولا غرابه فالصيد فى وقت السلم كانت العرب تعده ضربا من ضروب الحرب ، فهم يتدربون من خلاله على ركوب الخيل والتفنن فى ألوان الكر والفر ، وكيفية الاحتيال على الخصوم والتغلب عليهم .

وكان الطرد عند كثير من الفرسان من أهم ضروب الرياضة ومن أحبها لأنفسهم سواء فى الجاهلية أو الإسلام ، وليس من شاعر مشهور فى الجاهلية إلا وتغنى بأوقات خروجه للصيد ، لأنه يجد فى الصيد متعة ويحس فيه بلذة ، ولولا ذلك لما أقبل فيما أظن على الصيد ذوو السلطان وأصحاب الشأن الرفيع .

وامرؤ القيس يعد سابقا للشعراء فى هذا المجال ، وشعره فى الصيد يدل على اهتمامه بتلك الرياضة ، والمتصفح لديوانه يلمس عنايته الفائقة بالصيد وسر تعلقه به ، حتى إنه تعرض له بالذكر فى معظم قصائده ، وعد ممارسته له مفخرة من مفاخره التى تستحق التسجيل .

يقول عن فرسه (١) :

وبات عليه سرجه ولجامه * وبات بعينى قائما غير مرسل

---

(١) ديوان امرىء القيس ، تحقيق أبو الفضل : ٢١ ، دار المعارف الطبعة الثالثة .

ويصور نفسه بصائد عنك خبير ، ويعد ذلك من دلائل شجاعته وفروسيته فيقول (١) :

ذعرت به يوماً فأصبحت قانصاً ⁂ مع الصبح موشى القوائم مقفرا

وإلى جانب ما يحفل به الصيد من متع ولذات فإنه يعد مجالا رحبا ينفذ من خلاله الشعراء للحديث عن أنفسهم وذكر مفاخرهم ، ومع هذا فلئن كانت المهارة في الصيد ومقاتلة الوحوش وإحكام الرماية دليل التفوق في الفروسية فإن الغرض من الصيد آنذاك كان مجرد الترف واللذة ، وقد صرح بذلك امرؤ القيس نفسه .

ففي إحدى قصائده نراه يذكر أن اللذة التي يجدها في الصيد تعادل ما داوم عليه من لذات أخرى كصاحبة النساء والتحبب إليهن . يقول ويكني عن ذكر الصيد بلفظ اللذة (٢) :

كأني لم أركب جواداً للذة ⁂ ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

وزهير بن أبي سلمى من الشعراء الذين اتخذوا من الحديث عن الصيد مجالا لإظهار شجاعتهم وفروسيتهم والافتخار بجرأتهم وشدة بأسهم ، كذلك اتخذ من الحديث عن الإعداد لمراحل رحلة الصيد مجالا واسعا يتحدث من خلاله عن فروسيته . ومن ينظر قصيدته التي مطلعها (٣) :

(١) ديوان امرىء القيس : ٢٦٨ . (٢) المصدر نفسه : ٣٥ .

(٣) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى : ١٢٤ . نشر الدار القومية للطباعة ، القاهرة ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م .

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله * وعرى أفراس الصبا ورواحله

يرى فيها تصوير هذه المواقف تصويرا بلغ الغاية فى الإتقان والجمال .

أما جماعة الخوارج فقد تأتى لهم أن يحتفظوا بنقاوة طباعهم فلم تفسدها الحضارة ولا الترف ، وفروسيتهم من ثم لا تمت لهؤلاء المترفين بصلة ، لأن حياتهم جادة لا تحتمل ترفا ولا لينا ، وهم لم يملكوا مايترفون به ، لأنهم ليسوا من أصحاب الثراء والسلطة ، وقد ظلوا على فطرتهم السليمة لا تعوزهم الصرامة ولا الصراحة ، وأخذوا أنفسهم أخذا شديدا فى اعتناق عقيدة لا تعرف الهوادة ولا الدنية ، ولا تصطنع التقية .

وقد شهدت لهم الأجيال بالبراعة فى فنون الفروسية ، لأنهم لم يأخذوا منها وجها واحدا كما كان الحال عند هؤلاء المترفين ، وإنما أخذوا كل نواحيها ، وتفوقوا فى جانب منها وهو الحرب وشئون القتال ، ولذلك اتسم أسلوب شعرهم بالجزالة والقوة ، ففيه من صلابتهم وحماستهم وإقدامهم وصراحتهم .

ثانياً : الصدق الفنى فى نقل التجربة

العاطفة عنصر هام من عناصر الأدب ، وركن أساسى من أركانه ، بل هى عماده ، وهى التى تمنحه صفة الخلود (١) .

والعاطفة هى التى توجه خيال الشاعر ، وتدفعه إلى إنتقاء الألفاظ واختيار صور القول ، ثم هى التى تجعل الشعر صورة صادقة لنفس الشاعر

(١) النقد الأدبى ، أحمد أمين ، جـ١/ ٤٢ . النهضة المصرية ، الطبعة الرابعة .

وقطعة من حياته ، وتكشف عن تجربته بوضوح .

وأول مايتميز به الشعر القوى الصادق أنه تعبير عن عاطفة تجيش بنفس الشاعر ، أما الشعر الضعيف فهو الذى لا ينبع من عاطفة ، وهو شعر يأتى كله زائفا تعوزه الحرارة .

ويعرف نقاد الأدب التجربة بأنها الصورة الكاملة النفسية أو الكونية التى يصورها الشاعر حين يفكر فى أمر من الأمور تفكيرا ينم عن عميق شعوره وإحساسه ، وفيها يرجع الشاعر إلى اقتناع ذاتى ، وإخلاص فنى ، لا إلى مجرد مهارته فى صياغة القول ليعبث بالحقائق أو يجارى شعور الآخرين لينال رضاهم » (١).

والشاعر الحق هو الذى تتضح فى نفسه تجربته ، ويقف على أجزائها بفكره ويرتبها ترتيبا قبل أن يفكر فى الكتابة . والتجربة الشعرية يستغرق فيها الشاعر لينقلها إلينا فى أدق مايحيط بها من أحداث العالم الخارجى ، فتتمثل فيها الحياة وألوان الصراع التى تتمثل فى النفس أو الفرد إزاء الأحداث التى تحيط به » (٢) .

والتجربة شرط لازم فى الشعر ، فالشعر الذى يعبر عن تجربة الشاعر وواقعه يكون صادقا كل الصدق . وفى الشعر يقول الأستاذ أحمد الشايب : « وخلاصة ما يقال فيه أن يكون تعبيرا صادقا عن العقل والشعور حتى

(١) النقد الأدبى د . غنيمى هلال : ٣٨٤ . دار النهضة المصرية ، الطبعة الرابعة ١٩٦٩م . (٢) المصدر السابق الصفحة نفسها .

يستطيع نقـــل ما فى نفس الشاعر إلى نفس القارىء ويضمن بذلك التهذيب والتأثير » (١) .

وصدق التجربة هو الذى يضفى عـــلى الأدب رونقا سليما ، وهو أقصى ماينتظره الناقد من الأديب . وقد رأى ابن رشيق فى هذه الصفة مزية يرتفع بها الشعر إلى قمة الجودة فقال : « وأحسن الوصف مانعت به الشىء حتى يكاد يمثله عيانا للسامع » (٢) .

وشعر الخوارج فى جملته لم يتجاوز حياة الشعراء الفرسان ومشاعرهم نحو حياتهم ، فهو يصور واقعهم الذى يعيشونه ، ويصور إحساسهم بهـــذا الواقع ، فهو شعر ذاتى استوحوه من حياتهم الشخصية ومن أحاسيسهم ومشاعرهم نحو هذه الحياة ، فهم لا يتحدثون عن شىء لذات هذا الشىء ، وإنما يتحدثون عنه من حيث علاقتهم بهذا الشىء ، وحين يتحدثون عن الأمور التى يعنيهم الحديث فيها فإننا نجـــد حديثهم تجربة حقيقية لما يحسونه ولما يرونه حولهم . ولولا مايندفع فى شعر الخوارج من صدق العاطفة وحرارة الشعور لأحسسنا بالسأم ، لأنه ليس هناك فارق كبير بينهم فى المعانى ولا فى الصياغة .

وكون شعر الخوارج تجربة حقيقية أمر لايحتاج إلى توضيح ، فلو رجعنا إلى الأغراض الشعرية التى نظموا فيها لوجـــدناها تصويرا لواقعهم الذى يعيشونه ، ولوجدنا التصوير نفسه واقعيا ، فالموضوع واقعى وتصويره أيضا

---

(٢) أصول النقد الأدبى : ٣٠٢ . النهضة المصرية . الطبعة الثامنة ١٩٧٣ م .

(٢) العمدة : ٢/ ٢٩٤ .

واقعى ، وقد ألجأتهم حياتهم إلى أن يكون شعرهم واقعيا ، يقولون الشعر فيما يعيشونه ويفعلونه لا فيما يتصورونه ويتخيلونه ، ولذلك قل فى شعرهم الحديث عن الحب ، وما ورد من غزل فى أشعارهم إنما كان القصد منه هو الحماسة والحرب والشجاعة .

وإذا قلنا إن شعراء الخوارج الفرسان لم يقولوا شعرهم لذات الشعر ، وإنما يقولونه لأنفسهم حتى صار أشبه مايكون بالمذكرات الشخصية التى يسجل فيها الشخص خواطره ومشاعره ومشاهداته فى نطاق حياته ومعيشته وصلاته وصراعه مع من حوله .. حين نقول ذلك فإننا نؤكد أن شعر الفروسية يمثل حقيقة التجربة الشعرية فى أصدق صورة فنية ترجى من شاعر ، وأن شعرهم بلغ فى هذه الناحية أقصى ماينتظره النقد من صدق التجربة وصدق الشاعر فى نقلها .

وشعر الخوارج يدور حولهم فيصور إيمانهم ويفخر بتضحياتهم وبانتصاراتهم ، ولما كان شعرهم وحى جهادهم ذهبت الكثرة الكثيرة منه فى تصوير حروبهم وتمجيد بطولاتهم وشجاعتهم ، واستعذاب الموت والتضحية فى سبيل معتقدهم ، ولذلك يصح لنا أن نقول دون أدنى غرابة إننا نقرأ أشعار الخوارج فنحس كأننا نراهم ونرى حياتهم وظروفهم ، ونلمس بحواسنا البواعث التى ساقتهم إلى هذا اللون من الشعر .

وموضوعات شعر الفروسية عند الخوارج موضوعات خاصة بهم من حيث أنهم أحسوها ، وصارعوا ظروفها ، وعبروا تعبيرا حقيقيا عما كانوا

عليه بالفعل ، فشعرهم يمثل بحق حياتهم الحـــربية وآمالهم العريضة التي من أجلها قاموا بتلك الحروب ، وخاضوا تلك الأحداث القاسية .

فالشجاعة والمروءة والنجدة وقسوة الحياة .. كل هذا عاناه شعراء الخوارج معاناة حقيقية ، ونحن لا ننكر عليهم هذه المعاناة ، ذلك لأنها جاءت منسجمة مع نفسيتهم الثائرة الأبيـــة المستهينة بكل شيء المحتقرة لـكل شيء من حطام الدنيـا .

ويتجلى الصدق العاطفى فى رثاء عمران بن حطان لأبى بلال مرداس ، فلقد أحبه وأعجب به وتمثله كما تمثل فروسيته ، وضاقت به الدنيا بعد رحيله عنها .

يقـــول (١) :

لقد زاد الحيـــاة إلى بغضا * وحبا للخـــروج أبو بلال

وعروة بعـــده سقيا ورعيا * لعروة ذى الفضائل والمعالى

أحاذر أن أموت على فراشى * وأرجو الموت تحت ذرى العوالى

فالأبيات وصف لتجربة حقيقية مر بها الشاعر وعاناها ، وهى تثبت حزنا صادقا على فقد عزيز استحالت الدنيا بعده إلى دنيا موحشة . وصدق الشعور هنا هو الذى كسى الأبيات هـــذا التأثير ، وهو الذى أوحى بتتابع جرسها الحزين .

وحين نقرأ أبيات قطرى بن الفجاءة (٢) :

---

(١) شعر الخوارج : ١٤٢ .   (٢) المصدر نفسه : ١١٢ .

لا يركنن أحد إلى الإحجام * يوم الوغى متخــوفا لحمام

فلقد أراني للرماح دريئــة * من عن يميني مرة وأمامي

حتى خضبت بما تحدر من دمي * أكناف سرجي أو عنان لجامي

ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب * جذع البصيرة قارح الإقدام

متعرضا للموت أضرب معلما * بهم الحروب مشهر الأعلام

أدعو الكماة إلى النزال ولا أرى * نحر الكريم على القنا بحرام

يخيل إلينا أننا نرى بطولته وشجاعته وإقدامه ، بل إن البيت الواحد من هذه الأبيات ليطلعنا على صورة من حياة قطرى بن الفجاءة كفارس ، ويشرف بنا على معيشته فنعلم منه أنه يعيش حياة الفروسية .

ولعل الظاهرة التى تسترعى النظر أن أدب الخوارج بصفة عامة يتمثل فيه الصدق ، ومعظم شعراء الخوارج كانوا من زعماء المذهب الخارجى ومن أساطين الدعاة لهذا المذهب ، وكان بعضهم من أرباب السيف ، ولعل هذا هو السبب فى أن جاء شعرهم خلاصة تجربة ذاتية حية بعيدا عن التكلف والرياء وخرج فى جملته ملتهبا متدفقا ، تشع منه استهانتهم بالحياة ، والإسراع إلى الموت فى ميدان الجهاد .

وقد أحس خصوم الخوارج بنفاذ قولهم إلى القلوب ، وشهدوا لهم بذلك وتخوفوا من تأثيرهم على الناس(١) ، ولعل أهل الحديث قد فطنوا إلى ناحية

---

(١) أدب السياسة فى العصر الأموى د . أحمد الحوفى : ٢٢٨ .

الصدق بصفة عامة عند الخوارج فعدوهم أصدق أهل الأهواء حديثا (١) .

يضاف إلى ذلك أن شعر الخوارج فى أكثره لم يكن يخاطب العقول والأفهام ، وإنما كان يخاطب المشاعر والوجدان . وخرج شعرهم نتيجة لهذا تعبيرا عن مشاعرهم وأحاسيسهم لا عن عقائدهم وتعاليمهم . . ولهذا فمن السهل على من يقرأ أشعارهم أن يتبين منها قوة مشاعرهم الدينيـــة ، وأن يرى فى مجموع شعرهم صورتهم المثالية وما تميزوا به من طول جهاد وتعبد .

وكان لهذا الطابع من الصدق الفنى أثر واضح فى خلق التشابه والتكرار فى شعر الخوارج حتى أشكلت نسبة كثير من شعرهم إلى أصحابه الحقيقيين ، واختلفت الروايات حول نسبة بعض الشعر لشاعر أو لغيره . والمتتبع لهذا الخلاف يجد أنه قد مس معظم شعراء الخوارج .

فقد اختلف الرواة فى قول قطرى بن الفجاءة (٢) :

لعمرك إنى فى الحيـــاة لزاهد * وفى العيش ما لم ألق أم حكيم
ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت * طعان فتى فى الحرب غير ذميم

فمن الرواة من يرويه لقطرى ، ومنهم من يرويه لعمرو القنا ، ومنهم من يرويه لحبيب بن سهم التميمى ، ومنهم من يرويه لعبيدة بن هلال اليشكرى .

يقول صاحب الأغانى : « ذكر المبرد أن الشعر - يريد البيتين المذكورين -

---

(١) تهذيب التهذيب ، ابن حجر العسقلانى : ٨ / ١٢٧ . حيدر آباد ١٣٢٧ هـ.
(٢) شعر الخوارج : ١٠٦ .

لقطرى بن الفجاءة ، وذكر الهيثم بن عدى أنه لعمرو القنا ، وذكر وهب بن جرير أنه لحبيب بن سهم التميمى ، وذكر أبو مخنف أنه لعبيدة بن هلال اليشكرى ، وذكر خالد بن خداش أنه لعمرو القنا أيضا » (١) .

ومن أمثلة الخلاف فى نسبة الشعر ما قيل فى قول قطرى بن الفجاءة أيضا (٢) :

إذا قلت تسلو النفس أو تنتهى المنى * أبى القلب إلا حب أم حكيم
منعمة صفراء حلو دلالها * أبيت بها بعد الهدو أهيم
قطوف الخطى مخطوطة المتن زانها * مع الحسن خلق فى الجمال عميم

يقول صاحب الأغانى : « الشعر - أى هذه الأبيات - مختلف فى قائله ، فمن الرواة من يرويه لصالح بن عبد الله العبشمى ، ومنهم من يرويه لقطرى بن الفجاءة ، ومنهم من يرويه لعبيدة بن هلال اليشكرى » (٣) . وإن كنت أرى أن هذا الشعر والذى سبقه يترجح كونه لقطرى ، لأن أم حكيم عرفت به وعرف بها ، ومن المستبعد أن يقول فيها مثل هذا الشعر إلا حبيبها المرموق .

ولعل السبب فى خلق التشابه والتكرار فى شعر الخوارج وإشكال نسبة كثير من هذا الشعر إلى أصحابه الحقيقيين ، أن أكثر ما عبر عنه شعراء الخوارج محدود مشترك بينهم جميعا ، فهم يتغنون بعاطفة واحدة ، وينزعون

---

(١) الأغانى : ٦ / ٢٢٢١ . ط الشعب .   (٢) شعر الخوارج : ١٠٨ .
(٣) الأغانى : ٦ / ٢٢٢٠ . ط الشعب .

إلى هدف واحد قصروا شعرهم عليه وهو فناؤهم فى عقيدتهم وخضوعهم لسلطانها وقصرهم اهتمامهم عليها . . ولا عجب ! فالمشرب الذى شربوا جميعا منه واحد ، فلم تتميز من ثم شخصياتهم ولم تتباين ، وكانوا على قوة المشابهة لدرجة أن ظهر شعرهم وكأنه صور متعددة لنمط واحد (١) .

والحق نقول إن هناك صورة أخرى من الاختلاف ، وهى أننا نجد بعض أبيات لشاعر من شعراء الخوارج قد انبثت فى شعر شاعر خارجى آخر ونسبت إليه . ومن صور الاختلاف التى لاتخلو من غرابة أننا نرى القصيدة المختلف فى نسبتها قد وردت فى صور مختلفة من حيث ألفاظها وترتيب أبياتها وبعض عباراتها . وخير مثال لذلك قصيدة « يوم دولاب » لقطرى بن الفجاءة (٢) .

وهذا التشابه والتكرار لايغض من شأن شعر الخوارج ، كما لاينقص من درجة الصدق والإخلاص فيه ، لأنه ليس تكرارا بالتقليد أو استدعاء لنموذج شعرى غالب ، ثم إن الشعر لم يكن يمثل عندهم فنا ينقطعون له أو يتنافسون فى تجويده ، فهم فى غنى عن تقليد السابقين أو مجاراة المعاصرين ، لأن حياتهم قد وفرت لهم مادة غزيرة لفنهم استلهموها ولم يشتغلوا بغيرها .

والذى يؤكد هذا ويقويه أننا نجد شعرهم يمثل الحياة الشخصية لكل منهم فحين نقرأ شعر شاعر منهم فإننا نستشف منه حياة صاحبه ومذهبه فى الحياة

(١) انظر الفرق الإسلامية فى الشعر الأموى د . نعمان القاضى : ٤٥٥ وما بعدها . دار المعارف ١٩٧٠ . (٢) انظر المصدر السابق : ٤٥٥ - ٤٥٨ .

وأسلوب معيشته . ولسنا فى حاجة - حين نود أن نعلم حياة الشاعر منهم وظروفه - إلى أن نستقصى شعره كله ، وإنما يكفى أن نلم بقدر من شعره فنعلم منه تفاصيل حياته ، وليس ببعيد عنا ماصنعه المؤرخون من اعتمادهم على شعر الخوارج فى استنباط أخبارهم وأحداث حياتهم وظروفها .

وعلى ذلك فلا عيب على شعر الخوارج أن يكون قد صدر فى مواقف وأحداث بعينها ، وإنما العيب ألا يكون الصدق ملازما لانفعال الشاعر منهم وأن يأتى شعره فلا ندرى أهو له أم لغيره ، أو أن يكون شعرهم تلبية للحزبية ومجاراة لأوضاع سياسية من غير أن يكون لهذه الأحداث أثر فى عواطفهم وأحاسيسهم .

ولعل الذى دفعنى إلى هذا الموضوع أن كثيرا مما نظمه شعراء الخوارج كان قد صدر فى مواقف وأحداث بعينها . وعلى هذا فإنى أرى أن شعر المناسبات والمواقف كأى شعر ، فإن انبثق عن عاطفة صادقة جاء شعرا قويا يقبله الذوق ويرضى به ، ولا ضرر عليه أنه فى المناسبة ، فكل الشعر العاطفى الصادق إنما تدعو إليه مناسبة من المناسبات العاطفية من حب وإعجاب وغير ذلك من العواطف التى هى البواعث الحقيقية للشعر ، فالشعر الصادق هو ما كان مرآة لعصره ، وسجلا لبيئته وديوانا لأيامه ، وتعبيرا لأحاسيس قائليه »(١) . وطبيعة الأديب الوظيفية تسمح له بالحرية فى تناول مايتراءى

(١) التجديد فى الأدب المصرى الحديث د . عبد الوهاب حوده : ١٢٠ . دار الفكر العربى - الطبعة الأولى .

فى نفســه (١) .

وفوق ذلك فكثير من شعر الخوارج فى المناسبات والمواقف نرى الشاعر فيه يطغى على المناسبة ويسمو فوقها ، ولا يبدو أمام القارىء أثر للمناسبة ، وإنما يجد حظ العاطفة والوجدان والتجربة الشعرية أكبر بكثير من حظ المناسبة والظروف الطارئة ، ذلك لأن المناسبة قد هزت وجدان الشاعر وأثارت شاعريته ، فبدا وكأن نفسه تتحرك بإلهام منه لا بإلهام خارجى عنه . ثم إن المناسبات قد أتت آنذاك متوافقة مع شعراء الخوارج ودوافعهم النفسية ، وكل ما للمناسبة من دور أنها حركت فحسب التجربة التى بداخل الشاعر ، ولا شك أن الخوارج كانوا غلاة فى عقيدتهم ، وكانوا كذلك غلاة فى حربهم ، فكم خربت لهم دور وكم سفكت لهم دماء ، حتى قست قلوبهم فى سفك الدماء والتخريب وغلظت أكبادهم فى الحرب وفنونها .

ولا شك أن المناخ العام فى عصر بنى أمية كان مجالا رحبا يتسع لقوة العاطفة وصدقها ، فالعصر عصر أحزاب سياسية حقيقيــة ، وقد نشط كل حزب فى محاربة الأحزاب الأخرى ومحاولة إجهاضها والنيل منها . والخوارج لهم باع طويل فى هذا الصراع ، فمن ثم كان ميدانهم فى الشعر أرحب وأوسع وهذا هو السبب فى تأجج العاطفة عندهم حتى خرج شعرهم وكأنه قطعة منهم ومن حياتهم ، تتجلى فيه التجربة وتتمثل فيه أحداث العصر ، ولقوة

(١) قضايا النقد الأدبى الحديث د. محمد السعدى فرهود : ١٥٦ . دار الطباعة المحمدية ، الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م .

العاطفة عند كثير من شعرائهم خرجت طريقتهم فى الوصف تمتاز بالتصوير الذى الجميل .

ومن ينظر إلى قول قطرى بن الفجاءة (١) :

أقول لها وقد طارت شعاعا * من الأبطال ويحك لن تراعى

فإنك لو سألت بقاء يوم * على الأجل الذى لك لم تطاعى

فصبرا فى مجال الموت صبرا * فما نيل الخلود بمستطاع

ولا ثوب البقاء بثوب عز * فيطوى عن أخى الخنع اليراع

سبيل الموت غاية كل حى * فداعيه لأهل الأرض داعى

ومن لا يغتبط يسأم ويهرم * وتسلمه المنون إلى انقطاع

وما للمرء خير فى حياة * إذا ما عد من سقط المتاع

يرى زحام الأبطال وحومة النضال ، ويرى حربا مشتعلة بين الشاعر وبين نفسه . وهذه الأبيات مع قلتها تعطينا صورة صحيحة لفروسية الخوارج وكفاحهم ، كما تعطينا مبدى ما لدى شعرائهم من روعة فى وصف المعارك والحروب ، ولصدق العاطفة فى القصيدة خرجت أبياتها متوالية لا يند فيها بيت عن جاره .

وليت شعرى ماذا يضر مثل هذا الشعر لو كان فى المناسبات والمواقف ، أليس كل ما نخلع عليه من إحساسنا ، ونفيض عليه من خيالنا ، ونتخلله بوعينا ، ونبث فيه من هواجسنا وأحلامنا ومخاوفنا هو شعر وموضوع للشعر

(١) شعر الخوارج : ١٠٨ ، ١٠٩ .

لأنه حياة وموضوع للحياة ! (١) .

ولئن كان الشعر رسالة للحياة فما الحياة إلا مجموعة مناسبات ، ولا ضرر على هؤلاء الشعراء أن يكتبوا فى المناسبات وبخاصة أن أحدا لم ينتدبهم ، وإنما هم الذين صرفوا أنفسهم إلى هـــذا الشعر وآثروا أن يصوروا العصر وصراعاته وأحداثه اليومية . أما غير هؤلاء الشعراء ممن جاء شعرهم من مقتضيات المقام فهم قد رجعوا بالشعر إلى الجمود حين قصروه على المناسبات وجعلوه وقفا عـلى الأحداث وبعض ماتتزين به حفلات التأبين ، والشاعر آنذاك قد انصرف إلى تملك شعور الجماعة فهو يرضى سامعيه قبل أن يمـــر بخاطره إرضاء نفسه (٢) .

والمتعمق لشعر الخوارج يخرج بعدة نتائج هى للحقيقة أقرب منهـا إلى الاحتمال ، ذلك أنهم التزموا خطا واضحا لايحيدون عنه ، وكانت لهم أفـكار ونظريات وخطوط عريضة حافظوا عليها وساروا جميعا على تنفيذها .

وأشعار شعراء الخوارج الفرسان أمثـال قطرى بن الفجاءة وأبى بلال مرداس وعمران بن حطـان وغيرهم مليئـة بهذه الخطوط العريضة ، فـكلهم يدعو إلى الفداء وبذل النفس رخيصة فى سبيل العيش الـكريم ، ومواجهـة التحديات مهما كانت النتائج المترتبة على ذلك . وهذا المنطلق واحد عند جميع

---

(١) مقدمة عابر سبيل للعقاد (فى خمسة دواوين) ص ٣٧٨ . الهيئة المصرية العامة للـكتاب ١٩٧٣ م . (٢) أنظر ثورة الأدب د . هيكل : ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٧ . القاهرة ١٩٤٨ م .

شعرائهم ، وهو يختلف قوة وضعفا حسب نفسية كل واحد منهم ومؤهلاته .

ومن الأمثلة الحية على ذلك قول الرهين بن سهم المرادى (١) :

إنى لبائع مايفنى لباقية * إن لم يعقنى رجاء العيش تربيضا
أخشى لجاءة قوم أن تعاجلنى * ولم أر بطوال العمر تنقيصا
وأسأل الله بيع النفس محتسبا * حتى ألاقى فى الفردوس حرقوصا

فنحن نلمس فى الأبيات الشجاعة الفائقة الممزوجة بالحرص على مواجهة التحديات والاستهانة بالموت فى أوقات الشدة والشعور الفياض فى مجال الفروسية والحماسة ، وإيثار حياة العزة والكرامة على حياة الدعة والسلام .

ومن ذلك أيضا ما قاله عمران بن حطان (٢) :

لقد زاد الحياة إلى بغضا * وحبا للخروج أبو بلال
أحاذر أن أموت على فراشى * وأرجو الموت تحت ذرى العوالى
ولو أنى علمت بأن حتفى * كحتف أبى بلال لم أبال
فمن يك همه الدنيا فإنى * لها والله رب البيت قالى

ثالثاً : الملامح القصصية

شعر الخوارج فى مجموعه صادق غير مزيف ، وهو شعر فطرى لم يتخذ وسيلة للمدح البعيد عن الحقيقة ، بل لا أبالغ إذا قلت إن هذا الشعر يحكى بوضوح قصة متصلة الحلقات بين الخوارج و بين أعاديهم ، وكان موضوع هذه

---

(١) شعر الخوارج : ٦٢ . (٢) المصدر السابق : ١٤٢ ، ١٤٣ .

القصة منصبا على حروب الخوارج وتحديهم لخصومهم ، ودعوتهم إلى الفداء وبذل النفس رخيصة فى سبيل العيش الكريم .

وشعر الفروسية عند الخوارج يقوم على الاختصار فى الوصف والتصوير فليس لديهم قصائد كاملة فى الفروسية ، وإنما هى لمحات يريك الشاعر من خلالها صورة لشجاعة الخوارج وبطولاتهم وتفانيهم فى سبيل مبدئهم . وهذه فى مجموعها تصل لأن تكون مادة للفن القصصى ، فالشاعر يسجل فى القصيدة كل مايدور فى يومه من أحداث مثيرة ، وغالبا مايبدأ تصويره بزمان ومكان محددين ، وقد يلجأ إلى الحديث عن تجهيز العدة والعتاد ، فيتحدث عن الأسلحة من خيل وقسى وسهام ورماح ، ثم ينتقل إلى وصف الصراع الذى يكون بينه وبين أعدائه .

وقد تشابهت طريقة شعراء الخوارج فى وصف الصراع ، فهم غالبا يتكئون على الخبرة وقوة الإرادة والصلابة فى النزال . ومع هذا فهم يختلفون فى الفن القصصى ضيقا واتساعا والتزاما بمقومات هذا الفن من شاعر لآخر ، والمعول فى ذلك كله هو شخصية الشاعر وطبيعته والدافع الذى دفعه إلى خوض هذه التجربة ، والمجال الذى يتحدث فيه الشاعر ومدى اتساعه أو ضيقه للحوار الذى يجريه الشاعر بينه وبين نفسه أو بينه مثلا وبين سلاحه .

ويحكى لنا الشاعر عمرو بن الحصين شاعر الإباضية فى قصيدتيه ، رثاء أبى حمزة الشارى وغيره من الشراة ، ووقعة يوم قديد » (١) حديثا طويلا عن

(١) أنظرها فى شعر الخوارج : ٢٢٣ ، ٢٢٨ .

بطولات الشراة فى الحروب ومآثرهم فى القتال وعدم مبالاتهم بالمنية إن هى هجمت عليهم وأودت بحياتهم .. وهذه الأحداث إن هى إلا قصة طريفة ، يتخللها بيان رائع لوصف السبل التى يسلكها فرسان الخوارج كوسيلة لتحقيق مآربهم وتنفيذ غاياتهم .

وإذا كانت الملحمة قصة شعرية موضوعها وقائع الأبطال الوطنيين العجيبة التى تبوئهم منزلة الخلود بين بنى وطنهم (١) ، وإذا كان كل شعر ـ طال أو قصر ـ وقد وصفت فيه المعارك ، وسردت فيه أخبار البطولة ، ورويت فيه ملاحمات الجياد هو من شعر الملاحم ،(٢) . فإن هناك ملحمة بطولية رائعة تتمثل فى أشعار الخوارج التى صورت أهوال الحرب وفتكاتها ، وتغنت بالبطولة والأبطال وصدرت عن روح جماعية ، وأبرزت مثل الخوارج كجماعة ، كما أبرزت تطلعاتها ومعتقداتها .

والحقيقة أننا إذا تلمسنا الجوانب الفنية الملحمية فى شعر الخوارج فإننا نقول بكل صراحة إننا لانبتغى فى أشعار الخوارج ما نبتغى من الملحمة التى تبرز فيها مواقف رئيسية تتسلخ منها مواقف أخرى فرعية ، وتتسع فيها الأحداث وتفصل ، ويتجلى فيها الحوار القصصى ، ويكثر فيها الشخوص . بل نبتغى ما نجده فى القصص القصير من إيجاز فى تصوير الأحداث وبداية جيدة وسرعة الحركة ، وصياغة فخمة تتناسب مع جلال الملاحم والحديث

---

(١) النقد الأدبى ، د . غنيمى هلال : هامش ص ٨٩ .
(٢) شعر الحرب فى أدب العرب د . زكى المحاسنى : ٢٩ .

عن البطولة والأبطال . هذا إلى مافى أشعار الخوارج من روح جماعية تشيد بجماعة الخوارج وآمالهم ، وما يتسمون به من حسن بلاء وقوة احتمال .

وتاريخ الخوارج الحافل كان جديرا بأن يحمل الشعراء على تسجيله وتصويره ، وكان يمكن للشعراء أن ينظموا فيه ملحمة عظيمة كالإلياذة والشاهنامة ، فتجمع تاريخ الخوارج ، وتخلد أمجادهم فى السلم والحرب ، وتكون هذه الملحمة كتاب فخر لهم وقدوة لحماستهم المنقطعة النظير ولكننا لدى استعراضنا لما خلفه شعراء الخوارج من شعر نجده ضئيلا ، وهو مع ضآلته مقطوعات قصيرة ، ولم يشذ عن ذلك إلى قصائد قليلة كطولة عمرو بن الحصين العنبرى التى يرثى فيها أبا حمزة المختار وغيره من الشراة والتى جاوزت الخمسين بيتا ، وقد تميزت بدقة الوصف وتكرار المعانى ، واستقصاء الموضوع الذى يرمى إليه الشاعر بأسلوب قصصى .

رابعاً : البناء الفنى للقصيدة

قصائد الخوارج فى معظمها مقطوعات قصيرة ، ومع ذلك فهى تخالف قصائد الجاهليين والأمويين ، فلم يترسم شعراء الخوارج طريق الشعراء القدامى ، بل إنهم انطلقوا على سجيتهم إلى التجديد فى الشكل بحيث خرج شعرهم خاصا بهم دون أن يظهر فيه تقليد للسابقين أو مجاراة للمعاصرين .

ومن الخصائص التى تميز بها شعر الخوارج :

١ - أنهم استغنوا عن المقدمة الغزلية فى استفتاح كثير من قصائدهم .

وهذا راجع إلى حالتهم النفسية ، فلقد أحبوا الحروب وهاموا بها كما هاموا بأوصافها وعشقوا مايدور فيهـــا .. ثم إن معظم قصائدهم كانت مقطوعات لا قصائد بسبب حياتهم غير المستقرة التى تفرض عليهم أن يعيشوا دوما فى حذر وترقب ، وبسبب حروبهم مع الأحزاب الأخرى ، فكانت أشعارهم تخرج عفو الخاطر على ألسنتهم دون النظر إلى تجويدها أو التفنن فيها كما كنا نألف عند شعراء الجاهلية الكبار أمثـــال امرىء القيس وزهير والنابغة والأعشى وغيرهم .

وقد عبر عن هذا الاضطراب وذلك القلق فى حياة الخوارج قول شاعر خارجى وهو أبو بلال مرداس فى أبيات له تصف حياة الخوارج وشجاعتهم . يقـــول (١) :

ما إن نبالى إذا أرواحنا خرجت * ماذا فعلتم بأجساد وأوصال
نرجو الجنان إذ صارت جماجمنا * تحت العجاج كمثل الحنظل البالى
إنى امرؤ باعنى ربى لموعده * إذا القلوب هوت من خوف أهوال
وأدت الأرض منى مثل ما أخذت * وقربت لحساب القسط أعمالى
نفسى ظنون ولست الدهر آمنها * من بعد كعب وطواف وغسال
من كان من أهل هذا الدين كان له * ودى وشاركته فى تالد المال
الله يعـــلم أنى لا أحبهم * إلا لوجهك دون العم والخال

كما عبر عن ذلك عمرو القنا فى قوله (٢) :

---

(١) شعر الخوارج : ٥٠ . (٢) المصدر السابق : ٨٩ .

القائلين إذا هم بالقنا خرجوا * من غمرة الموت فى حومانها عودوا
عادوا فعادوا كراما لاتنابلة * عند اللقاء ولا رعش رعاديد
لاقوم أكرم منهم يوم قال لهم * محرض الموت عن أحسابكم ذودوا

وإذا استهل أحدهم - مع قلة حدوث ذلك - قصيدة بالغزل ، فإنما يكون للتخلص فحسب إلى ذكر مآثر الشهداء ومناقبهم .

فقطرى بن الفجاءة يستهل قصيدة حماسية بالحديث إلى الزوجـــة حديثا ينتهى به إلى المباهاة بالجهاد والحرص على الاستشهاد ، يقول (١) :

لعمرك إنى فى الحياة لزاهد * وفى العيش ما لم ألق أم حكيم
من الخفرات البيض لم ير مثلها * شفاء لذى بث ولا لسقيم
ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت * طعان فتى فى الحرب غير ذميم

٢ - ولم تكن مخالفـــة القصيدة الخارجية لغيرها من قصائد الجاهليين والأمويين تقتصر على الاستهلال فحسب ، بل تختلف عنها كذلك فى الصياغة والتراكيب اللغوية ، فقد كانت لدى شعرائهم القدرة على الانفلات من قوانين القصيدة الجاهلية وأغلالها ، وساقتهم أصالتهم إلى التجديد فى لغة الشعر ، فلم يهتموا بإبراز البراعـــة اللغوية ، بل كان كل همهم أن ينقلوا آراءهم إلى جماهيرهم فجاء لذلك شعرهم بعيدا عن الغرابة وخاليا من الصنعة الفنية وبعيدا عن التكلف والتعقيد ، وتوخوا فيه السهولة واليسر والبساطة فى التعبير ، وجاء

(١) شعر الخوارج : ١٠٦ .

من ثم صريح اللفظ منكشفة المعانى ، وكأنهم فى كل ذلك يريدون الوصول إلى غايتهم مباشرة .

٣ - ويمكن أن يضاف إلى ذلك ما أحدثه فيهم القرآن الكريم ، فلقد تأثروا بلغته وأسلوبه ، ويبدو ذلك واضحا فى كثرة ماجاء فى شعرهم من ألفاظ وتراكيب ومعانى قرآنية .

ومن ذلك ما جاء فى شعر عمران بن حطان (١) :

أمن تلظى عليه موقدة النار محيط بهم سرادقها
أم أسكن الجنة التى وعد الأبرار مصفوفة نمارقها

فهذه الألفاظ والتراكيب وردت فى قول الله تعالى : « فأنذرتكم نارا تلظى » (٢) ، وقوله تعالى : « أحاط بهم سرادقها » (٣) ، وقوله تعالى : « ونمارق مصفوفة » (٤) ، وقوله تعالى : « إن الأبرار لفى نعيم » (٥) .

وتتكرر هذه الظاهرة عند كثير من شعرائهم ، كما فى قول عمران بن حطان (٦) :

دعتهم بأعلى صوتها ورمتهم * بمثل الجمال الصفر نزاعة الشوى

فألفاظ هذا البيت منقولة من قول الله تعالى : « إنها ترمى بشرر كالقصر

(١) شعر الخوارج : ١٧٠ . (٢) سورة الليل : آيه ١٤ .
(٣) سورة الكهف : آيه ٢٩ . (٤) سورة الغاشية : آيه ١٥ .
(٥) سورة الانفطار : آيه ١٣ . (٦) شعر الخوارج : ١٥٦ .

كأنه جمالة صفر » (١) ، وقوله تعالى : « كلا إنها لظى نزاعة للشوى » (٢) .

وحدثت هذه الظاهرة عند شاعرهم حبيب بن خدرة ، كما فى قوله (٣) :

أبكى الذين تبوءوا الغرف العلى * تجرى لهم من تحتها أنهار

فهذا البيت يبدو وكأنه نقل من قول الله تعالى : « لنبوئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين » (٤) .

كما جاء من شعرهم ماهو تضمين كامل لبعض الآيات القرآنية ، كقول الطرماح بن حكيم (٥) :

يوم لاينفع المخول ذا الثروة خلانه ولا ولده

يوم يؤتى به وخصماه وسط الجن والإنس رجله ويده

فهو تضمين لقول الله تعالى : « يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » (٦) ، وقوله تعالى : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » (٧) .

ومثله قول عيسى بن فاتك (٨) :

هم الفئة القليلة غير شك * على الفئة الكثيرة ينصرونا

---

(١) سورة المرسلات : آيه ٣٢ ، ٣٣ . (٢) سورة المعارج : آيه ١٥ ، ١٦ .

(٣) شعر الخوارج : ٢١١ . (٤) سورة العنكبوت آيه ٥٨ .

(٥) شعر الخوارج : ٢٣٦ . (٦) سورة الشعراء : آيه ٨٨ ، ٨٩ .

(٧) سورة النور : آيه ٢٤ . (٨) شعر الخوارج : ٥٥ .

فهو تضمين لقول الله تعالى : «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين» (١) . وقوله تعالى : «يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون» (٢) .

وقول عيسى بن فاتك أيضا (٣) :

وما حسب ولو كرمت عروق * ولكن التقي هو الكريم

فهو تضمين لقول الله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» (٤) .

ولقد فهمنا من عقيدة الخوارج أن مفهومهم إسلامي خالص لا إيثار فيه للعرب على غيرهم ولا لقبيلة على أخرى ، فهم يدينون بالمساواة بين المسلمين ويرفضون التفاضل بالأحساب والأنساب والقرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم .

وفي هذا يقول عمران بن حطان (٥) :

فنحن بنو الإسلام والله ربنا * وأولى عباد الله بالله من شكر

وهذا نفسه هو معنى قول الله تعالى : «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» (٦)

(١) سورة البقرة : آيه ٢٤٩ .
(٢) سورة الأنفال : آيه ٦٥ .
(٣) شعر الخوارج : ٥٨ .
(٤) سورة الحجرات : آيه ١٣ .
(٥) شعر الخوارج : ١٦٥ .
(٦) سورة الحجرات : ١٣ .

٤ - كذلك خالف الخوارج غيرهم من ناحية كثرة الأرجاز فى شعرهم . فلما كان شعرهم خير مثال لتصوير حياتهم خرج يتميز بالتدفق والسرعة ، وهذا ما يفسر لجوء كثير منهم إلى الرجز لأنه أسرع من البحور الأخرى ، وهو سهل على ألسنتهم ، يقولونه فى الحروب حين المبارزة والمناجزة ، فكانوا إذا هجموا على العدو ارتجزوا ولم تشغلهم عنـــه فجائع القتال ولا مواجهة الهـــلاك .

ولقد شهد شعراء الخوارج الحروب وكابدوها ولذلك خـــرج معظم شعرهم حماسيا ، وكان بمثابة الأناشيد الحربية والنغمات الموسيقية التى تحدو نبراتها الطنانة قائليها فى ركب الحروب .

خامسا : شعر الخوارج بين القلة والكثرة

كان شعراء الخوارج بأكثريتهم الساحقة من المقلين ، وعلى الرغم من وفرتهم والقول بكثرة نتاجهم فإن أكثر ما وصل إلينا من شعرهم لا يتناسب وذيوع شهرتهم ، فهو لا يعدو أن يكون نتفا لهذا الشاعر أو لذاك .

والمستعرض لشعر الخوارج يجد أن كثيرا من شعرائهم لم يتجاوز شعره القصيدة الواحدة ، وكانت مقطوعات كثير منهم لم تتجاوز البيت أو البيتين وإذا تجاوزت البيتين فإنما تكون فى حدود بضعة أبيات ، ومن عدا هؤلاء فبعضهم له ثلاث قصائد ، وبعضهم له أربع قصائد ، وبعضهم له خمس قصائد وبعضهم له عشر قصائد ، وبعضهم له إحدى عشرة قصيدة ، والبعض الآخر

له ثلاث عشرة قصيدة .

أما الذين تجاوزوا هذا العدد فكان على رأسهم : قطرى بن الفجاءة زعيم الأزارقة ، وعمران بن حطان والطرماح بن حكيم . وما وصل إلينا من شعر هؤلاء الثلاثة يكاد يشكل عماد شعر الخـــوارج كما يشكل حياتهم وآمالهم العريضة وإن لم يعطنا صورة واضحـــة للفكر الخارجى أو للعقائد الخارجية السياسية منها والدينية .

وعلى الرغم من قلة ما وصلنا من شعر الخوارج فإنهم عرفوا بكثرة أدبائهم وشعرائهم كثرة يؤكدها ما تحفل به الكتب التى أرخت لحركتهم والمصادر التى تعرضت لأسماء الشعراء والخطباء منهم .

يقول أبو العيزار عنهم (١) :

أدباء إما جئتهم خطباء * ضمناء كل كتيبة جرار

وليس غريبا أن يكون للخوارج هذا القدر الكبير من الأدباء ، فهم من الأعراب ومن مختلف القبائل العربية ، وأكثرهم من البدو الذين فتحوا الأمصار واستوطنوها ، وجمهورهم من طائفة القـــراء المعروفة بفصاحتها وتشددها فى الدين ، هذا إلى ما عرف عنهم من أن عـدد الموالى فيهم كان محدودا (٢) .

والذى يلفت النظر أن عددا غير قليل ممن وصلت إلينا بعض أخبارهم

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ : ١ / ٤٠٧ . مكتبة الخانجى .

(٢) الخوارج فى العصر الأموى د . نايف معروف : ٢٥٠ ، ٢٥١ .

كانوا من فرسان الخوارج وزعمائهم وقادة الرأى فيهم ومن محاربيهم الذين يخوضون المعارك بسيوفهم قبل ألسنتهم ، وكان على قائمة هؤلاء « عبد الله بن وهب الراسبي » خليفة الخوارج الأول و «نافع بن الأزرق » رأس الأزارقة و « قطرى بن الفجاءة » أميرهم لمدة عشرين عاما و « عبيدة بن هلال اليشكرى » آخر زعماء الأزارقة ، وفيهم أيضا « عبد الله بن يحيى » رأس الإباضية فى أواخر العصر الأموى و « الضحاك بن قيس الشيبانى » ، صاحب المواقف الرائعة فى العراق (١) .

كما كان من العلماء والمجتهدين فيهم « أبو الوازع الراسبى » و « حبيب بن خدرة الهلالى » و « داود بن عقبة العبدي » و « الرهين المرادى » و « شبيل بن عزرة الضبعى » صاحب الغريب ، وكان راوية وخطيبا وشاعرا ناسبا (٢) .

وكان على رأس هؤلاء جميعا « أبو بلال مرداس » و « عمران بن حطان » الأول لشدة تدينه وصحة عبادته ، وقد نال تعظيم الخوارج بسبب تدينه وعبادته . والثانى لما قيل عنه أنه كان من أهل السنة ومن التابعين قبل أن يصبح على مذهب الخوارج (٣) .

ويمكن القول إن عددا لا بأس به من هؤلاء الشعراء أمكن من خلال

---

(١) أنظر البيان والتبيين للجاحظ : ١ / ٣٤٣ .
(٢) أنظر المصدر السابق : ١ / ٣٤٣ ، ٣٤٦ .
(٣) أنظر تهذيب التهذيب ، للعسقلانى : ٨ / ١٢٨ .

أشعارهم التعرف على الفرقة التى كانوا ينتمون إليها . فقد عرف من الأزارقة « زيد بن جندب الأزرق » و « سميرة بن الجعد » و« عبيدة بن هلال اليشكرى » و « عمرو القنا » و « قطرى بن الفجاءة » و « قيس بن عبدالله الأصم الضبى » و « نافع بن الأزرق » و « يزيد بن حبناء » .

وعرف من الصفرية « سلامة بن سيار الشيبانى » و « شبيل بن عزرة » و « الصحارى بن شبيب » و« الضحاك بن قيس » و « عبد الواحد الأزدى » و « المنهال الشيبانى » و « الطرماح بن حكيم » و « عمران بن حطان » . . وعلى هذا فيمكن القول إن جمهور شعراء الخوارج من فرقتى الأزارقة والصفرية .

ومن النجدية عرف عطية بن سمرة الليثى ، وحيى بن وائل ، ونجدة بن عامر ، وعرف من الإباضية : عمرو بن الحسن الإباضى ، وعبد الله بن يحيى . ومن عدا هؤلاء من الشعراء فلم ينطق ما وصلنا من أخبارهم عن الفرقة التى كانوا ينتمون إليها ، ولعلهم آثروا السلامة ولم ينجرفوا وراء الانقسامات ، أو لعلهم لم يدركوا تلك الفترة الزمنية التى وقع فيها الانقسام بين الخوارج .

وكان من بين شعراء الخوارج شاعرات كثيرات ، وكن يصفن المعارك ويحسن تصوير الأبطال ، وهن وإن كن دون الرجال فى البأس ، إلا أنهن شاركن الرجال فى الشعور الحماسى تلقاء الحرب ونكباتها ، وما كن فى ذلك أقل إجادة من الشعراء الرجال .

وكانت حماسة نساء الخوارج فى القتال أمرا مشهودا ، فليس بعيدا عنا

ما فعله عبيد الله بن زياد بهن (١) . ومن المشهورات بذلك (أم حكيم) التي قاتلت في صفوف قطري بن الفجاءة ، وطلبت الشهادة في الجهاد ، وكانت من أجمل النساء في شجاعة الرجال ، وقد زان جمالها بسالة نادرة ، ولم يكن زعيم الأزارقة وسيد فرسان الخوارج ليصبو إليها لو لم تكن في البطولة مثله ، ولعلها - وقد ردت عنها خطابها (٢) - كانت تصبو إلى بطل مقدام وفارس أشد منها بأسا .

ومع أن نصيب شاعرات الخوارج من الشعر كان محدودا ، فقد اشتهرن بالشعر وعرفن فيه من خلال ذويهن ، فأخت الحازوق الحنفي كان أخوها من أصحاب نجدة ثم خالفه ولكن سرعان ماتاب ورجع ، وأم حكيم كانت تحظى بحب وإعجاب قطري بن الفجاءة زعيم الأزارقة ، وعمرة أم عمران بن الحارث الراسبي والدة أحد قادة الأزارقة ، وأم البرذون الصفرية والجديعاء زوجة أبي حمزة المختار ، وغيرهن .

ومع أن كتب الأدب والتاريخ قد أوردت ترجمة لبعض شعراء الخوارج عند الحديث عن تاريخ الخوارج وحروبهم ، إلا أن ترجمات عدد كبير من هؤلاء الشعراء غير وافية ، وكثير من الذين وردت لهم ترجمات من الشعراء كانت ضئيلة جدا لدرجة أنها لا تبرز لنا مواقع هؤلاء الشعراء من بين زعماء الخوارج وقادة الرأي عندهم .

---

(١) أنظر الخوارج والشيعة ، ترجمة د . عبد الرحمن بدوي : ٦٢ . وكالة المطبوعات ، الكويت ط ٢ . (٢) الأغاني : ٦ / ٢٢٣٠ .

ولعل الذى يميز شعراء الخوارج عن غيرهم من معاصريهم وسابقيهم أن الشعر عندهم لم يكن فنا ينقطعون له أو يتنافسون فى تجويده ، ولم يكن حرفة تجود ولا صناعة تحذق لذاتها أو لوجه البراعة الفنية والتميز فى مضمار التجويد والسبق ، ولم يتحول الشعر عندهم كما تحول عند الكميت إلى مجالات العقل والمنطق باستدلالا تصوير أهينه وحججه . وإنما كان ينشأ عن حاجة تتطلبه ، فهو وسيلة لخـــدمة مذهبهم وثمرة له ، كما كان تعبيرا لما يعتمل فى نفوسهم وما يدور فى خلدهم ، ومن ثم فلم يحرصوا كثيرا على روايته أو إثباته ، وظل شعرهم يدور فى هذا المجال يعبر عن الذات وما يعتلج فيها من عاطفة ومشاعر وأحاسيس .

والذى لاشك فيه أن حياة شعراء الخوارج القائمة على الجهاد والحرب لم تتح لهم أن يعيشوا حياة هادئة مستقرة ، حتى يمكن التعرف على أخبارهم وتسجيل آثارهم ، ولم تدع هذه الحياه فرصة لشعرائهم للإكثار والإطالة ، وهم فى هذه الناحية أشبه بشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى .

والخوارج من جهتهم لم يكن يعنيهم من الإكثار والإطالة شىء ، فأبرز شعرائهم كانوا فرسانهم فى الحروب . وأكثرهم قضوا فى ساحة القتال وقتا لا بأس به من حياتهم ، وهذا نفسه لم يوفر لهم استقرارا ولا هدوءا ، وبالإضافة إلى ذلك فإن عـددا كبيرا منهم قد مات فى حروبهم المتواصلة ، ولا شك أن حياتهم كانت سلسلة متصلة من المعارك والحروب .

وفوق ذلك فما أراننا بحاجة إلى أن نقول إن إهمالا متعمدا قد أضاع علينا ثروة الخوارج الشعرية ، فأغلب الظن أن الإضطهاد الذى أصابهم قد أصاب أيضا شعرهم وكان له أكبر الأثر فى ضياع قدر كبير منه . وهذه الظاهرة نفسها هى التى جعلت الدكتور نعمان القاضى يرى أن الإضطهاد الذى لحق بالخوارج قد انعكس على آثارهم الأدبية ، فاضطهدهم الرواة والمؤرخون وأهملوا نتاجهم ، وتركوه نهبة للضياع (١) .

ويقول الدكتور زكى المحاسنى : « ومن للخوارج - وهم المنبوذون بالكفر ، المضطهدون فى كل صقع - بمثل ذلك وقد أفناهم القتال فمزقهم من كل جانب ؟ فلا أفادوا ظفرا باقيا ، ولا شعروا مرويا كثيرا . وخير دليل أورده على إهمال أمرهم أن قطريا زعيمهم وكبير شعرائهم ، كان حظه من أبى الفرج الأصبهانى فى ثلاث صفحات » (٢) .

وفى رأيى أن سببا من الأسباب يكمن فى طبيعة الخوارج المتشددة فى إيمانها ، فهى طبيعة تتعلق بمثل عليا للإيمان والعقيدة ، وهم فى شعرهم لا يزيدون على تقرير ما آمنوا به ، حتى إن خلافاتهم الفقهية التى دارت بينهم لم تظهر فى الشعر إلا نادرا ، وإن ظهرت فإنما يكون ذلك وسيلة لتصوير إيمانهم بها فحسب ، ولهذا خرج معظم شعرهم فى صورة مقطعات أو قصائد قصيرة تنشأ عند الحاجة إليها .

(١) أنظر الفرق الاسلامية فى الشعر الأموى : ٤٠٦ .
(٢) شعر الحرب : ٧٨ ، ٧٩ .

ونحن لا نشك فى أن شعرا كثيرا من شعر الخوارج قد ضيع وفقد تحت ركام الماضى كما ضيعت أخبار كثيرة لحياتهم ، فلئن لم نجـــد من شعرهم إلا القليل فهذا وحده لا يحملنا نسلم بإسناد صفة الإقلال إليهم ، فليس من المستبعد أن تكون أشعارهم قد طمست كما طمست أخبارهم ، والذى يدفع عنهم صفة الإقلال ويؤكد صفة الضياع أن مارونه كتب الأدب والتاريخ من أشعارهم تبدو وكأنها مبتورة من قصائد طويلة ولم يبق من تلك القصائد إلا النزر اليسير الذى يصعب تصنيفه فى هذا الفن أو ذاك ، لأن مقدمات تلك القصائد قد فقدت مع مافقد من هيكلها غالبا .

وهناك من الأدلة مايثبت صحة هذا القول ، ومنها أن ما وصل إلينـــا من شعر الخوارج لا يتناسب فى الكم وشهرة شعرائهم ، كما لا يتناسب وتلك الغاية التى كانوا ينشدونها والتى تتطلب منهم كما لا بأس به من الشعر . وفوق ذلك فالذى يحمل على الاعتقاد بوفرة شعرهم أن الخوارج أنفسهم من الأعراب وأهل البادية ، وطبيعى أن يكثر فصحاؤهم وبلغاؤهم وبالتالى شعراؤهم . . وهم من ناحية أخرى أصحاب دعوة وقد أذاعوها وتحملوا الكثير فى سبيل الجهر بها ، فكان عليهم آنذاك استمالة العواطف بالأشعـار التى تعد الوسيلة الأولى المؤثرة فى نفوس السامعين .

ومع ذلك فهـــذا الإضطهاد الذى أصابهم لم يستطع أن يطمس حقائق فروسيتهم التى فرضت نفسها على تاريخ الشعر ، وما توفر لدينـــا من شعرهم يدل - على قلته - دلالة قاطعة عـــلى أنهم كانوا بمنزلة عالية بين شعراء الفرق

الأخرى ، وكفاه أن أعطانا صورة صحيحة عن فروسية الخوارج وكفاحهم وروعة أوصافهم للحروب والوقائع .

ومن يستعرض شعرهم يجد أن بضعة شعراء منهم اشتهروا بالإكثار وغزارة الإنتاج . ومن هؤلاء « عمران بن حطان » و « قطرى بن الفجاءة » و « عمرو القنا » ، كما كان من بينهم « عبيدة بن هلال اليشكرى » و « سميرة بن الجعد » و « أبو بلال مرداس » و « عيسى بن فاتك » . وقد بلغت شهرة أحدهم وهو عمران بن حطان درجة جعلت شعر من عداه ينسب إليه (١) إلا من كان مثله فى الشهرة .

على أن هناك من شعراء الخوارج من له طول نفس فى الشعر لم نعهده عند أقرانه ، ولعل هذا يرجع إلى أمر خاص بالشاعر يتميز به عمن سواه . ويتمثل هذا فى شاعر الإباضية عمرو بن الحصين ، فله قصيدة طويلة رثا بها أبا حمزة المختار ، وقد جاوزت أبيات القصيدة الخمسين بيتا وهو عدد لم نره فى قصيدة لغيره من الشراة . والقصيدة تتميز إلى جانب طولها باستقصاء الموضوع الذى يرمى إليه الشاعر فى أسلوب قصصى يتميز بدقة فى الوصف ووضوح فى المعانى مع بساطتها .



(١) أنظر الأغانى : ١٩ / ٦٨٨٨ . طبعة دار الشعب .

الفصـــــل السابع

منزلة شعراء الخوارج بين الشعراء الفرسان

كان الخوارج كما يحدثنا التاريخ فى جهاد مستمر وكفاح طويل مرير ، وقد اشتركوا فى معارك عديدة ، وذاقوا حلاوتها ومرارتها ، وهم وغيرهم قد وصفوا الحروب وأشادوا بالبطولة من خلال القصائد الطويلة والمقطوعات القصـــيرة .

ومن غير المعقول أن نساوى بين شعراء الخوارج الفرسان وبين غيرهم من الشعراء . بل إنه لا سبيل إلى الموازنة بين أى شاعر فارس وبين غيره ، فبعض الشعراء يتفوق على غيره تفوقا غير محدود فى المعـــانى والأساليب وديباجة اللغة ، وبعضهم يكون فى شعره قوى الطبع غير متكلف فيسدل بذلك ستارا من النسيان على من يقول الشعر تكسبا وارتزاقا ، لأن الفروسية عند الأخير لم تكن طبيعة متأصلة ، بل كانت متكلفة ومصطنعة ، ولهذا استحوذ الشاعران أبو الطيب المتنبى وأبو فراس الحمدانى على إعجاب متذوق الأدب فى عصرهما وما تلاه من عصور ، وعــــد شعر كل منهما مصدرا مهما فى التاريخ السياسى والحربى ، الأول لمـا له من موهبة شعرية فاقت غيره من الشعراء ، وكان أيضا مقاتلا وعلى قدر كبير من الحماسة والشجاعة والذكاء الحـــربى ، والثانى لمـا اشتهر به من فروسية وشجاعة قتالية .

وشعر الفروسية عند الجاهليين يتجـه فى موضوعه غالبا إلى تصوير حياة

القبائل الجاهلية وتصوير حروبهم مع القبائل المجاورة . فهذا هو عنترة بن شداد الفارس الشجاع المقدام ، الذى كان لنشأته البدوية أثر كبير فى إكسابه الفتوة والشجاعة والفروسية ، وقد غرست فيه كثرة خوضه للحروب عزة وحمية تأبى الذل ولا ترضى إلا بحياة الفخر .

وقد اشترك مع قبيلته ضد أعدائها فأغار على قبيلة زيد القحطانية قبيلة عمرو بن معد يكرب تارة للسلب وتارة للثأر .

يقول فى هذا (١) :

ألا من بلغ أهل الجحود * مقال فتى وفى بالعهود
سأخرج للبراز خلى بال * بقلب قد من زبر الحديد
وأطعن بالقنا حتى يرانى * عدوى كالشرارة من بعيد

وهذا هو دريد بن الصمة أحد الفرسان المشهورين فى الجاهلية ، وقد اشتهر بكثرة خوضه للمعارك وكان يخرج منها دائما القائد المظفر حتى عد سيد بنى جشم وفارسهم الميمون .

وقد قتلت غطفان أخاه عبد الله ، فحزن دريد على مقتله حزنا بالغا ، ولم يترك بنى غطفان بل أغار عليهم وقاتلهم حيا حيا ، وأخذ يسرف فى الأخذ بالثأر (٢) ، ومع ذلك فلم يرهم يفون بأخيه عبد الله .

(١) ديوان عنترة : ١٢١ . (٢) أنظر أيام العرب فى الجاهلية ، محمد جاد المولى والبجاوى : ٢٩٣ وما بعدها . القاهرة ١٩٤٢ م .

وقد يتجه الشعراء وجهة أخرى فيصفون حروب العرب مع من عداهم كما حدث فى « يوم ذى قار » . فقد اشترك عنترة مع قبيلة عبس فى مساندة قبيلة بكر بن وائل وغيرها ضد الفرس ، وله فى ذلك شعر وإن لم يصرح فيـــه بموقعة ذى قار (١) .

وقد يتجـــه الشاعر فى شعر الفروسية إلى شخصه فيتغنى بنفسـه ويشيد بانتصاراته . ومعلقة عنترة تكاد تـكون تصويرا واضحا لنفسيته ولأمجـــاده وبطولاته ، وقد تحدث فيها عن شجاعته من حيث كره وفره وقتـله للأبطال وإقدامه وقت الشدائد .

وهذا اللون من الشعر يكثر عند فرسـان الصعاليك ، فكلهم تحدث عن أمجاده ، وعن مغامراته وغزوه وسلبه حتى ضرب لهم المثل الأعلى فى هـذا ، ولعل أجمل ما قيل فى الحث على طلب المعالى وبث روح المغـامرة والإقدام فى الشباب وترك حيـاة الخنوع والاستكانة ما قاله عروة بن الورد فى قصيدة أوردتها له معظم كتب الأدب ، وعدتها من القصائد المختارة ومن عيون الشعر العربى فى بابها (٢) .

وشعر الحرب عند الجاهليين يخلو من طابع السياسة ، وإن كانت السياسة دافعة إليه أحيانا ، فهو شعر قيل لوجه الحرب فحسب ، يؤكد هذا أن كثيرا من شعرائهم حين يتحدثون عن الحرب لم يقصدوا لتكدير شجاعة أعـدائهم ،

---

(١) أنظر ديوان عنترة : ص ١١١ ، ١١٢ .

(٢) أنظر أغانى الأغانى : ٧٦ . مؤسسة بدران للطباعة والنشر .

ولم يرموهم بالجبن والفرار ، وإنما اعترفوا لهم بما كان عندهم من قوة بأس ولم يجردوا أحدا منهم من صفات الفروسية التى كان عليها .

وتميز كذلك الخوارج عن معاصريهم بأنهم أصدق وصفا للحرب ، فلقد كان من أمانة شعرائهم أنهم قدروا خصومهم كل تقدير وأنزلوهم المنزلة اللائقة بهم ، وأنصفوهم وهم يمدحون أنفسهم . وأحسب أن هذا ليس بضائر الخوارج ، فهم فرسان شجعان ، وقد يتخذ شعراؤهم من هذا وسيلة لحفزهمم الشراة واستنهاض عزائمهم .

وفى عصر صدر الإسلام يتحول شعر الفروسية تحولا جديدا يتفق مع روح الإسلام وشريعته فى الأخلاق والمعاملات ونظام الحيـــاة ، فهو يعتز بالإسلام اعتزازا قويا ويقف بجانبه ، ويحارب كل عدو متربص به ، كما يشيد بأبطاله الذين كانوا أشجع الشجعان وأعظم الفرسان ورمزا للثبات فى كل ميدان ويذكر كذلك انتصاراتهم ومدى بلائهم وجهادهم فى حروب خصوم الإسلام وأعاديه .

وقد انصب شعر الفروسية على جانبين أساسيين : أولهما حروب الرسول صلى الله عليه وسلم وغزواته مع كفار قريش ، والثانى هو الفتوحات الخارجية التى اتسعت فى عهد الخلفاء الراشدين ، وفى هذين الجانبين كان فرسان الإسلام دعائم قوية للدين ، فلقد أبلوا بلاء حسنا فى معاركه الفاصلة كغزوة بدر الكبرى ، ومن آيات البطولة والفداء عندهم أنهم كانوا يدخـــلون المعركة لا يريدون إلا النصر أو الشهادة .

ومن الشعراء الفرسان عمرو بن معد يكرب ، فلقد كان فارسا مشهورا فى الإسلام كما كان فى الجاهلية ، وقد وجه شجاعته الفائقة لخدمة الدين الإسلامى وإعزازه بعد أن قطع على نفسه عهدا أمام أبى بكر الصديق بأن يجاهد فى سبيل الله (١) ، وكفاه جرأة وشجاعة ما له من مواقف رائعة وبطولات خارقة فى موقعة القادسية المشهودة .

ومن هؤلاء الفارس الشجاع أبو محجن الثقفى ، فهو معدود فى أولى البأس والنجدة والشهامة . وقد حبسه سعد بن أبى وقاص بسبب ولعه بشرب الخمر ولما اشتد القتال فى حرب القادسية طلب من سلمى زوجة سعد أن تعيره البلقاء فرس سعد ، وأن تخلى سبيله على أن يعود - إن سلمه الله - ويضع رجله فى القيد كما كان ، ولكنها رفضت عرضه فأنشد شعرا يقول فيه (٢) :

كفى حزنا أن تطعن الخيل بالقنا * وأترك مشدودا على وثاقيا
إذا قمت عنانى الحديد وغلقت * مغاليق من دونى يصم المناديا
وقد كنت ذا أهل كثير وإخوة * فقد تركونى واحدا لا أخا ليا
هلم سلاحى لا أبالك إننى * أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا

وعندما سمعت سلمى شعره رقت له ورضيت بعهده وأطلقته وأعطته البلقاء ، وذهب إلى الموقعة يحمل على القوم حتى عجب الناس منه وهم

(١) أنظر خزانة الأدب للبغدادى : ٢ / ٤٤٥ وما بعدها . تحقيق هارون . دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م .

(٢) الشعر والشعراء : ١ / ٤٣٠ .

لا يعرفونه ، وظل يقاتل حتى تحاجز المتقاتلون وتراجعوا عن القتال ، ثم عاد ودخل القصر ووضع رجليه فى القيد كما كانت ، وأخذ ينشد شعرا يشيد فيه ببلائه وبفروسيته .

ولا شك أن شعر الفروسية عند شعراء الخوارج لا يأتى مستقلا وقائما بذاته ، وإنما يأتى من خلال فنون الأدب المختلفة كالمديح والفخر والوصف والرثاء والزهد وغيرها ، وقصائدهم الحماسية ترتبط بالحروب وبالمواقف الشديدة التى واجهتهم .

على أن من سبقهم من الشعراء لم يتركوا معركة بين قبائل العرب ، أو بين العرب وبين أعاديهم إلا وسجلوها وصوروا وقعاتها ومافيها من بطولات، وكأنهم أرادوا أن يدفعوا الناشئة إلى سل السيوف ومجاهدة الأعداء وفوق ذلك فهم يتفوقون على شعراء الخوارج بما كان لهم من توسع فى وصف الحماسة والشجاعة ، فوصفهم للمعارك وصف مطول عن وصف الخوارج لها ، وعندهم قصائد ترينا صورة المعركة منذ بداية أحداثها إلى ختامها .

أما شعر الخوارج فى الحرب فما هو إلا لمحات وصف مختصرة ، وما لديهم من وصف للمعارك فهو غير مستوف وكأنهم لا يعنون بالاستقصاء الكامل لصورة الحرب . . وهذا لا يغض من شأن الخوارج ، ولا يضعف من شعرهم ، فالذنب فى هذا ليس ذنبهم ، وإنما كان ذلك نتيجة من نتائج عصرهم الذى كثرت فيه الحروب ، وتوالدت فيه الفتن توالدا شغل الشعراء عن

أنفسهم ، كما شغلهم عن الوصول إلى الشعر الحـــربى المنشود . وكفى شعراء الخوارج قدرا أنهم لم يألوا جهدا فى ذكر حروب وقعت فى أيامهم ، وشهدها كل منهم ، ولم ينظم أحد منهم شعرا فى حرب رويت له أخبارها كما حدث لبعض من شعراء الجاهلية .

كذلك أحاط شعراء الجاهلية وصدر الإسلام بأوصاف السلاح وآلات الحرب بما لم يصل إليه شعراء الخوارج ، وهم مع ذلك يجيدون وصف هذه الآلات ويكثرون من العناية بتصويرها وتصورها لدرجة جعلتهم يلمون بدقائقها وأشكالها ، ويستنبطون التشابيه فى ذلك ، وقد صـــار ما قالوه فى وصف آلات الحرب وعدة القتال تراثا أدبيا يشغل حياتنا الأدبية ، بل إن كثيرا من شعراء الخوارج كان يتمثل بتشابيه السابقين فى القتـال والنزال ووصف آلات الحرب وذكر الخيل ، كما تشابهوا معهم فى المعانى ، وهم مع ذلك لا يستطيعون التمرد على تعابير السابقين لأنها تمثل تراثا أدبيا جيـــدا تراثا فرض نفسه عـــلى كل ماتلاه من العصور ، وأى شعر فى الفروسية والحرب أشدا قيدا وأبعد أثرا من الفروسية الجاهلية ؟ فقصائدهم فيها تمتاز بدقة التصوير وبراعة الوصف ومتانة الديباجة .

وقد برع كل من المتنبى وأبو فراس فى تصوير وقائع الحروب التى دارت بين العرب والروم فى العصر العباسى الثانى ، وخلد كل منهما تاريخ الحمدانيين وحياة أميرهم سيف الدولة ، الأول بسيفياته وهى أعظـــم وأروع ما فى ديوانه من قصائد ، لما فيها من صدق فى العاطفة وعمق فى التجربة ، والثانى

لما تغنى به من فخر وشجاعة ، ولروومياته التى كتبها فى الأسر يستعطف بها ابن عمه لافتدائه من غير يأس أو قنوط .

ويمتاز شعر الشاعرين بالجودة والكثرة والتنوع ، ومما أسهم فى إجادة كل منهما لشعر الفروسية أنهما كانا فارسين ومقاتلين ، فكثيرا ماوصف كل منهما حروب سيف الدولة وكثيرا ما أشادا بانتصاراته .

وللمتنبى قصيدة عينية رائعة قالها فى معركة جبل اللقان التى دارت بين سيف الدولة والروم ، وقد شهد المتنبى الموقعة ، والقصيدة تشيد بحماسة سيف الدولة وبخبرته فى الحروب ، وهى قصيدة طويلة من أعظم ماقال المتنبى فى حماسة سيف الدولة وحروبه وتجاربه فى هذه الحروب .

ويشير المتنبى فى مطلع هذه القصيدة إلى أن هناك شروطا للفروسية ، لاتتم إلا بها ولا يكون الفارس فارسا إلا إذا توفرت لديه هذه الشروط مكتملة ، يقول (١) :

وما الحياة ونفسى بعد ماعلمت * أن الحياة كما لا تشتهى طبع

ليس الجمال لوجه صح مارنه * أنف العزيز بقطع العز يجتدع

أأطرح المجد عن كتفى وأطلبه * وأترك الغيث فى غمدى وأنتجع

والمشرفية لا زالت مشرفة * دواء كل كريم أوهى الوجع

والمتنبى فى هذا المطلع يثور ويغضب من هؤلاء الجبناء الذين يكتفون

---

(١) شرح ديوان المتنبى : ٢ / ٣٣١ ، ٣٣٢ .

بالشعارات ويعجزون عن معايشة الحرب وخوض تجاربها ، ولعله فى هذا المطلع قد تأثر بالمقطوعة العينية التى قالها قطرى بن الفجاءة ، والتى مطلعها (١)

أقول لها وقد طارت شعاعا * من الأبطال ويحك لن تراعى

فالمتنبى يسير على منهاج قطرى فى أبياته من استعذابه للموت ومن قوة حزمه وإرادته ، ولذلك نراه يشن هجوما قويا على الجبناء ، ويوبخهم ويدعوهم إلى عيشة المجد التى تكون مليئة بالبأس والكفاح .

وقصيدة أبو الطيب قصيدة جيدة ، وقد وصف فيها شجاعة سيف الدولة وإقدامه ، وعدم خوفه حين وقف فى أرض المعركة ، وتابع تحـرك جيش سيف الدولة وهو يسير إلى أرض أعاديه ، كما صور التقاء الجيشين ، وصور كذلك هزيمة الروم أمام جيش الأمير الحمدانى ، كما تحدث فى ختامها عن تقهقر جيش الأمير وهو فى طريقه للعودة إلى حلب .

والذى يمتاز به المتنبى هو ماشاع فى شعره من حكمة كقوله فى قصيدته الميمية التى قالها فى انتصار سيف الدولة على الروم (٢) :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم * وتأتى على قدر الكرام المكارم
وتعظم فى عين الصغير صغارها * وتصغر فى عين العظيم العظائم

والمتنبى طويل النفس فى قصائده عن شعراء الخـوارج ، وقد بلغت بعض قصائده أكثر من مائة بيت ، ومع هذا فهو لم يبلغ فى شعره الحربى درجة

---

(١) شعر الخوارج : ١٠٨ ، ١٠٩ . (٢) شرح ديوان المتنبى : ٤ / ٩٤ .

الشعر الملحمى ، وكان بوسعه أن يتجه هذه الوجهة لما توفر عنده من خصائص فنية للشعر الملحمى ، ولما لديه من خيال وثاب ومن عاطفة صادقة عميقة ، وتفكير منطقى يعينه على توليد المعانى ، وقدرة على التعليل فيما جاء فى شعره من مبالغات .

وقد اكتفى بأن زاد على شعر الحماسة الموروث ، وأطال فيه ونوع ، وألبسه ثوب القصص ، فهو يصف الوقائع ويسرد الأحداث ، ولذلك استحوذ شعره على قرائه ، وكأنه قد أحس بذلك عندما قال :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى * إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

وقد توفر لأبى فراس الحمدانى ما لم يتوفر للمتنبى ولا لشعراء الخوارج فله قصيدة ملحمية رائعة توفرت لها معظم الخصائص الفنية للشعر الملحمى ، ولولا أنه بدأها بالغزل لقلنا إنها ملحمة شكلا ومضمونا ، لأنها قصيدة طويلة تجاوزت أبياتها المائتى بيت وتحدث موضوعها عن الحماسة والفخر والفروسية .

ومطلع هذه القصيدة (١) :

لعل خيال العامرية زائر * فيسعد مهجور ويسعد هاجر !

ومهما يكن فالمتنبى رائد فى شعر الفروسية ، وهو أمير لشعراء الحرب فى عصره ولا عجب فقد شارك فى الحروب التى دارت فى عهده ، وسجل أحداثها فى شعره ، وقد مرت به ساعات عصيبة تعرض فيها للقتل وكان للموت أقرب منه إلى الحياة .

---

(١) ديوان أبى فراس : ١٠٢ . دار صادر بيروت .

وكان قطرى بن الفجاءة شاعر الأزارقة وفارس فرسانها إذا أنشد شعرا فإننا نجد ذاته هى محور حديثه ، وهـذا هو شأنه فى معظم أشعاره ، كما فى مخاطبته لأم حكيم فى يوم دولاب .

وقد نهج أبو فراس نفس النهج فخرج قسم كبير من شعره فى الفروسية يتوجه فيـــه بالحديث إلى نفسه ، كما فى قصيدته الرائية المشهورة التى نوه فيها بشجاعته وتحدث عن حماسته . يقـــول (١) :

وإنى لجرار لـكل كـتيبة * معودة أن لايخل بهـا النصر
وإنى لنزال بكل مخـــوفة * كثير إلى نزالها النظر الشزر
فأظمأ حتى ترتوى البيض والقنا * وأسغب حتى يشبع الذئب والنسر

فهو الفارس الذى يمـكنه أن ينزل بأرض يخاف غيره النزول بها ، وهو القائد الشجاع الذى يقود الـكتائب ويـكون من عادته النصر ، ثم هو الذى يظل صديانـــ حتى ترتوى البيض والقنـا ، ويبقى جائعا حتى تشبع الذئاب والنسور من قتلى الأعداء والخصوم .

وشعر الفروسية عند أبى فراس - كما هو الحـال عند المتنبى - ليس وقفا عليه وحده ، فهو يتعداه إلى سيف الدولة وإلى قبيلة بنى حمدان ، فيصف بطولة الأمير وحروبه ، كما يصف بطولات الحمدانيين وأمجادهم ، وهذا لانجد له مثيلا عند شعراء الخوارج ، فكل شعرهم يدور حولهم ، ويصور حياتهم .

---

١ ديوان أبى فراس : ١٥٩ .

من شعراء الخوارج الفرسان

أبو بلال مرداس بن أدية

وفى أبى بلال تتبدى حقيقة الشعر الخارجى الذى انصهرت فيه جميع العواطف الدينية ، وهو فى اعتقادنا يعد صورة للفارس المثالى ، ولعله أكبر شخصية أثار فقدها أعمق الأسى عند الخوارج .

وأبو بلال يتميز عن شاعر الخوارج وفارسهم قطرى بن الفجاءة ، لأن ذات قطرى هى محور شعره غالبا ، فإذا ناجى نفسه ، أو ذهب للحديث عن الحرب وشئون القتال ، أو عن الموت والاستشهاد ، فما ذلك إلا ليصور ذاته ويفخر بفعاله .

كما يتميز عن الطرماح بن حكيم ، لأن الطرماح قد شارك فى المنازعات القبلية ، وأسرف فى العصبية ، كما أسرف فى الفخر بنفسه وفى هجاء القبائل الأخرى ، وفضلا عن ذلك فقد باعد حرصه على المال بينه وبين المشاعر الزهدية التى اتصف بها شعراء الخوارج .

ومرداس عند الخوارج رمز للسلف الصالح بعد أصحاب النهر والنخيلة ، وهو يمثل حقيقة الزهد الخارجى ، لأن نزعة الزهد فى شعره ليست تيارا سطحيا كما هو الحال عند غيره ، بل هى تيار عميق ، لابد لرؤيته من التغلغل فى أعماق نفسه .

وكان أبو بلال رجلا قوى الإيمان ، حسن البصيرة ، شديد الاجتهاد ،

كثير الصواب فى لفظه ، وقد رأى السجان الذى كان على سجن عبيد الله بن زياد والذى سجن فيه أبو بلال ، ماعليه صاحبنا من شدة الاجتهاد وحلاوة المنطق فكان أن صنع معه معروفاً ، وأباح له الذهاب إلى بيته ليلا على أن يعود إلى السجن آخر الليل (١) .

وأبو بلال مثال للفارس الشجاع الوفى بالوعد ، الذى لا يبخل بنفسه فى سبيل ما آمن به ، ولكنه يمضى فى إنجازه حتى ولو كلفه حياته . ومن الأمثلة الرائعة لوفائه بما أعطى من وعود عوده بالذهاب إلى سجن عبيد الله بن زياد مع علمه بغضب ابن زياد وعزمه على قتل كل من فى السجن من الخوارج (٢) .

كما كان مرهف الإحساس بمعانى الخوف ، فقد سقط مرة مغشياً عليه حين رأى أعرابيا يهنأ (٣) بعيرا له بالقطران ، وحين أفاق قال للأعرابى : « ليس بى مخافته على ، ولكنى رأيت بعيرك هرج من القطران ، فذكرت به قطران جهنم ، فأصابنى ما رأيت » (٤) . ولعل هذا هو السبب فى تنافس بعض الجماعات الإسلامية فى انتحال نسبة أبى بلال إليها (٥) .

وكان أبو بلال من الذين شهدوا صفين وحاربوا فيها بجانب الإمام على بن

---

(١) أنظر الكامل للمبرد : ٣ / ٢٤٨ . دار نهضة مصر .
(٢) أنظر ص ١٠٥ ، ١٠٦ من الكتاب .
(٣) يهنأ بعيرا : يطليه بالهناء وهو القطران .
(٤) الكامل للمبرد : ٣ / ٢٤٩ . دار نهضة مصر .
(٥) أنظر شعر الخوارج د . إحسان عباس . هامش ص ٤٩ .

أبي طالب ، ثم أنكر التحكيم ، وهو مع ذلك لم يخرج كغيره من الخوارج يستعرض الناس ، ولكنه هرب بدينه دون أن يخيف السبيل ، أو أن يصيب مسلما بالذعر ، ورأى أن القتال لا يكون إلا دفاعا عن النفس .

وقد ذكر المبرد ما يفيد أنه كان يدين بالتقية ، حيث نصح البلجاء الخارجية أن تستتر بعد أن كانت تحرض الناس على ابن زياد (١) ، ومع ذلك فلم ير أبو بلال حرجا من العزم على الخروج وبخاصة بعد أن خرج من السجن ورأى تشدد ابن زياد في طلب الشراة ومطاردتهم .

وله أشعار في الخروج منها (٢) .

أبعد ابن وهب ذي النزاهة والتقى * ومن خاض في تلك الحروب المهالكا
أحب بقاء أو أرجى سلامة * وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا
فيارب سلم نيتي وبصيرتي * وهب لي التقى حتى ألاقي أولئكا

وقد اعتقل أخوه عروة بن أدية ، وجيء به إلى عبيد الله بن زياد فقتله فغضب لذلك أبو بلال ، وخرج إلى الأهواز في أربعين رجلا من أصحابه ، فلقيه عبد الله بن رباح الأنصاري وكان له صديقا ، فقال له : يا أخي : أين تريد ؟ قال : أريد أن أهرب بديني وأديان أصحابي من أحكام هؤلاء الجورة فقال له أعلم بكم أحد ؟ قال : لا ، قال : فارجع ، قال أو تخاف على مكروها ؟

---

(١) الكامل : ٣ / ٢٤٨ . دار نهضة مصر .
(٢) شعر الخوارج : ٤٨ ، ٤٩ .

قال : نعم ، وأن يؤتى بك ! قال فلا تخف ، فإني لا أجرد سيفا ، ولا أخيف أحدا ، ولا أقاتل إلا من قاتلني » (١) .

وقد أرسل إليهم ابن زياد جيشا فى ألفين من الجنود فهزمته الخوارج ، وفى ذلك يقول شاعر الخوارج عيسى بن فاتك (٢) :

أألفا مؤمن فيما زعمتم * ويهزمهم بآسك أربعونا

وبعد أن هزم أبو بلال هو والفئة القليلة من أصحابه هذا الجيش الكبير ، عاد عبيد الله بن زياد فأرسل إليهم جيشا آخر بقيادة عباد بن أخضر المازنى وأثناء القتال حان وقت صلاة الجمعة ، فاستأذن أبو بلال وأصحابه فى أن يصلوا وسرعان ما انهال عليهم جنود عباد وهم مابين راكع وساجد فقتلوهم جميعا سنة ٦١ هـ وأتى برأس أبى بلال (٣) .

ويظهر أن صلة عمران بن حطان بأبى بلال كانت قوية ، يؤكد ذلك أن مقتل أبى بلال كان من أكبر الأحداث التى أثرت فى نفس عمران بن حطان حتى ليخبرنا أنه بغضه فى الحياة وحببه فى الخروج ، وجعله يهم بحمل السلاح. يقول عمران (٤) :

لقد زاد الحياة إلى بغضا * وحبا للخروج أبو بلال

(١) الكامل للمبرد : ٣ / ٢٥ . نهضة مصر . (٢) شعر الخوارج : ٥٤ .
(٣) أنظر الكامل للمبرد : ٣ / ٢٥٤ . نهضة مصر.
(٤) شعر الخوارج : ١٤٢ ، ١٤٣ .

وعروة بعده سقيا ورعيا * لعروة ذى الفضائل والمعالى
أحاذر أن أموت على فراشى * وأرجو الموت تحت ذرى العوالى
ولو أنى علمت بأن حتفى * كحتف أبى بلال لم أبال
فمن يك همه الدنيا فإنى * لها والله رب البيت قالى

وقد ظلت ذكرى أبى بلال تسيطر على نفس عمران طويلا ، فقد تغير كل شىء بعد موت أبى بلال ، وكأن الناس جميعا ماتوا بموته . يقول (١) :

أنكرت بعدك من كنت أعرفه * ما الناس بعدك يا مرداس بالناس

هذه هى شخصية أبى بلال مرداس وعقيدته وفنه فى القليل من شعره الذى وصل إلينا . فهو خارجى زاهد ، يحذر الناس من الانخداع بالحياة ، وهو إنسان ذو عقيدة يؤمن بها فى صلابة ، وهو بكل هذا مثال دقيق لتلك الجماعة الخارجية فى إيمانها وجرأتها وتمسكها بالحق وصراحتها به .

(١) شعر الخوارج : ١٤٢ .

الخـاتمـــة

أما بعد : فإنه ليخيل إلى أن أول مايتبادر إلى ذهن القارىء بعد قراءة هذا البحث سؤال تقليدى ، هو : ماهى المعالم البارزة فى هذا البحث ؟ وماهى النتائج التى هدى إليها .

ولا شك أن هذه المعالم وتلك النتائج كانت السبب فى اختيارى لهذا الموضوع ، وإن كنت لم أزعم لنفسى أنى أحطت بجميعها علما ، وأنى سددت منها كل ثغرة ، فليس يضيرنى ألا يبلغ جهدى درجة الكمال ، وإنما الذى يضيرنى أن أكون قد قصرت عن الوصول إلى غاية كان يمكننى بلوغها .

وشعراء البحث هم شعراء الخوارج ، وهم طائفة تجمعهم وحدة الظروف والأحوال ، ووحدة الوسيلة لمقاومة هذه الظروف وتلك الأحوال ، وموضوع البحث بفصوله المختلفة هو « الفروسية فى شعر الخوارج » من حيث بيان مدى تأثير الظروف المحيطة بالخوارج فى شعر الفروسية ، وتصوير هذا الشعر لهذه الظروف والأحوال وتعبيره عنها ، مع مراعاة أن كل الظروف المحيطة بهذا الشعر كانت تدور حول حياة الخوارج بما فيها من صراع ، نتيجة لتفرغ الخوارج لهذه الحياة بما فيها من أهوال .

ولست أشك فى أن الدارس للخوارج وشعرهم يخرج من دراسته بصورة تختلف اختلافا كبيرا عن الصورة التى كانت مرتسمة فى ذهنه وذهن كثير من الباحثين ، وما أظن هذا الدارس إلا موافقا لى على أن كثيرا من

شعر الفروسية عند هذه الطائفة يسمو إلى قمة فى جودة الشاعرية والتصوير.

وهذه هى أهم النتائج التى هدى إليها البحث :

١ ـ إن شعر الفروسية يعد تتمة طبيعية لصراعات العصر الأموى وخصوماته ، فالحياة الجديدة التى شهدها العصر ، وما تهيأ لها من أسباب وظروف سمحت بنشأة مثل هذا اللون من الشعر ، بل كانت عاملا قويا فى اتساع آفاقه وتعدد مناحيه . ولا شك أن سطوة التاريخ على شعر الخوارج كانت أقوى مما كانت عليه فى أى عصر من العصور أو لدى أى حزب من الأحزاب ، فكل قصيدة من قصائدهم تتصل اتصالا وثيقا بتاريخهم وتمسه من قريب أو بعيد .

٢ ـ شعر الفروسية عند الخوارج يمتاز بأنه وليد مواقف وصراعات حقيقية وقعت بالفعل . فشعراؤهم الذين تغنوا بهذا الشعر كثيرا ما كابدوا الحروب ، وعانوا شدائدها ، وفروسيتهم تصور الحماسة العربيـة فى أصدق مظاهرها وأروع بيئاتها ، وقد بزوا سائر الأحزاب بفرط شجاعتهم وفيض حماستهم ، وكانت البطولة موزعة على جميع أفرادهم ، حتى إنك لم تكد تجد واحدا منهم لم تكن الحرب من حظه ، أو لم تكن له صلة قريبة أو بعيدة بأيامهم ووقائعهم . ومن يتصفح تاريخهم يجد أنهم جميعا فرسان أمجاد فى شجاعتهم وجهرهم بالحق ، ووفائهم بعهودهم ، وتقديرهم لما عليه أعداؤهم من شجاعة وإقدام .

ومن يتمثل خوارق فروسيتهم يجد فرسانهم يبدون أبطال الأساطير

والملاحم ، ونحن تتملكنا الروعة وتغلبنا الدهشة حين نذكر أسماء فرسانهم :

« أبو بلال مرداس ، والبهلول بن بشر الشيباني ، وشبيل بن عـزرة ، والضحاك بن قيس ، والطرماح بن حكيم ، وعبيدة بن هـلال اليشكري ، وعمران بن حطان ، وعمرو بن الحصين ، وعمرو القنا ، وعيسى بن فاتك ، وقطري بن الفجاءة ، ومرداس بن أدية ، ونافع بن الأزرق ، ونجدة بن عامر » .

٣ ـ شعر الحرب كان من أهم الأغراض التي يمكن أن نلمس منها المقومات الشخصية لشعراء الخوارج الفرسان ، ففروسية هؤلاء الشعراء كانت الصدى الأدبي الأول لحروبهم العديدة المتواصلة إن نصرا أو هزيمة ، وفوق ذلك فلم يكن شيء في شعر الخوارج أعذب نغما ولا أبعـد أثرا من شعر الحرب وشئون القتال .

٤ ـ والنتيجة المنطقية لكل ما سبق أن نرى ما كان عليه شعر الخوارج من أصالة وشاعرية صادقة ، فقد مثل حياتهم المنفردة المتميزة ولم يتجاوزها ، وصور واقعهم الذي يعيشونه ، وما أظن القارىء إلا موافقا لي على أن هؤلاء الشعراء لو لم يعيشوا تلك الحياة القلقة المضطربة لكان لكثير منهم شأن غير هذا الشأن ، ولكان لهم قصب السبق في شعر الفروسية والريادة فيه .

وإني لآمل أن أكون قد وفقت إلى بعض الصواب ، والله المستعان وهو الهادي إلى سواء السبيل .

أهم المراجـــع والمصادر

١ - القرآن الكريم .

٢ - الأخبار الطـوال ، أبو حنيفة الديثورى ، طبعة ليدن .

٣ - الأدب الأموى د . إبراهيم أبو الخشب . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٤ - أدب الخوارج د . سهير القلماوى . لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٥ - أدب السياسة فى العصر الأموى د . أحمـــد الحوفى . دار نهضة مصر الطبعة الخامسة .

٦ - الأدب العربى بين البادية والحضر د . إبراهيم عوضين . مطبعة السعادة الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م .

٧ - أشعار الشعراء الستة الجاهليين ، الشنتمرى . دار الآفاق بيروت .

٨ - الإصابة فى تمييز الصحابة ، العسقلانى :

* الجزء الأول . دار المثنى ١٣٢٨ هـ .

٩ - الأصمعيـــات :

* الجزء الأول ، تحقيق شاكر وهارون ، دار المعارف ١٩٥٥ م .

١٠ - أصول النقد الأدبى ، الشايب . النهضة المصرية ، الطبعة الثامنة ١٩٧٣م.

١١ - أعيان الشيعة للعاملى :

* الجزء الأول . مطبعة ابن زيدون دمشق ١٣٥٤ هـ .

١٢ - الأغانى للأصفهانى :

* الأجزاء : ٢ ، ٣ ، ٦ ، ٨ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢١ ، طبعة دار الشعب .

* الجزء السابع عشر . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٨٩هـ ١٩٧٠م.
* الجزء الواحد والعشرون . الهيئة المصرية العامة ١٣٩٣هـ ١٩٧٣ م .
١٣ - أغانى الأغانى للأصفهانى . مؤسسة بدران للطباعة والنشر .
١٤ - الأمالى للقـــالى :
* الجزء الأول . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ م .
* الجزء الثـانى . دار الكتب ١٩٢٦ م .
١٥ - أيام العرب فى الجاهلية ، محمد جاد المولى والبجاوى . القاهرة ١٩٤٢ م .
١٦ - البداية والنهاية لابن كثير :
* الجزء الثامن . القاهرة ١٣٤٨ هـ .
١٧ - البيان والتبيين للجـاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون :
* الجزء الأول . نشر مكتبة الخانجى .
* الجزء الثانى . نشر مكتبة الخانجى .
* الجزء الثالث . نشر مكتبة الخانجى ، الطبعة الرابعة ١٣٩٥هـ ١٩٧٥ م.
١٨ - تاريخ آداب اللغة العربية ، جورجى زيدان :
* الجزء الأول . الهلال ١٩٣٦ م .
١٩ - تاريخ الأدب العربى د . شوقى ضيف :
* (العصر الإسلامى) دار المعارف ، الطبعة الثانية .
٢٠ - تاريخ الأمم والملوك للطبرى . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم :
* الجزء الثالث . دار المعارف الطبعة الثالثة .

* الجزء الخامس. دار المعارف الطبعة الرابعة ومطبعة الحسينية بالقاهرة.

* الجزء السادس . دار المعارف الطبعة الثانية .

* الجزء السابع . دار المعارف الطبعة الثانية ، والطبعة الرابعة .

٢١ - تاريخ الدولة العربية د . عبد العزيز سالم . مؤسسة شباب الجامعة للطباعة.

٢٢ - تاريخ الشعر السياسى إلى منتصف القرن الثانى ، احمد الشايب . النهضة المصرية ، الطبعة السادسة ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م .

٢٣ - تاريخ الشعر العربى د. الكفراوى :

* الجزء الأول . دار نهضة مصر .

٢٤ - تاريخ اليعقوبى :

* الجزء الثانى . دار صادر بيروت .

٢٥ - التجديد فى الأدب المصرى الحديث د . عبد الوهاب حمودة . دار الفكر العربى ، الطبعة الأولى .

٢٦ - التطور والتجديد فى الشعر الأموى د . شوقى ضيف . دار المعارف ، الطبعة السادسة .

٢٧ - تقاليد الفروسية عند العرب ، واصفت بطرس غالى ، ترجمة أنور لوقا ، مراجعة وتحقيق حسنى محمد النجار . دار المعارف ١٩٦٠ م .

٢٨ - تهذيب التهذيب ، للعسقلانى :

* الجزء الثامن . حيدر آباد ١٣٢٧ هـ .

٢٩ - ثورة الأدب د . هيكل . القاهرة ١٩٤٨ م .

٣٠ - جمهرة خطب العرب ، أحمد صفوت :
* الجزء الثانى . الحلبى ١٩٣٣ م .
٣١ - حلية الفرسان وشعار الشجعان للأندلسى ، تحقيق محمد عبد الغنى حسن . دار المعارف .
٣٢ - الحماسة ، تأليف السباعى بيومى وآخرين . طبعة وزارة التربية والتعليم .
٣٣ - خزانة الأدب للبغدادى ، تحقيق عبد السلام هارون :
* الجزء الثانى . دار الكاتب العربى ، القاهرة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م .
* الجزء الثالث » » » ١٣٨٧ هـ ١٩٦٨ م .
٣٤ - الخطابة فى صدر الإسلام د . محمد طاهر درويش :
* الجزء الثانى . دار المعارف بمصر ١٩٦٧ م .
٣٥ - خمسة دواوين للعقاد . الهيئة المصرية العامة ١٩٧٣ م .
٣٦ - الخوارج فى العصر الأموى د . نايف معروف ، دار الطليعة بيروت ، الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧ م .
٣٧ - الخوارج والشيعة ، يوليوس فلهوزن ، ترجمة د . عبد الرحمن بدوى ، وكالة المطبوعات بالكويت ، الطبعة الثانية ١٩٧٦ م .
٣٨ - الدولة الأموية فى الشرق د. الطيب النجار ، الطبعة الثالثة .
٣٩ - ديوان أبى فراس الحمدانى . دار صادر بيروت .
٤٠ - ديوان امرىء القيس ، تحقيق أبو الفضل . دار المعارف ، الطبعة الثالثة .
٤١ - ديوان حاتم الطائى ، دار صادر بيروت ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م .

٤٢ - ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ، بيروت ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م .

٤٣ - ديوان عنترة . دار صادر بيروت .

٤٤ - ديوان الفرزدق :

* الجزء الأول . دار صادر بيروت ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م .

٤٥ - رياض الصالحين ، مكتبة شباب الأزهر .

٤٦ - زهر الآداب للحصرى :

* الجزء الثانى المطبعة الأميرية .

٤٧ - شرح ديوان الحماسة للمرزوقى :

* الجزء الأول ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ م ١٩٦٧ .

* الجزء الثانى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة الطبعة الثانية ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨ م .

٤٨ - شرح ديوان زهير بن أبى سلمى . الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م .

٤٩ - شرح ديوان المتنبى ، وضع البرقوقى :

الجزء الثانى ، والجزء الرابع دار الكتاب العربى بيروت .

٥٠ - شرح المعلقات السبع للزوزنى ، الحلبى الطبعة الثالثة ١٣٧٩ هـ ١٩٥٩ م .

٥١ - شعراء العرب الفرسان فى الجاهلية وصدر الإسلام د . محمود حسن أبو ناجى . مؤسسة علوم القرآن ، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م .

٥٢ - شعراء النصرانية ، لويس شيخو :

* الجزء الثاني . مكتبة الآداب ومطبعتها بالقاهرة .

٥٣ - شعر البصرة في العصر الأموي د . عون قاسم . دار الثقافة بيروت ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م .

٥٤ - شعر الحرب في أدب العرب د . زكي المحاسني . دار المعارف الطبعة الثانية ١٩٧٠ م .

٥٥ - شعر الخوارج ، جمع وتقديم د . إحسان عباس . دار الثقافة بيروت الطبعة الثالثة ١٩٧٤م .

٥٦ - شعر الصعاليك د . عبد الحليم حفني . الهيئة المصرية العامة ١٩٧٩ م .

٥٧ - الشعر والشعراء لابن قتيبة :

* الجزء الأول تحقيق أحمد شاكر . الطبعة الثالثة ١٩٧٧ م .

* الجزء الثاني . دار المعارف ١٩٦٦ م .

٥٨ - الشعر وطوابعه الشعبية د . شوقي ضيف . دار المعارف ١٩٧٧ م .

٥٩ - صبح الأعشى للقلقشندي :

الجزء الأول . القاهرة ١٩١٣ م .

٦٠ - الصعلكة والفتوة في الإسلام د . أحمد أمين . دار المعارف ، سلسلة اقرأ أبريل ١٩٥٢ .

٦١ - (١٠) عشر ثورات في الإسلام د . علي حسني الخربوطلي ، دار الآداب ، بيروت . الطبعة الثانية ١٩٧٨ م .

٦٢ - العقد الفريد لابن عبد ربه :

* الجزء الأول . لجنة التأليف والترجمة، الطبعة الثانية ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨م.

* الجزء الثالث » » » » الثالثة ١٣٩١ هـ ١٩٧١م.

* الجزء الخامس » » » » الثالثة ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣م.

٦٣ - العمدة لابن رشيق ، تحقيق محى الدين . دار الجيل للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م .

٦٤ - عيون الأخبار لابن قتيبة :

* الجزء الأول . طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٥ - ١٩٣٠ م .

٦٥ - الفتوة عند العرب ، عمر الدسوقى . نهضة مصر .

٦٦ - فجر الإسلام ، أحمد أمين . النهضة المصرية . الطبعة الثانية عشرة ١٩٧٨م.

٦٧ - الفرق الإسلامية فى الشعر الأموى د . نعمان القاضى ، دار المعارف ١٩٧٠م.

٦٨ - الفرق بين الفرق للإسفراييني ، تحقيق محى الدين . مطبعة المدنى القاهرة.

٦٩ - الفروسية لابن القيم ، دار التراث العربى للطباعة والنشر .

٧٠ - قضايا النقد الأدبى الحديث د . محمد السعدى فرهود ، دار الطباعة المحمدية ، الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م .

٧١ - قيم جديدة للأدب العربى د . بنت الشاطىء ، طبعة ١٩٦١ م .

٧٢ - الكامل لابن الأثير :

* الجزء الثانى ، دار الفكر بيروت ١٩٧٨ م .

* الجزء الثالث ، مطبعة المعارف القاهرة ١٨٦٧ م .

* الجزء الرابع ، دار صادر بيروت ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م .

٧٣ - الكامل للمبرد :

* الجزء الثانى ، مكتبة المعارف بيروت .

* الجزء الثالث ، طبعة الحلبى ١٣٥٦هـ١٩٣٧م ، وطبعة دار نهضة مصر .

٧٤ - محاضرات الأدباء ، الراغب الأصفهانى :

* الجزء الثانى ، بيروت .

٧٥ - مروج الذهب للمسعودى :

* الجزء الثانى ، المطبعة البهية المصرية ١٣٤٦ هـ .

٧٦ - معجم البلدان ، ياقوت الحموى :

* الجزء الخامس ، دار صادر بيروت ١٩٥٧ م .

٧٧ - المقارنة بين الشعر الأموى والعباسى فى العصر الأول د . عزيز فهمى ، دار المعارف .

٧٨ - الملل والنحل للشهرستانى ، تحقيق محمد سيد كيلانى :

* الجزء الأول ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت الطبعة الثانية ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م ، وطبعة سنة ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م .

٧٩ - النقد الأدبى ، أحمد أمين :

* الجزء الأول ، النهضة المصرية ، الطبعة الرابعة .

٨٠ - النقد الأدبى، د. غنيمى هلال، دار النهضة المصرية الطبعة الرابعة ١٩٦٩م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
١ ـ استعذاب الموت واستطابته	٧٩
٢ ـ قوة الإرادة والحزم	٨٨
٣ ـ الافتخار بالشجاعة والفروسية	٩٥
٤ ـ النزعة العصبية	١٠٧
٥ ـ العناية بالجواد	١١٢

الفصل الرابع

الفصل الخامس

رجاء واعتـــذار

هـــذه أخطاء مطبعية أرجـــو من القارىء الكريم أن يتفضل مشكورا بتصويبها :

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٧	٧	المصرية	المضرية
٨	١٠	جـــلة	جـــولة
١٢	١٣	بنهم	بينهم
١٣	١١	نخذوا	نجدوا
١٨	٨	الهمزانى	الهمذانى
١٨	٩	مصرح	مسرح
١٨	١١	تحقيا	تحقيقا
١٨	حاشية رقم ١	الاصفرايينى	الاسفرايينى
٢٠	١٠	العقود	القعـود
٢٢	٥	جواجب	حواجب
٢٢	٧	حدق	حلـق
٢٥	١٠	وما لبثو	وما لبثوا
٤٣	٣	ولعل غاية الشعراء	ولعل غاية الخلفاء
٤٩	١٦	القاهوس المحيط	القاموس المحيط

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٧٩	١٤	الأبرار الذى	الأبرار الذين
٨٣	حاشية رقم ٣	ارثت	ارتث
٨٨	٧	تكاد تكود	تكاد تكون
٨٨	١٤	لكان يرجىء	لكان يرجى
١٢٤	حاشية رقم ٢	لأبى القيم	لابن القيم
١٣٢	١	أمر ديثوى	أمر دنيوى
١٧٢	١٥	فى وجه	فى وجهه
٢٠٣	٨	إل	إلا

رقم الإيداع ٧٢٦٦ / ١٩٨٥

مكتبة ومطبعة الرضا بطنطا
شارع الجمهورية